إطلالة على التراث

تأليف
عبد العزيز بن عبد الله الخويطر

الجزء السابع

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ/١٩٩٥م

إطلالة على التراث

الجزء السابع

تأليف
عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

الرياض - الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ

٨١٠,٨ الخـويطـر ، عبدالعزيز بن عبدالله .
٦٣٦خ إطلالة على التراث / عبد العزيز بن عبدالله بن علي الخويطر .
- ط١. - الرياض: ع . ع . الخويطر، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م .
مج ٧ : ص ؛ ١٤,٥ × ٢١ سم .
ردمك : ٨ - ١١٨ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (مـج ٧)
٥ - ١١٤ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (المجموعة)
١ - الأدب العربي - مجموعات . ٢ - الحكايات العربية .
٣ - السعودية - المقالات العربية .
أ - العنـــوان .

رقم الإيداع : ٠٥٧٥ / ١٥
ردمك : ٨ - ١١٨ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (مـج ٧)
٥ - ١١٤ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (المجموعة)

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

مقدمة

ويمن الله سبحانه وتعالى، بعونه وتوفيقه، فيكمل الجزء السابع، ويلحق بما سبقه من أجزاء كتاب «إطلالة على التراث»، فيحتوي على عدد من المقالات كتبت في صحيفة «عكاظ»، في كل يوم سبت من كل أسبوع، ويأتي هذا الجزء وفي كل مقالة إضافة إلى ما نشر في «عكاظ»، ليتدارك نقص الموضوع، الذي قد كان حدث نتيجة صغر الحيز المعطى للمقالة؛ وكنت أمام أحد أمور ثلاثة، إما أن أرسله كاملاً، وقد يكون أربعة أضعاف حجم الحيّز المخصص، فيطبع بحرف صغير يكاد لا يقرأ، وهذا يضيع أغلب الهدف إن لم يضعه كله، أو تقسمه «عكاظ» إلى حلقتين، وهذا سيجعل القارئ يفقد الربط بين الحلقة الأولى والثانية. ولهذا اخترت الأمر الثالث، وهو أن أرسل «لعكاظ» ما يملأ حيّزها المخصص لمقالي،

ويأتي بخط مناسب، مريح لعين القارئ، ويساعد على الإخراج الجذاب، وأجعل الإضافة من نصيب الكتاب عندما يطبع، وهذا يضيف إلى مبرر طبع المقالات الصحفية في كتاب.

وهذا الجزء مثل الأجزاء الستة الأولى في هدفه، وفي منهجه، وفي أسلوبه؛ وقصد به أن يخدم الأغراض التي سبق أن وضعت لهذا الكتاب، ويرمي إلى الفائدة التي جاءت بها النية من أول الأمر. وقد يأتي فيه ما يميزه عن سابقاته لأن موضوعًا فيه تطلب تميزاً في جانب من الجوانب، كما قد يكون ما سبقه من أجزاء تميز كل منها بجانب من الجوانب.

والعنوان للمقالات والنصوص التي تختار له، وتندرج تحته هي التي تساهم في شكل الكتاب وفحواه، وقد يتيح استطراد في أمر ما إلى ما يأتي بفائدة غير متوقعة، تعتبر توفيقاً من الله، وقد يأتي ذلك بصفة إرشادٍ هادٍ مغلف، أو مقارنة بين الماضي والحاضر، أو نقد دعا إليه فكرة طرأت،

أو خاطر مرّ؛ وأجد أحياناً أن ما انتهى إليه المقال يتعدى ما كنت خططت له ونويته، وكنت أجد هذا إلى الأحسن، ولهذا كثيراً ما أرخيت للقلم العنان؛ لأني وجدت أنه انفتح طريق يوصل إلى روض زاهر، وإني وإن كنت في تتبعي للنصوص كمن يبحث عن العسل ليجنيه، ولكنه يجد في طريقه فاكهة ناضجة، أو زهرة فواحة، فيقف ليقطف هذه، ويشم تلك، دون أن يعوقه هذا عن جني الشهد، هدفه الرئيسي.

وإذا كان من أهداف هذا الكتاب تحبيب الناشئة للتراث، وكشف جماله لهم، وعرض الدرر التي تكمن في بحره، فإن المثابرة في الأجزاء السابقة قد نتج عنها إتقان أفضل في الاختيار، ومعالجة أَوْفَى لما يختار لاحقاً، لأن ما مر أشبه بالتمرين، وأقرب للتدريب، ولهذا فقد يحدث أن نصاً استفيد منه لعدة أغراض، وعرض بعدة طرق.

وكذلك المسعى لإيجاد ملكة النقد عند القارئ

الناشئ، فإن بعض النصوص يهدي نفسه للنقد، ويصرخ قائلاً: «شرحوني، ففي داخلي غير ما في ظاهري»، ولاشك أن العثور على نصوص أكثر تفيد في تأكيد أمر أو نفيه.

والمقارنة بين نص يفيد عن زمن مضى ونص حديث أو حالة حديثة، وجد في هذا الكتاب، مثل سابقاته، حيزاً يليق بهذا الجانب من الفكر، وهو جانب ممتع، خاصة وأن فيه من التنوع ما يأتي بمفاجأة أحياناً؛ فلا يدري الإنسان هل يأتي النص في الأكل، أو في اللباس، أو في المال أو في الاقتصاد، فقد أدى توفر النصوص، مع التبصر في الحياة الحاضرة، إلى أن كثيراً مما يروى عن زمننا الحاضر، ما هو في الحقيقة إلا إعادة صياغة لحادثة حدثت في العصر الأموي أو العباسي، وقد غيرت فيها الأسماء، وطمست وأبعدت عما يقرنها بزمنها، وأصبحت تقال عن فلان في زمننا، مدحاً أو ذماً.

وأحياناً تكون المقارنة في أمر وقع في ذلك

الزمان، ووقع مثله في زمننا، لأن المقدمات واحدة، والحوادث متشابهة، فجاءت النتيجة واحدة؛ وأحياناً يكون الأمر فكراً مَثَلاً أو حكمة، ويكون الإلتقاء على الفكرة نتيجة إعمال العقل، أو الاستفادة من التجربة، وتكون الخطوة ركبت على الخطوة دون أن يدري المعاصر أن من قبله قد فكر فيما فكر فيه.

هذا وفي بعض المقالات يُخدم الغرض بطرق عدة، بعضها يقصد قصداً مباشراً، وبعضها يأتي كأنه عارض، وغير مقصود، وتتحقق في النهاية الفائدة المرجوة، فمثلاً يأتي موضوع مثل النفاق، فتعالج في المقال هذه الرذيلة، والغرض الرئيس واضح منذ البدء في الحديث، ولكن تأتي في ثناياه معالجة لجانب آخر من أغراض التراث، مثل النحل، واختراع القصص، وكيفية تنقية النصوص، وتحديد طبيعتها ومراميها، لأن النص يوجب هذا، وبهذا يخدم أكثر من غرض في موضوعٍ المعلن فيه هدف واحد.

وقد يأتي نص ثم يأتي بعده نص آخر وثان وثالث، ثم يأتي الرابع وهو أقرب إلى النص الأول، مما قد يرى بعض الناس أنه كان يجب أن يأخذ محله بعد النص الأول، لا أن يفصل بينهما بنصوص بعيدة بعض الشيء عنهما، والذي دعى إلى هذا النهج أني لاحظت أن القارئ ـ وهو أمر أجده في نفسي ـ إذا تتالت النصوص المتماثلة ملّ القراءة، أما إذا أخذ جزءاً من الراحة في نص، ثم جيء له بما أُخَر لهذا الهدف، فإنه يكون أكثر قبولاً عنده.

هذا وأرجو أن يكون فيه من النفع ما أُمِّل فيه، وأن يجد القبول من قارئه، وأن يكون سبب خير في كسب أنصار جدد للتراث، فالتراث يستحق الالتفات، وهو عند كثيرين في زمننا مثل التبر في الترب، مجهول وهو ثمين، مهجور وهو غالٍ. . والله الموفق.

عبدالعزيز الخويطر

الخط عربة العلم[1]

إنه لا يكفي في الماء أن يكون عذباً صافياً ليقدم للضيف، أو ليشرب بمتعة على العطش، بل لابد لاكتمال اللذة أن يقدم في إناء نظيف، وإذا أمكن أن يكون الإناء بلورياً فهذا يضيف إلى اللذة في شربه المتعة في النظر إلى إنائه، ويزيد الكمال كمالاً أن يكون الكأس المقدم بالماء القراح الصافي العذب على «صينية» جميلة فيها إبداع وفن، ويوغل في الكمال أن يكون من يقدم الماء خادم نظيف الثياب، حسن الهندام، باسم الثغر، مؤدباً.

والعلم مثل الماء، له إناء يقدم فيه وهو الخط، وللخط «صينية» يوضع عليها الخط عند تقديمه وهو الورق، وللعلم والخط والورق كاتب يطلب منه حسن الهندام، والبشاشة والأدب.

---

(١) نشر جزء منها في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٢٩٥) في: ١٠/ ٥/ ١٤١٥هـ الموافق: ٥/ ١٠/ ١٩٩٤م.

فإذا ما قدم الماء القراح الصافي العذب في إناء قبيح، أو في وعاء غير نظيف، أو في «صينية» قذرة، أو بيد متوحشة، ووجه عبوس، فإن جزءاً كبيراً من اللذة يتلاشى، ومقداراً وافياً من المتعة يرتفع ويختفي، ولا يشرب المرء إلا مضطراً، هروباً من العطش، وهو هروب من ألم إلى ألم.

وكذلك العلم إذا قدم بخط قبيح، وكتابة مغلقة، فإنّ القارئ يعاني الأمرّين، حتى يفتح مقفلها، ويبين مبهمها، وقد يملها، فيتركها، ويستغني عنها، مهدراً الفائدة، وغانماً السلامة. ويجب أن لا يعبأ بقول من يقول: «الخَط ما قرئ والباقي صنعة» فهذه ملاذ الخائب، وحجة المقصر؛ لأننا جميعا ـ دون استثناء ـ نرى في أنفسنا أننا نُعجب بالخط الحسن، ونفرح بالكتابة الواضحة الجميلة، ونلتهم ما كتب بخط حسن، وقد نعيد القراءة لما سبق أن قرأناه، والفضل لله ثم للخط الجميل في العودة إلى القراءة، وما يأتي منها من استيعاب أكثر

من سابقتها، وتفهم أعمق لما يريد الكاتب أن يوصله إلى أذهاننا.

وكثيراً ما نصحت طلابي بتحسين خطوطهم، وكنت أدخل عليهم مدخلاً أعرف أنه يؤثر عليهم، وهو الاختبار، فأبين لهم أن الخَط الجميل يكسبهم درجات، لأن المدرس يقرأ براحة خطوطهم، ويستوعب بتأنٍّ ما كتبوه، وهذا يجعله في وضع نفسي لأن يكون كريماً في درجاتهم، فهو إن لم يزدهم لم ينقصهم، وهو إن لم يكرمهم لم يبخسهم حقهم. أما الخط القبيح المبهم، الذي يدل على عدم اعتناء، فإنه ينفر المدرس، ويدخله في حالة نفسية تجعله أقرب للمتحفز للجزاء، ثأراً للخط، فبدلاً من أن يتلمس الأعذار للطالب عن التقصير، يتلمس الأخطاء ليأخذ الحق من الطالب مضاعفاً، مبرراً هذا بما يتصوره من عدم اعتناء الطالب، وإهماله، فيبرر لنفسه إعطاءه درجة، أقل من النجاح، وفي ذهنه أنه ينفعه، لأن هذا سوف ينبهه إلى أهمية الخط أولاً،

وزيادة العلم ثانياً في الأجازة الصيفية .

أذكر عندما كنت أدرس طلاب السنة الرابعة في كلية الآداب تاريخ المملكة، أني صححت ورقتين في الامتحان النهائي، وكانت الأرقام سرية، وأخذ طالبان من بين الطلاب العشرين على ما أذكر الدرجة الكبرى، وكنت تواقاً أن أعرف من هما، وكنت انتظر اليوم الذي تخرج فيه النتائج، ولم يكن شوقي لذلك بأقل من شوق الطلاب أنفسهم، وعندما خرجت النتائج كان أحد الطالبين اسمه فلان فلاتة، أو هوساوي، لا أتذكر جيداً، والثاني هو الدكتور عبدالرحمن الشبيلي .

لقد كان خَطهما جميلاً منسقاً منتظم القاعدة، واضح الحروف والكلمة والجملة، وكان منظر الأسطر والصفحات يجذب النظر كأنك تنظر إلى لوحة فنية، وجاءت الإجابة والأفكار فيها تتنافس مع هذا الخط الجذاب الجميل، فحازا من أجل ذلك الدرجة العليا، ولو كان فوقها درجة ما قصرا عنها .

والخط هو اللوحة الجميلة التي وجد الفن الإسلامي فيها متنفسه، فانصرف الخيّرون إليه بعداً عن الصور والتصوير، فوجد ازدهاراً في زمن العباسيين، ثم زاد ازدهاراً في زمن العثمانيين، ولا نزال نعيش اليوم في كنف ما سنّوه وتركوه، ولقد تدهور حظ الخط مع الناس اليوم، فلم تعد العناية به كما كانت سابقاً، ولم يعد الناس يطلبون الخط الجميل، فالركض خلف المعلومات المتتابعة الكثيرة المغرقة، لاهثين، صرف الناس عن الخط، الذي لم يعودوا يجدون له وقتاً، وهو يحتاج إلى وقت وصبر وأناة، ولم يكن يغري بخدمته أمام هذا العناء إلا النتائج المجزية في نهاية الأمر.

ولكي نعرف بعضاً من أوجه الاعتناء، والنظرة الحانية لآبائنا إلى الخط، وما يتصل به، نقتطف بعض الأخبار والمعلومات عن هذا الجانب في التراث، غير ملتزمين بالاستقصاء العلمي الدقيق لأي جانب من الجوانب التي نسوقها، وإنما هي

نماذج من هنا وهناك، نأتي بها بضاعة مزجاة، لعلها تكون مقنعة لمن يريد أن يستقصي، وأن تجذبه لأن يعود إلى أخواتها التي لم نذكرها؛ والاستفادة الجانبية من الكتب التي حملتها طوال هذه السنين أمانة خفيفة جميلة.

وقبل ذلك أود أن أذكر أمراً مهماً يتعلق بالكتب وطباعتها، والخط الذي يختار للطبع. لاشك أن الحرف الكبير في الطبع في صفحة باسمه، لم يطل فيها السطر حتى يأكل الحاشية، ولم يعرض حتى يلتقم الهوامش، ولم تزدحم فيها الأسطر حتى تبدو مقطبة الجبين، يجذب القارئ، ويساعد على القراءة والاستيعاب، فلا ينتهي من قراءته متعباً، ولا يقطعها من أول الطريق.

وتتعارض المصلحة المادية في الطبع، فيرجح الجانب المالي، ويراعى وهو في الهامش، أكثر مما يراعى الهدف الأساس للتأليف، فيفقد الكتاب فائدته العلمية، وتضيع مع ذلك المنفعة المقصودة،

ويصبح الكتاب وثيقة مهملة، لا يقرؤها إلا من يضطر إلى مراجعتها، لحاجته الماسة إليها؛ ولكل شيء إخراج وثوب يظهر به، فإن لم يكن الثوب جذاباً رمى ظلاله على لابسه، وأطفأ كثيراً من شمعاته المضيئة. وهذا فن لم يتقنه كثير منا حتى الآن، مع أهميته، وتأثيره الكبير على جذب الناس إلى القراءة، وتحبيبهم لها.

والعناية بالخط في القديم، والاهتمام به، وإعطاؤه الدور اللائق به، والمنزلة التي يستحقها، متربعاً على مكانة عالية، ومقام محمود، لا يناله الأهمال، ولا يطوله الصد، ولا يوضع في زاوية النسيان، يسجل له أبو البركات عبدالقاهر بن علي بن عبدالله بن جرادة في الأبيات الآتية نظرته، فيقول:

ما اخترت إلا أشرف الرتب
خَطًّا أخلد منه في الكتبِ
والخط كالمرآة تنظرها
فترى محاسن صورة الأدب

هـو وحـده حسـب يطـال بـه

إن لم يكـن إلاهُ مـن حسـب

مـا زلـت أنفـق فيـه مـن ذهـب

حتى جرى فكتبت بالذهب(١)

وكان هناك من اشتهر من الخطاطين، وعلا شأنه، وذاع صيته، وأصبح له طريقة في الخط تعرف به، وتنسب إليه، فيها من الفن ما خالف به غيره، ومن التميز ما بَزَّ سواه، والنص التالي يبين لنا طريقتين تنسبان إلى خطاطين مشهورين:

«كان عمر بن أحمد (ابن العديم) يكتب النسخ على طريقة أبي عبدالله بن مقلة، والرقاع على طريقة علي بن هلال، وخطه حلو جيد، خال من التكلف والتعسف»(٢).

وفي هذا النص فائدة أخرى، وهو أنه يمثل حلقة لما نعرفه من أن هناك نوعين من الخط هما النسخ والرقعة، وقد تكشف التسمية هذه بهذه الصيغة

---

(١) معجم الأدباء: ١٦/ ١٦، ترجمة: عمر بن أحمد (ابن العديم).

(٢) معجم الأدباء: ١٦/ ١٢، ترجمة: عمر بن أحمد (ابن العديم).

الجديدة علينا، في كلمة «الرقاع» أصل كلمة الرقعة، وهي الكلمة التي تعودنا على استعمالها دون أن يكون في صيغتها ما يدل على سبب تسميتها.

وكان الآباء في الماضي البعيد، والماضي القريب، يحرصون على إتقان أبنائهم الخط، وبعضنا يذكر كيف كان آباؤنا يستغلون الأجازة الصيفية، فيرسلوننا إلى مدرسة الحلواني في باب «زيادة» وهي مدرسة متخصصة في الخط، يكتب لنا الحلواني سطراً، فنبتعد إلى مكان في الغرفة، أو في الباحة المجاورة، ثم نملأ الصفحة، أسطراً نقلد بها خطه، ثم يصحح لنا الخط، ويعدل لنا ما مال، وهو فضل لأهلنا نذكره اليوم، ونترحم عليهم من أجله.

وهذا نص قديم يُري عناية أحد الأباء بابنه، وحرصه على تعليمه تحسين خطه وتجويده، وسد منافذ العذر التي حاول أن يفتحها، ليهرب من هذا الواجب الذي وجهه له والده، ولكن الوالد عرف ما يدور في نفسه، وما يجول بخلده، فقطع عليه

الطريق، وأبطل عذره، والمتكلم الواصف للأمر هو ابن العديم، الوارد ذكره في النص السابق، وإليك الخبر فيما كان بينه وبين والده:

«قال ابن العديم. . . :

وكان والدي ـ رحمه الله ـ يحرصني على ذلك (تجويد الخط)، ويتولى صقل الكاغد بنفسه، فإني لأذكره مرة وقد خرجنا إلى ضيعة لنا، فأمرني بالتجويد (للخَط) فقلت:

ليس ههنا كاغد جيد.

فأخذ بنفسه كاغداً كان معنا رديئًا، وتناول شربة اسفيذر (استيفداج)، وكانت معنا، فجعل يصقل بها الكاغد بيده، ويقول لي: «اكتب» ولم يكن خطه بالجيد، وإنما كان يعرف أصول الخط، فكان يقول لي: هذا جيد، وهذا رديء. . ». [1]

إن أحدنا ليخجل عندما يقرأ هذا الخبر، ويقارن ما جاء فيه بما في حياتنا اليوم، من توفر وسائل

---

(١) معجم الأدباء: ١٦/ ٤٢، ترجمة: عمر بن أحمد (ابن العديم).

الكتابة من أقلام وورق، لا تعد أنواعها ولا تحصى، ومع هذا فلا نُلقي بالاً للخط والعناية به، أما هم فحتى الورق وتهيئته لاستقبال الكتابة يقومون به بأنفسهم، ولا يبالون بالجهد الذي يبذلونه، ولا بالعناء الذي يقابلونه.

ولم يضع مجهود هذا الأب المعتني بابنه، ولم يخسر تعبه في صقل الورق، وعوض الله الابن الذي ذهب مع والده للضيعة، للفسحة والراحة، ولكن والده شغله بدرس الخط والتدريب عليه وتحسينه، فقد أصبح لابن العديم شهرة جاءته مكافأة على ما بذل، وجائزة على ما تحمل.

والنص الآتي عن ابن العديم:

«وشاع ذكره في البلاد، وعرف خطه بين الحاضر والباد، فتهاداه الملوك، وجُعل مع اللآلئ في السلوك، وضربت في حياته الأمثال، وجعل للناس في زمانه حذواً ومثالاً؛ فما رغَّب في خطه أنه اشترى وِجْهَةً واحدة بخط ابن البواب بأربعين درهما، ونقلها إلى

ورقة عتيقة، ووهبها من حيدر الكتبي» .[1]

هذه نظرة الناس في ذلك الزمن إلى الكاتب ذي الخط الحسن الفائق، واحتفاؤهم به، واتخاذه مثلاً يحتذى، وهذا ثمن الخط الجميل، وإن كان قليلاً في نظرنا اليوم دفع أربعين درهماً لصفحة واحدة كتبها ابن البواب، وهو صاحب شهرة، ونقلها ابن العديم على ورقة قديمة، ووهبها لكتبي .

ـ[2] ولكن هذا المبلغ في زمنهم يعتبر عالياً، يساوي ما يدفع اليوم في الصورة النادرة التي تباع في مزاد عالمي في البلدان الغربية، فندهش للاقيام التي تدفع فيها، ونعتبر من يشتريها أحياناً لا يخلو من لوثة في عقله أو جيبه، أو فيهما معاً .

وهم أحياناً يذكرون أقياما لأمور تخص الخط والكتابة، وذكرهم لها من باب الاستغراب من ارتفاع المبلغ المدفوع فيها؛ وكانوا يعتنون بالأقلام

---

(١) معجم الأدباء : ١٦/ ٤٥ ، ترجمة : عمر بن أحمد (ابن العديم) .
(٢) هذه إضافة لم تنشر في صحيفة «عكاظ» .

والمحابر، وما يكون معها مكملاً لفن الخط وحسنه، والنص التالي يعطي فكرة عن جانب من هذه الجوانب:

«بيع لعمر بن الحسين الخطاط في تركته آلة الكتابة بتسع مئة دينار إمامية، من جملة ذلك: دواة بأزهر اشتراها بعض ولد زعيم الدين بن جعفر، صاحب المخزن، بتسع مئة دينار، وبيع له بالباقي سكاكين وأقلام وبراكر، وما شاكل ذلك». [1]

هذه هي العدة التي كانوا يتسلحون بها للكتابة، تعلو قيمتها حسب المادة التي صنعت منها، والخطاط الذي استعملها، جزء من ثمنها للمعدن الفاخر، وجزء لملكية الفنان الذي استعملها فترة. وإن ما يعرض من هذه الأشياء في المعارض والمتاحف يدل على عناية وذوق، ويدل على أنهم أهل فن راق، وليس عملهم للزينة والمنظر فقط، ولكنه للفائدة والاستعمال قبل ذلك؛ وجماله، ونبل المادة المصنوع

(١) معجم الأدباء: ١٦/ ٦٠، ترجمة: عمر بن الحسين الخطاط.

منها، تعطي لذة عند الاستعمال وترفع درجة الحماس للعمل وإتقانه، وإبعاد التعب، أو الركون إلى الاعتذار أو مبررات الراحة، وهذا مثل المكتب الجميل، والكرسي المريح في زماننا، فإنهما يساعدان على رفع معنوية العامل، ويبعدان عنه التعب، لأنهما يمدانه براحة جسمية ومعنوية.

أما عن ابن البواب الذي مرّ بنا ذكره فالنص التالي يكشف عن أهميته في فنه:

ورد في ترجمة ابن البَرَفْطي محمد بن أحمد الأنصاري الدَّسكري:

«كان في أول أمره معلماً، فلما جاد خطه صار محرراً. وكان يُبالغ في أثمان خطوط ابن البواب، فحصل له منها ما لم يحصل لأحد غيره، وُجدت عنده أكثر من عشرين قطعة بخطه أرانيها» [1].

هذا يؤكد أن خطوط المشهورين تباع كما تباع التحف، وبأثمان باهظة، وهناك من اتخذها تجارة،

---

(١) معجم الأدباء: ١٧/ ٢٨٠، ترجمة: محمد بن أحمد الأنصاري الدسكري.

ولعله كان يتصيد الشارد منها، حتى أصبح عنده ـ كما يقول الراوي ـ مجموعة منها

وفي موضع آخر من ترجمة الدسكري يقول ياقوت:

«ومات ـ رحمه الله ـ في أول رجب سنة خمس وعشرين وست مئة، وخلف خمسة وعشرين قطعة بخط ابن البواب لم تجتمع في زماننا عند كاتب، وكان يغالي في شرائها»[1].

وكان الخطاط له مريدون، وينتقل أحياناً من بلد إلى بلد كما فعل الدسكري عندما سافر إلى دمشق وإلى حلب ثم عاد إلى بغداد، والنص التالي يرسم بعض النشاط الذي قام به، ويبدو أن أمثاله يقومون به:

«وابن البرفطي هذا أوحد عصرنا في حسن الخط، والمشار إليه في التحرير، قد تخرج به خلق كثير، وسافر إلى دمشق، وكتب عليه كتابها؛ وأقام بحلب مدة مديدة، ثم عاد إلى بغداد.

---

(١) معجم الأدباء: ١٧/ ٢٧٨، ترجمة: محمد بن أحمد الأنصاري الدسكري.

وحفزه السفر إلى تستر صحبة الأمير ابن أبي محمد الحسن، وأبي عبدالله الحسيني، ابني الأمير الملك المعظم أبي الحسن علي بن الإمام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد أمير المؤمنين، لما ولاهما أرض خوزستان بعد موت أبيهما أبي الحسن علي، تقدم إلى ابن البرفطي بالخروج في خدمتهما، والسكون في جملتهما ليكتبا عليه، ويصلحا خطهما به، ويكون معلماً لهما». (١)

وهكذا بلغت العناية بالخط مبلغها، إذ استعان رجال مثل هذين الرجلين بمثل هذا الخطاط المشهور، وأخذاه معهما لينقطع لتعليمهما الخط وتحسينه.

والقصة الآتية طريفة، تري أهمية خط ابن البواب، وشغف الناس بخطه، ومدى البحث عنه واقتناء شيء منه، ودفع ثمن عال مقابل الحصول على قطعة منه. وفي القصة فوائد أخرى تذكرنا بما يجري اليوم

(١) معجم الأدباء: ١٧/ ٢٧٩، ترجمة: محمد بن أحمد الأنصاري الدسكري.

مع التحف من أن هناك من يبيعها جاهلاً قدرها وقيمتها، وهناك من يشتريها عارفاً قدرها، وقيمتها، ولمحة عن الخُلُق في ذلك الزمن، ويقظة الضمير، ومحاولة نقائه، بالبعد عن الغش والخداع في بضاعة من السهل فيها أن يُخدَع المرء أو يَخْدَع:

قال الراوي:

«بلغني عن رجل معلم في بعض محال بغداد أن عنده جُزَازاً كثيراً ورثه عن أبيه، فخيل لي أنه لا يخلو من شيء من الخطوط المنسوبة، فمضيت إليه، وقلت له:

أحب أن تريني ما خلف لك والدك عسى أن أشتري منه شيئاً.

فصعد بي إلى غرفة، وجلست أفتش حتى وقع بيدي ورقة بخط ابن البواب، قلم الرقاع، أرانيها أيضا، فضممت إليها شيئاً آخر لَا حاجة بي إليه، وقلت له:

بكم هذا؟

فقال لي: ياسيدي، ما صلح لك في هذا كله شيء آخر؟

فقلت له: أنا الساعة مستعجل، ولعلّي أعود إليك مرة أخرى.

فقال: هذا الذي اخترته لا قيمة له، فخذه هبة مني.

فقلت: لا أفعل، وأعطيته قطعة قُراضة، مقدارها نصف دانق.

فاستكثرها، وقال:

ياسيدي ما أخذت شيئاً يساوي هذا المقدار، فخذ شيئاً آخر.

فقلت: لا حاجة لي في شيء آخر.

ثم نزلت من غرفته، فاستحييت، وقلت: هذا مخادعة، ولاشك أنه قد باعني ما جهله، ووالله لا جعلت حق خط ابن البواب أن يُشترى بالمخادعة، فعدت إليه، وقلت له:

يا أخي هذه الورقة بخط ابن البواب، فقال:

وإذا كانت بخط ابن البواب، أي شيء أصنع؟

قلت له: قيمتها ثلاثة دنانير إمامية.

فقال: ياسيدي، لا تسخر بي، ولعلك قد عزمت على ردها، فخذها، وحُطَّ الذهب.

فقلت: بل أحضر ميزاناً للذهب.

فأحضرها، فوزنت له ثلاثة دنانير، وقلت له:

بعتني هذا بهذا؟

فقال: بعتك.

وأخذتها وانصرفت». [(١)]

هذا الموقف الطريف يكشف جوانب في حياة أهل الفكر في ذلك الزمن، الذي لم يختلف كثيراً في بعض جوانبه؛ فكثير من الأبناء اليوم عندما يموت سيد البيت، ويترك مكتبة عامرة بنوادر الكتب، ونفيس المخطوطات، ثم تباع في تركته بثمن بخس، أو تؤول إلى من لا يعرف قدرها من أبنائه، فتصبح يتيمة بين جدران بيته، ومضاعة على رفوف المكتبة،

---

(١) معجم الأدباء: ١٧/ ٢٨٠، ترجمة: محمد بن أحمد الأنصاري الدسكري.

وقد تتبعثر بالبيع والاستعارة، أو تأكلها الأرضة، ويبليها الجو الفاسد حولها.

وعن الآلات المستعملة للكتابة، ومظهر العناية بها من قبل الناس والخلفاء، واهتمامهم بها، والتفاتهم إليها ما ورد في النص التالي عنها:

«حدث محمد بن الجهم السمري، قال:

كنا إذا أتينا الأحمر تلقانا الخدم، فندخل قصراً من قصور الملوك، فيه من فرش الشتاء في وقته ما لم يكن مثله إلا دار أمير المؤمنين؛ ويدفع إلينا دفاتر الكاغد والجلود، قد صقلت، والمحابر المخروطة، والأقلام والسكاكين» .[1]

وكان الخط مما يُفْرَد المرء بالمدح به إذا أتقنه، ويوضع في مقدمة صفوف المتعلمين، وقواد الفكر، وهذا نص عن ابن المبارك، يبجله، ويعطيه حقه من التقدير، ويبلغ ذلك مبلغه عندما يقارن بابن البواب، ويقرن به، وابن البواب من المحاور التي لا يتعداها

---

(١) معجم الأدباء: ١٣/ ٩، ترجمة: علي بن الحسن الأحمر.

المدح، فهو يدور حولها، ولا يبعد عنها:

«كان المبارك بن المبارك بن المبارك ـ رحمه الله ـ فاضلاً زاهداً عابداً ورعاً إماماً، أوحد زمانه في حسن الخط على طريقة علي بن هلال بن البواب.

وكان ضنينًا بخطه جدًّا، فلذلك قلّ وجوده، كان إذا اجتمع عنده شيء من تجويداته يستدعي طستاً ويغسله، فأما إذا استفتي فإنه كان يكسر قلمه، ويجهد في تغيير خطه»[1].

ولا يتبين لنا السر في هذا، مع ان حسن الخط هبة فضلى من الله سبحانه وتعالى، ونعمة كبرى ضافية، شكرها في إشاعة نورها، كأن يكتب بها القرآن، وينسخ بها الصحاح؛ ولعل السبب في فعله، ومحوه آثاره، وطمس معالمها، وحنقه على قلمه وكسره، أنه خشي أن يشارِكَ فيما قد يكون رأى أنه إثم، فقد يكون الناس في احتفالهم بالخط دون فحواه متعَبِّدين، والعبادة لا تجوز إلا لله وحده، والمغالاة في تقدير

(١) معجم الأدباء: ١٧/ ٥٦، ترجمة: المبارك بن المبارك بن المبارك.

الجماد قد تفضي إلى نوع من تعلق القلب بها، وهذا قد يفضي إلى عبادة آثمة، وهو ما التفت له الإسلام في الصور، التي عبدت في زمن الجاهلية، ولا تزال تصرف لها العبادة في بعض الأديان، وفي بعض المعتقدات الوثنية.

ولعله يرى أن المهم معنى النص، وما احتوى عليه من إرشاد، وما الخط إلا خادم له، ووعاء لحمله، والأمر يقلب رأساً على عقب عندما يصبح الخادم سيداً، والحاوي محتوى، وهذا ما أرعب ابن المبارك، وجعله يفعل ما فعله.

وحسن الخط، والسير على قواعده أحد مؤهلات الخطاط، وأسباب الاعتراف به، والإقبال على ما يكتب، وامتداحه وشهرته، وهذا علي بن منجب بن سليمان الصيرفي أبو القاسم قيل عنه ما يلي:

«علا شأنه في البلاغة والشعر والخط، فإنه كتب خطًّا مليحاً، وسلك فيه طريقة غريبة». [1]

---

(١) معجم الأدباء: ٥/ ٧٩، ترجمة: علي بن منجب الصيرفي.

وهذا يؤكد أن إتقان أصول الخط، وحسنه، لا يكفي لشهرة الشخص وبروزه، ولكن لابد أن يبتدع بجانب ذلك طريقة ينفرد بها، تعطي خطهُ شخصية تميزه عن غيره، بحيث يعرف ما يكتب عما يكتبه غيره، ويكون في ذلك من التميز ما يجذب إليه الأنظار، وينسخ سمعة من سبقه.

والورق وأنواعه والعناية به مما أخذ حيّزاً واسعاً من تفكيرهم، وأصبح لذلك أنواعاً، وللأنواع أسماء، ولصنعه طرق؛ ومن النص التالي يتبين لنا شيء من هذا، ونعرف منه مظهراً من مظاهر العناية التي كانوا يولونها للورق وتجليده وتجميله، مما جعله يقاوم مرور الزمن، وحوادث الأيام:

«قال علي بن عيسى الربعي:

أخرج إليّ عضد الدولة بيده مجلداً بأدم، مبطن بديباج أخضر في أنصاف السلطاني، مذهب، مفصول بالذهب بخط حسن»(١).

---

(١) معجم الأدباء: ١٤/ ٨٤، ترجمة: محمد علي بن عيسى بن الفرج الربعي.

هذا عن الكتاب وعن الورق وعن الحجم، أما الكتابة التي يحتويها أمثال هذا المجلد المعتنى به هذه العناية كلها، فيمثل جزءاً منها النص التالي:

ورد في ترجمة علي بن محمد بن عبيد بن الزبير الأسدي (ابن الكوفي):

«صاحب الخط المعروف بالصحة، المشهور بإتقان الضبط، وحسن الشكل. فإذا قيل: نقلت من خط ابن الكوفي، فقد بالغ في الاحتياط.

قال مؤلف الكتاب (ياقوت): ورأيت بخطه عدة كتب، فلم أر أحسن ضبطاً وإتقاناً للكتابة منه، فإنه يجعل الإعراب على الحرف بمقدار الحرف احتياطاً، ويكتب على الكلمة المشكوك فيها عدة مرارٍ: صح صح صح، فكان من جماعي الكتب، وأرباب الهوى فيها.

وذكره ابن النجار في كتاب الكوفة.. قال.. الذي خَطُّهُ اليوم يؤتدم به، وبيع جزازات كتبه،

ورقاع سؤالاته من العلماء كل رقعة بدرهم» . [1]

ولا عجب أن يقال ما قيل في النص السابق من الحفاوة بمن يعتني بالخط وحسنه، فالخط هو الوسيلة الأولى لنقل العلم، فكلما حسن زاد انجذاب القارئ إلى القراءة، وقرأ براحة وابتهاج، وتوفر له بذلك الوقت والجهد، مع إدراك منه بتعب الآخرين من أجله، وسهرهم لراحته. وهم يقدرون الخط الواضح الحسن، ويمتنّون لكاتبه، لأن في ذلك محافظة على العلم نفسه، ودرء الزلل عنه عند القراءة، ولهذا أشار النص إلى الميزة التي اتصف بها ابن الكوفي، هي واحدة من عدة ميزات، وهي «اتقان الضبط» وفي هذا وقاية من الخطأ بقدر جهد الإنسان، و «حسن الشكل» للجمال الجاذب المريح للعين وللنفس؛ وعاد وأكد ياقوت هاتين الميزتين بقوله: «فلم أر أحسن ضبطاً وإتقاناً للكتابة منه»، والجمال يؤكده قوله: «فإنه يجعل الإعراب على

---

(١) معجم الأدباء: ١٤/ ١٥٣، ترجمة: علي بن محمد بن عبيد بن الزبير الأسدي.

الحرف بمقدار الحرف احتياطاً، وفي هذا أيضاً إتقان للخط، وإبعاد للزلل الذي يحدث من زحف الإعراب وشكله من حرف إلى حرف، ولا أدل من عنايته ويقظته من كتابة: «صح» عدة مرات.

وتأتي قمة التقدير في قول المؤلف: إن خطه يؤتدم به، وهو قول ليس بعده مزيد من المدح. أما القيمة التي بيعت بها الجزازات فهي بلا شك مرتفعة، ولكننا لا ندرك ذلك في زمننا هذا، لعدم تصورنا لقيمة الدرهم، وما يأتي منه عندما يُشترى به.

وقد يَرْمي النص التالي إشعاعاً على الأسعار لمن أراد أن يبحث ويقارن، ولكن الجدوى لنا محدودة، لاختلاف المعيشة اليوم ومستواها عن تلك الأيام، اختلافاً يصعب معه تصور القيمة إلا لمتخصص في المال والأسعار، ولكنه نص مفيد من بعض جوانبه:

«حدث ابن عيسى الموصلي... قال:

كتب إليّ أبو تغلب يأمرني بابتياع كتاب الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، فأبتعته له بعشرة آلاف

درهم، من صرف ثمانية عشر درهما بدينار؛ فلما حملته إليه، ووقف عليه، ورأى عِظَمَهُ، وجلالة ما حوى، قال:

لقد ظُلم ورّاقهُ المسكين، وإنه ليساوى عندي عشرة آلاف دينار، ولو فُقِد لما قَدِرَت عليه الملوك إلا بالرغائب». (١)

إننا نعرف هذا الكتاب، وحجمه الكبير، ومجلداته المتعددة، ونقدر الطبعة الحسنة، التي طبعته بها دار الكتب مثلاً، ويمكننا أن نتصور الجهد اليدوي الذي بذل في كتابتها، ولهذا لا نستغرب ما قاله أبو تغلب عن تدني القيمة التي اشتريت به، ونقدر إنصافه لهذا الجهد، بحيث وضع مكان كل درهم ديناراً.

وهذا يري بعض الجهد الذي يبذله الوراقون في نسخ العدد من الكتب، لمن يرغب شراءها، ولهذا مدح الخط الحسن، لأن كثرة الطلب، والإلحاح،

(١) معجم الأدباء: ١٣/ ١٢٦، ترجمة: علي بن الحسين الأصبهاني.

عادة تؤدي إلى السرعة في الانتاج، أمام الإغراء، على حساب النوعية والاتقان، لأن العامل بشر، ويوشك مع السرعة أن يكون أقرب إلى الزلل من الصحة، وإلى قبح الخط من حسنه.

ولنفتح نافذة صغيرة على جانب من عمل الوراقين، ومقدار ما يكتبون، والجهد الذي يبذلونه، والسبب الذي أحياناً يقودهم إلى حلبة هذا العمل، فيمتهنونه، على ما فيه من تعب. والنص التالي يفيد في إعطاء فكرة عن ذلك:

«قال أبو بكر محمد بن أحمد بن عبدالباقي الدقاق المعروف بابن الخاضبة:

لما كانت سنة الغرق (٤٦٦؟)، وقعت داري على قماشي وكتبي، وكان لي عائلة: الوالدة والزوجة والبنت؛ فكنت أورق الناس، وأنفق على الأهل، فأعرف أنني كتبت «صحيح مسلم» في تلك السنة سبع مرات؛ فلما كان ليلة من الليالي رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت، ومنادياً ينادي: «ابن الخاضبة»

فأحضرت، فقيل لي: ادخل الجنة، فلما دخلت الباب، وصرت من داخل، استلقيت على قفاي، ووضعت إحدى رجليّ على الأخرى، وقلت: آه! استرحت والله من النسخ» .[1]

إنه لعمل مضن شاق، لقد اضطر إليه ابن الخاضبة مرغماً بعدما وقعت داره على ما يملك من أثاث ورياش، فاضطر أن يمتهن الوراقة بالنسخ، ولأن عائلته ـ كما ذكر ـ ليست صغيرة اضطر أن يبذل مجهوداً متواصلاً حتى يستطيع أن يحصل على ما يقيتهم؛ ويتبين مدى الجهد الذي كان يبذله في أنه عندما دخل الجنة في الحلم كان أول شيء خطر على باله هو الراحة من النسخ، بعد أن استلقى على ظهره وترك الهمّ خلفه، وانسل من عمل الدنيا.

وكانت الوراقة مزدهرة ازدهار المطابع اليوم، وكان للوراقين سوق رائجة، فلديهم بيع الكتب ونسخها، وفي دكاكينهم يجتمع الأدباء والمفكرون،

---

(١) معجم الأدباء: ١٧/ ٢٢٨، ترجمة: محمد بن أحمد الدقاق.

وقصة الجاحظ مشهورة، فقد روي أنه كان ينام في دكاكين الوراقين، يقفلون عليه طوال الليل، فيبقى هناك تتنقل عيناه بين أسطر الكتب، وتمرح نفسه في رياضها.

ولعل الوراق يبدأ عمله ناسخاً، ثم يستعين بمبتدئ ثم بآخر، ثم يفتح دكاناً ويتفق مع عدة خطاطين ونساخ، فينسخ لحسابه بعض الكتب ويعرضها، وينسخ بعض الكتب بطلب من الناس. وفي الكتب ما يدل على عدد الوراقين، ويصف عملهم بدقة وتفصيل.

وليتبين لنا حاجة الناس إلى نسخ الكتب والجهد الذي يبذل، نذكر طرفاً مما حدث بين أبي حيان التوحيدي وأحد الكبار المسؤولين في الدولة، وقد رجا أبو حيان رفدهُ، فأراد هذا استغلال حاجة أبي حيان، فطلب منه أن ينسخ له بعض المجلدات، فرأى أبو حيان أن هذا فوق طاقته، وتحت مستوى أمله، فقامت على هذا عداوة بينهما، طار شرارها، وذكى أوارها:

«قال أبو حيان التوحيدي:

وقصدت ابن عباد بأمل فسيح، وصدر رحب، فقدم إليّ رسائله في ثلاثين مجلدة، على أن أنسخها له، فقلت:

«نسخ مثله يأتي على العمر والبصر، والوراقة موجودة في بغداد».

فأخذ في نفسه عليّ من ذلك، وما فزت بطائل من جهته. فقال:

«بلغني ذلك».

فقلت له: ولو كان شيئاً يرتفع من اليد بمدة قريبة، لكنت لا أتعطل، وأتوفر عليه، ولو كرر معي أجرة مثله لكنت أصبر عليه، فليس لمن وقع في شر الشباك، وعين الهلاك، إلا الصبر». (١)

ولا يكفي هذا الوصف من التعب، ولا النفرة من النسخ بسببه، فيعيد في مقام آخر قولاً مؤكداً عن

(١) معجم الأدباء: ١٥/ ١٣، ترجمة: علي بن محمد بن العباس (أبو حيان التوحيدي).

الأمر نفسه، ويوضح الشدة التي تنتظره لو قام بهذا العمل فيقول أخذاً من قول أسهب فيه:

«فَلِمَ تُعنَّى عيني - أيدك الله - بعد هذا بالحبر والورق والجلد والقراءة والمقابلة والتصحيح، وبالسواد والبياض؟»[1].

ومن أراد المزيد في هذا الباب، وعن أسباب العداوة بين أبي حيان والصاحب بن عباد، الذي قصده أبو حيان فخيّب أمله، فليرجع إلى كتاب «أخلاق الوزيرين» ففيه تفصيل ضاف.

وقد ألف كتابه هذا من حرقة أحسّ بها، فصب جام غضبه عليه وعلى أبي الفضل بن العميد، ومن المناسب أن نعطي مثلاً يري مدى ما وصل إليه غضبه على الصاحب بن عباد، بسبب طلبه منه نسخ مجموعة من مجاميع كتبه، بدلاً من أن يبره كما كان متوقعاً، وفاجأه بأن استغل حاجته أسوأ استغلال:

(١) معجم الأدباء: ١٥/ ٢٣، ترجمة: علي بن محمد (أبو حيان التوحيدي).

يقول أبو حيان في رسالة من رسائله :

«وما ذنبي يا قوم إذا لم أستطع أن أنسخ ثلاثين مجلدة من هذا الذي يستحسن هذا الكلب؟! حتى أعذره على لومي على الامتناع، أينسخ إنسان هذا القدر وهو يرجو بعدها أن يمتعه الله ببصره؟ أو ينفعه ببدنه؟» .[1]

هذه نافذة تُري الجهد الذي كان يصرف في النسخ، والتعب والعناء الذي يأتي من ذلك؛ فنحن اليوم عندما نمسك بمخطوطة نتذكر ذلك، ونستعيد حيالها عدد الأعين التي تلفت في النسخ، والأعمار التي أفنيت في ذلك، فتزيد قيمتها في نظرنا، وتأخذ حقها من العناية والرعاية، والمحافظة عليها .

ومما يكمل الصورة ذكر ما عليه الورق، واقتنائه، والعناية به، وحفظه وصقله، وإعداده للكتابة، يقول صاحب معجم البلدان :

---

(١) معجم الأدباء : ١٥/ ٣٥، ترجمة : علي بن محمد (أبو حيان التوحيدي) .

«كان في خزانة كتب بهاء الدين عضد الدولة من أنواع الكاغد السمرقندي والصيني والعتيق كل طريف عجيب» .[1]

ويقول :

«في الخزانة، بياض صيني، وعتيق مقطوع وصحيح» .[2]

وقد لا يعني لنا هذا كثيراً، لأننا لا نعرف عنها إلا ما يدل عليه تعددها وتنوعها، ولكنها عند أهلها وزمنها تعني شيئاً كثيراً يمكننا أن نتصوره من اللهجة التي قيل بها ذلك .

ولعله من المناسب بعد أن ذكرنا شيئاً من النسخ، وما جر على أبي حيان، وما ألمحنا عن أدوات الكتابة، خاصة الورق، أن نعطي فكرة خاطفة عن سعر النسخ، لتكمل الصورة، وتنتظم حلقات الخَط وما حوله :

---

(١) معجم الأدباء: ١٥/ ١٢٣، ترجمة: علي بن هلال (ابن البواب) .
(٢) معجم الأدباء: ١٥/ ١٢٤، ترجمة: علي بن هلال (ابن البواب) .

جاء في ترجمة يحيى بن زياد الفراء في تاريخ بغداد ما يأتي:

«فلما فرغ من إملاء: «[كتاب] المعاني» خزنه الوراقون عن الناس، ليكسبوا به، وقالوا لا نخرجه إلى أحد إلا من أراد أن ننسخه له على خمس أوراق بدرهم، فشكى الناس ذلك إلى الفراء، فدعا الوراقين، فقال لهم في ذلك. فقالوا:

إنما صحبناك لننتفع بك، وكل ما صنفته فليس بالناس إليه من الحاجة ما بهم إلى هذا الكتاب، فدعنا نعش به.

قال: فقاربوهم، تنتفعوا وينتفعوا.

فأبوا عليه.

فقال: سأريكم، وقال للناس: أني مملٍ كتاب معانٍ أتم شرحاً، وأبسط قولاً من الذي أمليت.

فجلس يُمل، فأملّ «الحمد» في مئة ورقة. فجاء الوراقون إليه، فقالوا: نحن نبلغ الناس ما يحبون،

فنسخوا كل عشر أوراق بدرهم» .[1]

ولنعرف مقدار ما نسخ في ضوء حركة التأليف حينئذ، وفي ما سبق أن أُلِّف مما يحتاج الناس إلى نسخه، يمكننا أن نعطي نماذج لما ذكر لدى الناس من كتب، يشار إليها عرضاً فيما بين أيدينا من معلومات، ولو أحصيت لكانت شيئاً عظيماً، يبين قدره ما حدث للفرات أو دجله من تغير نتيجة ما رمي فيهما من كتب أحرقت على يد التتار عند دخولهم بغداد:

جاء في ترجمة علي بن أحمد الفارسي الأندلسي:

«أخبرني ابنه المفضل، المكنّى أبا رافع: أن مبلغ تواليفه في الفقه والحديث والأصول، والنِّحَلِ والملل، وغير ذلك من التاريخ والنسب، وكتب الأدب، والرد على المعارض، أربع مئة مجلد، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة.

(١) معجم الأدباء: ١٤/ ١٥٠، ترجمة: يحيى بن زياد الفراء.

وهـذا شيء ما علمناه لأحـد ممـن كـان في دولـة الإسـلام قبلـه، إلا لأبي جعفـر محمـد بـن جـريـر الطبري». [1]

فماذا قال صاحب معجم الأدباء عن الطبري؟

يقول عنه:

«حَصَّلَ قوم من تلاميذ محمد بن جرير الطبري، أيام حياته، منذ بلغ الحلم إلى أن توفي، وهو ابن ست وثمانين، ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته، فصار منها على كل يوم أربع عشرة ورقة، وهذا شيء لا يتهيأ لمخلوق إلا بحسن عناية الخالق». [2]

وخبر آخر ساقه أيضاً صاحب معجم الأدباء:

«يحكـى أن محمـد بـن جـريـر مكـث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة». [3]

ومثل آخر على مقدار ما يمكن أن يقع على كاهل

---

(١) معجم الأدباء: ١٢/ ٢٣٨، ترجمة: علي بن أحمد الفارسي.
(٢) معجم الأدباء: ١٨/ ٤٤، ترجمة: محمد بن جرير الطبري.
(٣) معجم الأدباء: ١٨/ ٤٢، ترجمة: محمد بن جرير الطبري.

النساخ من عبء، وما يرتزق من ورائه الوراقون، ويرتوي منه طلاب العلم، ويرجو من ورائه العلماء من أجر، ويأتي لنا نحن بالدهشة والاستغراب:

«أملى محمد بن عبدالواحد البارودي من حفظه ثلاثين ألف ورقة في اللغة» .[1]

ويزيد الصورة وضوحاً، والأمر جلاءً، واستغرابنا دهشة، ما يُروى في هذا المجال عن حجم أحمال الكتب عند نقلها من مكان إلى مكان، وهذا مجال للحديث عما يأتي منها خارقاً للعادة، ومخالفاً للمعتاد، ومجانباً للعرف، والقول الآتي يمثل ذلك:

«يروى عن محمد بن واقد الواقدي المدني:

«لما تحول الواقدي من الجانب الغربي يقال: أنه حمل كتبه على عشرين ومئة وقر؛ وقيل: كان له ست مئة قمطر كتب»[2] .

---

(١) معجم الأدباء: ١٨/ ٢٢٨، ترجمة: محمد بن عبدالواحد (المطرز الباوردي).
(٢) معجم الأدباء: ١٨/ ٢٨١، ترجمة: محمد بن واقد الواقدي.

والنهضة الفكرية، والإقبال على العلم والثقافة كان عظيماً، مما جعل التنافس في اقتناء الكتب، والمؤاجرة على نسخها أمراً منقطع النظير، ولعل غير العلماء والمتفعين رأوا الاتجاه في مجتمعهم، فرأوا ألا يكونوا خارج الدائرة، خاصة إذا كانوا موسرين، وبإمكانهم شراء كتب ثمينة، ذات مظهر جميل، يزينون بها بيوتهم، ليرتفع قدرهم عند الناس، وقصة الأندلسي الذي أخذ يساوم ويزايد في مجلد جميل فرفعه إلى سعر تعدى حدود المعقول، فسأل العالم الذي كان يزايد في الطرف الآخر من السوق عن هذا الذي في الجانب الآخر ينافسه، ولما عرفه قال له: إن كنت في حاجة إليه إلى هذا القدر فسوف أوقف المزايدة، ولم أزد في السعر إلا لحاجتي إليه، فقال الآخر إنني لا أقرأ ولا أكتب، وإنما رأيت أن هذا الكتاب بحجمه وتجليده، يوافق مكاناً شاغراً في رف خزنة كتب عندي، فأردت أن أسد به هذه الثغرة؛ ولما علم عن حاجة الآخر إليه أوقف المزايدة فيه.

ولهذا قال الشاعر منبّها الذي يجمعون الكتب، وهم كالحمار يحمل أسفارًا:

«من شعر سعيد بن المبارك المعروف بابن الدهان:

لا تحسبنّ أن بالكتْـ ـــب مثلنا ستصير
فللدجاجة ريش لكنها لا تطير»[1]

ولكن هؤلاء شواذ، يغطون عن نقصهم بهذا المظهر الزائف، ويكملونه بهذا التصنع المكشوف، الذي يسيء إليهم من حيث يظنون أنه يحسن، ويضرهم من حيث يظنون أنه ينفع، أما الكتب فقد ألفها مؤلفوها، ونسخها ناسخوها، لمن يقرؤون، يمضون النهار في القراءة، ويتبعونه بالليل على ضوء الشمع والسرج، لا يتركون دقيقة تمر دون أن يستفيدوا منها، فهي إما للكتابة أو للقراءة، أو للراحة استجماماً، واستعداداً للمعاودة؛ أفنوا أعمارهم في سبيل العلم، وعشيت أبصارهم من أجله، وكلما درسوا زادوا نهماً، وكلما تعلموا

(١) معجم الأدباء: ١١/ ٢٢٢، ترجمة: سعيد بن المبارك (ابن الدهان).

تطلعوا إلى وراء ما عرفوا، لا يرون لعلمهم سقفاً، ولا لطلبه حداً؛ نذروا حياتهم للعلم، وأوقفوها عليه، وهنا بعض أمثلة تري إصرارهم، وأسباب ما وصلوا إليه من ذلك:

«حدث أبو هِفَّان قال:

«لم أر قط، ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع في يده كتاب إلا استوفى قراءته كائنا ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين، ويبيت فيها للنظر.

والفتح بن خاقان، فإنه كان يحضر لمجالسة المتوكل، فإذا أراد القيام لحاجة أخرج كتاباً من كمه أو خفّه، وقرأهُ في مجلس المتوكل إلى حين عوده إليه، حتى في الخلاء.

وإسماعيل بن إسحق القاضي، فإني ما دخلت إليه إلا رأيته ينظر في كتاب، أو يقلب كتاباً، أو ينفضها». [1]

---

(١) معجم الأدباء: ١٦/ ٧٥، ترجمة: عمرو بن بحر الجاحظ.

لهذا ازدهر العلم في زمنهم، واعتلى شأن الكتاب، فانتشر بينهم، ودفعوا فيه أموالاً طائلة، وأوسعوا مكاناً فسيحاً له في بيوتهم وفي صدورهم، فارتقى عندهم، وارتقوا هم عند أنفسهم، واعتلوا على الشعوب الأخرى، وفتحوا العالم، فسطع نور العلم منهم إليه.

والغربيون اليوم أخذوا منا هذه العادة الحسنة بعدما أمتناها، فأحيوها، واستفادوا منها منتهى الاستفادة؛ ترى الكتاب معهم في كل مكان، يقرؤون في كل وقت، فيقرؤونه في القطار، ويلتهمون صفحاته وقوفاً في الصف، انتظاراً في «طابور» لأخذ تذاكر، وفي مظلةِ انتظار السيارة كتابهم في يدهم، وفي معرض الطيران، وفي سباق السيارات، وفي ملاعب الكرة؛ حتى إذا دخل أحدهم المطعم، فإنه يقرأ انتظاراً للطعام، فإذا جاء الطعام فإنه لا يوقف القراءة، فلقمة لِفَمِه، ولقمة لعقله، مثلما كان يفعل الفتح بن خاقان عندما ترك الخليفة المجلس

لحاجة إلى أن عاد؛ وارتفع الأوروبيون بهذا كما سبق أن ارتفعنا، وأَمَتْنَا هذه العادة فترديناوهوينا.

لقد أدرك الطابعون والكتاب والناشرون أهمية هذا الاتجاه عند الناس في الغرب، واعترفوا بهذا النهم للكتب، فقدروه بأن قابلوه بما يشجعه ويعضده، ويساعد الناس في هذا الاتجاه الخيِّر، فطبعوا طبعات «جيب»، يأخذها الشخص معه أينما ذهب، وإلى أي جهة رحل، مثلما فعل الفتح ابن خاقان بالكتاب الذي وضعه في كمه، أو في ساق خفه! فهل يعود الماء يوماً إلى مجراه، ونرى الكتاب يعتز من جديد، ويأخذ مكانه الحضاري اللائق به، رغم الآفات المحيطة به، من صحف ومجلات، ومذياع وتليفزيون وفديو، وما أدراك مما لم يخرج من بيضة العجائب حتى الآن!!

ولم يكن الفتح بن خاقان هو الوحيد الذي يمكن أن يمثل الصورة الجميلة لطلب العلم والقراءة، وإنما هو نموذج واحد، مثّل في هذه الحالة مثلاً

واحداً في هذا الجانب الثقافي المنير، وهناك جوانب أخرى كثيرة، ولعل في المثل الآتي توضيحاً أميناً لجانب آخر، فإذا كان الفتح مثل جانب الحرص في حمل الكتاب وقراءته عند أقرب فرصة تسنح له، فإن الفقيه أبو الوليد في حديث له مع ابن حزم، يحمل نغمة الاعتذار في التقصير في طلب العلم، شع نوراً ساطعاً، يرفع منزلته ويعلي قدره، لأنه يدل على كفاحه في طلب العلم إلى الحد الذي جعله يستعين في الليل بأبراج الحراس، يستفيد من نورها، إذ لا يملك ما يوفر به لنفسه نوراً؛ وفي رد ابن حزم ما عدل الكفة، فإذا كان هذا كسب من هذا الطريق الصعب علماً، فإن ابن حزم أضاع العلم نتيجة الوجد والغنى.

وابن حزم كان بعيداً عن حياض العلم، نائياً عن وردها، إلى أن قيض الله حادثة نبهته، وموقفاً أيقظه، فارتشف من منهل العلم ما أروى ظمأه، وعوضه خيراً عما فاته:

قال لي الوزير أبو محمد بن العربي:

أخبرني الشيخ الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم أن سبب تعلمه الفقه أنه شهد جنازة لرجل كبير من إخوان أبيه، فدخل المسجد قبل صلاة العصر، والخلق فيه، فجلس ولم يركع، فقال له أستاذه ـ يعني الذي رباه ـ بإشارة أن قم، فصلّ تحية المسجد، فلم يفهم.

فقال له بعض المجاورين له: أبلغت هذا السن، ولا تعلم أن تحية المسجد واجبة؟ وكان قد بلغ حينئذ ستة وعشرين عاماً، قال: قال: فقمت وركعت، وفهمت إذن إشارة الأستاذ لي بذلك.

قال: فلما انصرفنا من الصلاة على الجنازة إلى المسجد مشاركة للاحبَاء من أقرباء الميت، دخلت المسجد، فبادرت بالركوع، فقيل لي: اجلس، اجلس، ليس هذا وقتَ صلاة.

فانصرفت عن الميت، وقد خزيت، ولحقني ما هانت عليّ به نفسي، وقلت للأستاذ: «دلني على دار

الشيخ الفقيه، المشاوَر أبي عبدالله بن دَحُّون، فدلني فقصدته من ذلك المشهد. وأعلمته بما جرى فيه. وسألت الابتداء بقراءة العلم، واسترشدته؛ فدلني على كتاب الموطأ لمالك بن أنس ـ رضي الله عنه ـ فبدأت به عليه قراءة من اليوم التالي لذلك اليوم.

ثم تتابعت قراءتي عليه، وعلى غيره، نحو ثلاثة أعوام. وبدأت بالمناظرة. . ». [1]

إن المحيط المليء بالعلم، الذي عاش فيه ابن حزم، سرعان ما رده إلى حظيرته، وأغراه بالولوج فيها، فجاء منه ما جاء، وأصبح إماماً يقتدى بآرائه، وصار له مدرسة منفردة متميزة، لها مريدون ومعجبون.

ونعود مرة أخرى إلى الخط وتحسينه، والعناية به، وهو أمر لم يبدأ في العصر الأموي أو العباسي، ولكنه سبق ذلك، ولعل من أقدم النصوص في هذا ما روي عن الخليفة الراشد علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ولا عجب في هذا فهو كاتب الوحي لرسول

---

(١) معجم الأدباء: ١٢/ ٢٤١، ترجمة: علي بن أحمد بن حزم الفارسي.

الله ﷺ ومن أهمية عمله، وانطلاقاً من تجربته يتوقع منه الإرشاد للمبتدئين، ووضعهم على الطريق الصحيح فيه، ما داموا غضين، وفي أول الطريق:

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكاتبه عبيدالله ابن أبي رافع: «إذا كتبت فألن دواتك، وأطل من قلمك، وفرج بين السطور، وقارب بين الحروف». (١)

وهذه النصيحة تحتفظ بقيمتها إلى اليوم، ومن راعاها سوف يجد أن الصفحة التي كتبها قد ابتسمت، والكلمات واضحة، وأصابع الذي كتبها في راحة لا يشوبها عناء. ولقد كانت النصيحة في محلها، ولا يعيب رئيس الدولة أن يدخل في مثل هذا التوجيه الجزئي، أو يهتم بهذا الأمر الجانبي، لأنه أول من سوف يعاني من أي خطأ يقع فيه الكاتب، وعلى كتفه سوف تقع آثامه، وعلى كتفه سوف يستقر عبؤه، وما أمر ما حدث لخطاب الخليفة سليمان بن عبدالملك من تحريف، وما نتج عنه من ضرر بسبب

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٣٥٦.

«نقطة»، هذا إذا صح الخبرُ، ولم يكن الفعل مقصوداً، وأن زَعْم التحريف ما هو إلا عذر:

«إن سليمان بن عبدالملك كتب إلى ابن حزم عامله على المدينة أن يحصي المخنثين الذين بالمدينة، بالحاء المهملة، أي يعدهم، ليرى فيهم رأيه، فوقع للكاتب نقطة على الحاء، فصيرتها خاءًا، معجمة.

فلما وصل الكتاب إلى ابن حزم خصاهم من ساعته.

ويقال: بل كتب إليه بخصائهم على الحقيقة، من غير اشكال، ولا تراجع في أمرهم». (١)

ويعلق أبو الفرج الاصبهاني على الخبر بقوله:

«زعم موسى بن جعفر بن أبي كثير قال:

أخبرني بعض الكتاب قال:

قرأت كتاب سليمان في الديوان: فرأيت على الخاء نقطة كتمرة العجوة.

(١) تحفة العروس: ٢٤٧، الديارات: ٨٥، ٨٧.

قال: ومن لا يعلم يقول: إنه صحف القارئ، وكانت: (احص)».[1]

وسواء وقع ما وقع بالتصحيف، نتيجة عدم العناية بالخط، ونقص حسنه وإتقانه، أو لم يقع فإن احتمال وقوعه بسبب الخط يكفي لتصور فداحة الخطأ بسبب نقطة. وقد قيل مثل هذا عن الكلمة التي قيل إنها حرفت في خطاب عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى واليه بمصر، بأن «يقتل» القائمين عليه، بدلا من كلمة «يقبل» وقد طعن في هذه القصة أيضاً، وقيل إنها مفتعلة ولم تحدث.

أما الإشكال الذي يبدو أنه لا يعتريه الخلل فهو ما روي عن أثر سقوط النقطة من حرف، أدى إلى تفسير مختلف، عند واحد من العلماء، حتى كاد يحرم ما أحل الله. وذلك عند ما قرأ عدمِ جواز «تشقيق الحطب»، والمقصود: «تشقيق الخُطَب»، بمعنى التكلف فيها والتشدق.

---

(١) الديارات: ٨٥.

ولم يكن الخليفة علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وحده من اهتم بتوجيه الكاتب وإرشاده، بل هناك آخرون أيضاً، ومنهم الخليفة الصالح عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ فقد كان له رأي ثمين أهداه إلى عماله، لينقلوه إلى كتابهم، مع نصبهم رقباء عليهم في التنفيذ:

«كتب عمر بن عبدالعزيز إلى عماله:

إذا كتبتم فَأَرِقُّوا الأقلام، وأقلوا الكلام، واقتصروا على المعاني، وقاربوا بين الحروف، تكتفوا من القراطيس بالقليل». (١)

وقد التقى في خطابه هذا مع علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في المقاربة بين الحروف، وأعطى التعليل لذلك من منطلق التقوى، فهو لا يريد أن يسرف الكتاب في الورق، ولا أن يتباهوا بالخطوط، وهمه صحة ما يكتب، وصواب ما يقال، مع دقة المعاني، وحسن جمالها لما حُمِّلت.

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ١٥٧.

هذا والخط الحسن يساعد على تدبر المعاني، وانصباب الذهن إليها بدلاً من اتجاهه لحل مغلق الخط، ومعالجة رداءته، مما يشغل القارئ بالوسيلة عن الغاية، وهذا قلب للأوضاع، وتوجيه للأمر غير وجهته، ومما قيل في هذا:

«قالوا: الخَط الحسن يزيد الحق وضوحاً»[(١)].

وقد أعطوا أهمية لما يكتب، لأنه لم يكتب لوقت حاضر، وزمن محدد، بل كتب ليبقى، يجاهد الزمن، ويتخلل العصور، ويمر عبر الحقب؛ ويكون واضحاً مقبولاً في كل زمان، وقد قالوا عنه مقارنة بالقول الذي ينقطع بمجرد انتهاء قائله منه:

قال ابن القريّة:

خط القلم يقرأ بكل مكان، وفي كل زمان، ويترجم بكل لسان، ولفظ الإنسان لا يجاوز الآذان»[(٢)].

وإذا كان هذا رجع صدى اهتمامهم بالخط

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٣٥٧.
(٢) بهجة المجالس: ١/ ٣٥٧.

والكتابة، فلأنهما الوسيلة الرئيسة لعرض الكتاب، والاستفادة منه الاستفادة الكاملة.

ولعل من المناسب أن نختم قولنا في مقالنا هذا بأبيات شعرية، تكشف نظرتهم للكتاب، وتقديرهم له:

«أنشد محمد بن زياد، المعروف بابن الأعرابي:

لنا جلساء ما نملّ حديثهم
ألبّاء مأمونون غيبا ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى
وعقلا وتأديباً ورأيا مسدداً
فلا فتنة تخشى ولا سوء عشرة
ولا يتقى منهم لساناً ولا يداً
فإن قلت: أموات فما أنت كاذب
وإن قلت: أحياءٌ فلست مفنداً»[1]

(١) معجم الأدباء: ١٨/ ١٩٥، ترجمة: محمد بن زياد (ابن الأعرابي).

سبب رئيس[1]

يتطلع الإنسان أحياناً أمام أمر مهم مبهم إلى أكثر من سبب يزيل اللبس، فيفاجأ أن تفسيراً واحداً يكفي لجلاء الغموض، وإزالة اللبس، ولسطوع نور يبين الحقيقة، ويبدد الظلام، ويتناول الناس قصة تمثل هذا الأمر خير تمثيل: يقولون إنه أثناء إحدى حروب البلقان بين العثمانيين وأعدائهم، لاحظ أحد الضباط في الميدان أن أحد المدفعية (الطوبجي) قد سكت مدفعه، وقعد بجانبه واضعًا يده على خده في راحة تامة، يرقب الأفق أمامه، وقد حمي الوطيس، والمعركة على أشدها، والحاجة إليه وإلى مدفعه متناهية، فجاء إليه حانقاً، وقال له إذا لم تعطني عشرة أسباب لموقف الخيانة الذي أنت فيه، فسوف يكون عقابك صارماً، ولا أقبل منك إلا عشرة أسباب، وما دونها فلا يكفي لعذرك.

---

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٣٠٢) في: ١٧/ ٥/ ١٤١٥هـ الموافق: ٢٢/ ١٠/ ١٩٩٤م.

فقال له المدفعي أولاً: نفدت ذخيرتي، وأنا في انتظار الامداد بذخيرة أخرى، ثانياً.

فقال له: هذا سبب رئيس يكفي أو (هذا برنجي سبب) كما يعبر العامة، تقليداً للهجة التركية، وبهذا تنازل الضابط عن تسعة أعشار مطلوبه، وملأ عينه سبب واحد هو العشر. وهذا العشر حمل عذر الجرم الذي أدخله الضابط في حدود الخيانة، التي جزاؤها الموت.

واتُّخذت هذه القصة حجة للناس إذا مروا بموقف مهم معقد، تحتاج عُقده إلى مجهود كبير لفكها، وتَطَلَّب الأمر تبريراً يتناسب مع حجم ما ظهر من غموض وإبهام، وبدأ المفسر باعطاء أول عذر أو تبرير، أوقفه السامع مكتفياً وردد كلمة «هذا برنجي سبب» ويكفي.

والناس في إعطاء الأسباب يختلفون، لأن هذا يحكمه ناحية نفسية دقيقة، فإذا كانت الأسباب العديدة منها القوي، ومنها الضعيف، فبعض

الناس يبدأ بالقوي، ويأتي مثل الضربة المزلزلة، وبمجرد سماعها يسلم المقابل الذي طلب التعليل، ولا يطلب المزيد، وبعضهم يبدأ بأضعف الأسباب، وكأنه يلين السامع تدريجاً بسبب بعد سبب، ثم يأتي بالسبب الرئيس في آخر الأمر، فيكون قاضياً على سامع قد هيىء؛ وهنا يخرج صاحب هذه الطريقة عن موضوعنا، ويدخل حيّزاً آخر.

وفي التراث قصص عديدة ينطبق عليها أمر «السبب الرئيس» ويكون الجواب كافياً شافياً، مشتملاً على ما يقنع، وعلى ما لا يتطلب المزيد.

ومن الأمثلة على ذلك القصة الآتية:

«كان لسعيد بن خالد قصر بإزاء قصر عبدالملك، فقال له عبدالملك:

إن لي إليك حاجة.

فقال: مَقْضِيَّة.

قال: إجعل لي قصرك.

قال: هو لك.

فقال عبدالملك: فلك خمس حاجات مقضية.

فقال سعيد: أولها أن ترد عليّ قصري.

قال: فعلت. فما بعد ذلك؟

قال: أنت في حلٍّ من الأربع». (١)

لم يحتج سعيد بن خالد للخمس حاجات المقضية، فقد أصبح بالحاجة الأولى حائزاً على غرضه، وأصبح كل الصيد في جوف الفرا، ولقد شعر سعيد بأنه اكتفى بأن سَلِم على قصره، ولم يكن له مطمع في أمر آخر، فلذة استرداد القصر أقنعته، وملأت نفسه بما لم تعد تنظر لأمر آخر.

وقد لا يكتفي الإنسان بالسبب الرئيس، ويحاول أن ينقضه، ويتسلل إلى غايته عن طريقه، ولكنه يجد صخرة عاتية، تقف أمامه شامخة معيقة، فيضطر إلى التسليم، ويكتفي بالسبب الرئيس بِرضىً وارتياح، والقصة الآتية تري شيئاً من هذا:

«دعا عبدالملك بن مروان رجلاً إلى غدائه فقال له:

---

(١) محاضرات الأدباء: ٢١٥.

«تغديت.

قال عبدالملك: ما أقبح الرجل أن يأكل حتى لا تكون فيه بقية للطعام!

فقال يا أمير المؤمنين، بي فضل، ولكني كرهت أن آكل فأصير إلى ما استقبح أمير المؤمنين». [1]

هذا سبب رئيس واحد، لم يزاحمه آخر، ولكنه كان منزوياً عن عبدالملك، مما استدرجه أن يزل هذه الزلة، التي نبهه إليها جليسه العاقل، الملتزم بأصول ما آمن به عبدالملك، ودعا إليه، وأنّب من أجله؛ وإنه وإن كان حاضراً في ذهن عبدالملك مثل هذه القاعدة الذهبية، فإن الإلتزام بها من قبل جليسه كان مراعًى كل المراعاة، مما جعله يفضي برده سريعاً وبديهة، مما يدل على التمسك به، إيماناً، وإدراكًا لمنفعة. وإنها لقاعدة حسنة، يسير عليها الإنسان. ومن حسن حظ هذا الرجل أن عبدالملك، وهو الفقيه، لم يقل له: إجلس على المائدة ولا تأكل، كما

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٧٧.

كان يفعل بعض الصحابة والتابعين، فقد كانوا يجيبون الدعوة ولا يأكلون.

ومن حسن حظ هذا الرجل أن عبدالملك لم يكن يجوز له أن يقول: إن الاستجابة لدعوة الحكام، والجلوس معهم على المائدة، إنما هو شرف، وليس للشبع، وقمع الجوع، كما قالها أحد جلساء الخلفاء.

والجلوس على مائدة العظيم شرف لا يغلبه إلا الجلوس على مائدة من هو أعظم، وهو الذي إذا دعا فالاستجابة لدعوته شرف يتبعه أجر عظيم، وثواب عميم، إنها دعوة الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى الصيام، وقد جاءت لأعرابي تمسك بهذه الدعوة، واستجاب لها، ولم يفرط فيها لأغراء دنيوي، فيه طعام شهي، ولا لمراعاة مركز الداعي، وهو الحجاج، وقصته مع الأعرابي كما يلي:

«دعا الحجاج إلى طعامه في طريق الحج بدوياً فقال:

أنا صائم.

قال: أفطر وتصوم غداً.

قال: إن ضمنت لي البقاء إلى غد.

قال: إنه طعام طيب.

قال: إنك لم تطيبه ولا الخباز، ولكن طيبته العافية». [1]

إن القصص التي تخترع على الحجاج كثيرة، والتي تنقل إليه من غيره في غير صالحه مثلها، وقصصه مع الأعراب في الصحراء منفرداً، حيث لا يعرفونه، متعددة، ويتطرق إليها الشك، لأن الحجاج مطلوب، ولا يتوقع أن يعطي أعداءه فرصة لاقتناصه، ومع هذا فالقصة طريفة، وتدخل ـ سواء كانت حقيقة أو خيالاً ـ في نطاق حديثنا هذا، ولِتُقبل فسوف نتصور أنه دعاه وحراسه عنده.

والأعرابي وفق في رده الأول على الحجاج، وكان مؤدباً لم يقل كما قال غيره: «دعاني من هو خير

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٦١٨.

منك»، حتى لا يغضب الحجاج باطناً، وإن سكت ظاهراً وإنما قال «إنه صائم»، وهي جملة بسيطة معتادة، وأكد هذا الأدب عندما قال: «إن ضمنت لي البقاء غداً». أما قوله: «لم تطيبه ولا الخباز، ولكن طيبته العافية» فخرجت قليلاً عن خط الأدب الذي بدأ به، وكان المتوقع أن يقول: ما عند الله أطيب، لأن الإقرار لله بالفضل في هذا المقام يقبل، ولكن هذا أيضاً وإن قبله الحجاج ظاهراً، فقد يستفزه باطناً، ولعل هذه الجملة، إن صحت القصة كلها، زيدت من قبل القَاصّ عِظَة وحكمة.

وهنا موقف مماثل في بعض جوانبه لموقف الرجل الذي دعاه عبدالملك على مائدته، وفي بعض جوانبه متماش مع موقف الأعرابي مع الحجاج، ولكن النتيجة جاءت مختلفة تماماً، ومرتكز التعليل مختلف، وحصن الإغراء في قوته وضعفه مختلف أيضاً، والقصة كما يلي:

«دخل جنادة بن أبي أمية على معاوية، وهو

يأكل، فدعاه إلى الأكل، فقال: أنا صائم.

فلم تزل الألوان تختلف بين يدي معاوية حتى جيء بجدي محنوذ سمين، فقال جنادة:

ليأمر أمير المؤمنين بماء أغسل يدي، وآكل من هذا الجدي.

فقال له: ألم تقل إنك صائم!

قال: بلى، ولكني على رد يوم أقدر مني على رد مثل هذا الجدي.

فضحك معاوية، وأمر له بماء، فغسل يده، وأكل معه». [1]

هذا سبب قدمه جنادة أمامه حجة، ولا ندري هل كان جنادة صائماً، أم تظاهر بالصيام، وهل كان صيامه قضاء أو احتساباً؛ وشكنا في أنه كان صائماً يأتي من أن الصيام عبادة شاقة نوعاً ما، ولا يقدم عليها إلا من إيمانه عميق مثل الأعرابي في صحرائه القاحلة، فإذا أقبل عليه فإنه يقبل عن

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٧٩.

إيمان لا يزعزعه جدي حنيذ، ولا سفرة «حانّة رانّة» بأنواع الطعام وأطايبه.

ـ[1] وقد يأتي الجواب الرئيس بصورة عملية، واضحة جلية، فيختم سلسلة من الوهم، أو خطأ التصور، مؤكداً أن السبب كان هناك مختفياً خلف الأمر، ومستتراً تحته، وبرز عندما آن بروزه، فظهر فجأة معلناً عن نفسه، وقد يأتي بصورة مأساة كما حدث في إحدى القصص التي جرت حوادثها كالآتي:

«لاحظ رجل أن آخر قد ثبت وجهه تجاه زوجته، ولا بد أنه يلبس هذه النظارة السوداء ليخفي خلفها نظراته النافذة إليها، وزاد من غيظه أن هذا الرجل يأتي بحركات مريبة، تؤكد سوء قصده، فهو حيناً يمسح شعر رأسه بيده، يمررها بطريقة مستفزة، وأحياناً يضع يده على خده بطريقة توحي بأن له قصداً غير شريف، ويؤكد هذا بحركة أخرى، وهي وضعه يده على فمه.

(١) بدء الجزء الذي زاد عما نشر في «عكاظ».

لقد تيقن الزوج من وقاحة هذا الرجل، وقصده السيء، وأن الأمر دخل مرحلة التحدّي والأذلال، فقام من مكانه غاضباً مزمجراً، وأخذ بتلابيب الرجل، وعند أول صفعة على وجهه سقطت النظارة السوداء، فرأى ما تحتها من عينين، ويا لهول ما رأى، لقد تبين أن المتهم أعمى، ويمكن أن نتصور الموقف الحرج للأثنين»؛ المهم إن السبب الرئيس كان هذه المرة عملياً مؤلماً، وكان كافياً عن أي سبب آخر في إزالة اللبس مثلما أزال الجندي العثماني اللبس عنه وعن مدفعه بذاك السبب الرئيس.

هذه حالات نقص العدد الذي طلب ليجلو الموقف إلى واحد فقط، ولهذه الحالات حالات مخالفة تماماً، فقد لا يكتفي أحد الطرفين بالشرط، ويقف عند العدد المشترط، ولكنه يطلب المزيد، لأنه وجد لذة في التعداد، أو دفعته ضرورة ملحة أن يستزيد من العدد، وهناك قصة طريفة تصلح مثلاً على هذا، وهي قصة قديمة تروى في مجتمعنا،

وتعكس بعض المعتقد في الجن، وما يقومون به من مشاركة مع الإنس.

«حل ضيف ثقيل على رجل فلاح وامرأته، وأطال مدة بقائه دون سبب، ولم يكن لهم من المكان ما يحتمل أكثر من اثنين، فكان سبباً في التفرقة بين الزوج والزوجة في المنام والمعيشة، والفلاح شاب حديث الزواج.

بحث الفلاح مع زوجته الأمر، واتفقا على أنه لا بد من حيلة يقتلعان بها الأذى، ويوسعان من هذا الضيق، وأوصلهما تفكيرهما في ضوء ما يعرفانه عن طمع الضيف، وحبه لنفسه، وتفضيله لها على الآخرين، حتى فيما يخصهم، إلى أن يوهمه الزوج بأنه رأى فيما يرى النائم أن في البئر المهجورة في آخر المزرعة كنزاً ثميناً، وأنه فكر في استخراجه، ويود من ضيفه أن يساعده وله ربع الكنز؛ أما هو (الزوج) فسوف يقوم بالمخاطرة الكبرى، وينزل إلى البئر، مستعداً لمواجهة «الراصود» الذي يحرس

الكنز، وقد يكون ثعباناً ضخماً ساماً قاتلاً، أما الضيف فما عليه إلا أن يمسك الحبل في أعلى البئر، ويساعده على النزول والطلوع.

فتحرك الجشع في نفس الضيف، وغلبه الطمع، فقال ـ وهذا ما يريده الفلاح ـ أنا الذي سوف أنزل إلى البئر، وأخرج الكنز منها، ولي ثلاثة أرباعه، ولك الربع، فوافق الفلاح.

فذهب واشترى حبلاً قوياً، وأدلى الضيف في البئر، وفجأة سمع صراخاً مدوياً في جنبات البئر، شق الظلام، وأزعج العصافير المستكنة بين طي البئر؛ فنظر، فوجد ضيفه البشع قد أمسك بجنّي يستجير ويستغيث، فلما أطل الفلاح في البئر قال له الجني أنقذني من هذا الوحش، ولك أن استجيب لخمس رغبات تطلبها مني. فأخذ الفلاح يقنع ضيفه بأنهما لم يأتيا هنا ليضيعا الوقت في صيد الجن، وإنما أتيا لأخذ الكنز.

فاقتنع الضيف، وأطلق سراح الجني، فصعد

الجني إلى أعلى، وكان الضيف قد وصل حينئذ إلى أسفل البئر، وفي القاع تركه الفلاح، وهذا هو المطلوب. ورفع الحبل، وبدأ يتشاور مع الجني في خمس الرغبات التي اشترطها، ورأيا أن تتركز على كسب المال، ليستغني الفلاح، فاتفقا على أن يذهبا إلى المدينة القريبة، وأن يدخل الجنّي في بنات بعض الموسرين، ويلابسهن، ولا يخرج إلا إذا قرأ عليه الفلاح، بعد أن يكون اشترط مبلغاً مجزياً.

وصلا إلى المدينْة فلابس الجني أول بنت، فأحضروا من اعتادوا أن يحضروه من القراء، ولكن الجني لم يخرج، فعرض الفلاح عليهم أن يحاول، فوافقوا، فقرأ على البنت، وخرج الجني، وشفيت البنت، ودفع المبلغ المشترط.

ثم أخذ يخرج من واحدة إلى أخرى حتى استكمل خمس دخلات، وكان الفلاح في كل مرة يضاعف المبلغ عدة مرات، حيث إن الجني كان يرتقي في اختياره في كل مرة، حتى بلغ في الخامسة أعلى مبلغ

يحلم به، مما لم ير بعده مبلغاً أعلى منه.

ثم جمع ثروته وعاد أدراجه إلى مزرعته وزوجته، ولكن الجني أعجبته اللعبة، وطاب له التنقل في الملابسة، فاختار ابنة أغنى رجل في المدينة، وكان في الأصل قاطع طريق، جمع ثروة عظيمة قبل أن يستقر في هذه المدينة، ولكنه بقي فاتكاً مخيفاً متسلطاً، فبحثوا عن الفلاح فلم يجدوه، فأرسلوا خلفه كوكبة من الخيل، فردوه.

ثم بدأ القراءة على الجني، فأبى الجني أن يخرج، وقال له: إن الشرط شرط، وقد وفيت لك بشرطي، ولا طريق لك عليّ.

فلما أظهر الفلاح عجزه أصر والد البنت على أن عليه أن يزيح هذا الجني وإلا أزاح رأسه من فوق كتفيه، فأظلمت الدنيا أمامه، وركبه الحزن، وصغرت ثروته أمام احتمال الموت، وندم على ما أقدم عليه من أول الأمر.

ثم عاد إلى الجني يستعطفه، ويذكره أنه سبق أن

أنقذه، وأن المروءة تقتضيه أن يراعي ظرفه، فينقذه من هذه الورطة التي أوقعه فيها، وإن البنات كثر، وإنه يمكنه أن يختار واحدة ليس لأبيها سلطة، ولا به جبروت، خاصة وأنه لا يطلب مالاً، وإنما يتلذذ بهواية سخيفة، لا يقدم عليها إلا الأطفال أو ناقصي العقل، وأن متعته من هذه اللعبة لا تعادل ألمه هو في ما يتهدده من خطر، وليس أشد من القتل.

إلا إن الجني كان في صمم، وكأنه لا يسمع، وكأن ما يقال ليس فيه منطق، وأخذ يردد قوله إنه وفى بشرطه، وأنه لا طريق له عليه، وإن من حقه الآن أن يفعل ما يريد، وفي لحظة يأس تذكر الفلاح الحل، لقد انفتح الباب المغلق له، فصاح بالجني: «تخرج وإلا».

فرد الجني هازئاً: «وإلا ماذا؟»

فقالِ الفلاح بلهجة تهديد واثق فيه: «وإلا ذهبت، وأحضرت لك ضيفي».

فارتعش الجني، وشرق بريقه، وقال: «بل أخرج ليس من البنت فقط، ولكن من المدينة كلها».

وهكذا نجح «البرنجي سبب» ولكنه السبب الذي زاد عن العدد، ولم يكن أول العدد إلا فيما استعمل له.

ونعود مرة ثانية إلى الأسباب الرئيسة في بعض قصص تراثنا، وما أكثرها.

وتساءل رجل بسذاجة عن أمر، فجاءه الرد دامغاً، حمله تفسير رئيس واحد، ومن سمع جواب السؤال لم يحتج إلى زيادة، لأن الجواب كافٍ:

«قال رجل لخالد بن صفوان:

ما لي إذا رأيتكم تتذاكرون الأخبار، وتتدارسون الآثار، وتتناشدون الأشعار، وقع علي النوم؟

قال: لأنك حمار في مسلاخ (جلد) إنسان». [1]

لقد كان خالد قاسياً في رده، ولكن لعل له عذراً في هذا، فقد يكون هذا السائل له أسئلة سابقة مماثلة، فامتلأ صدر خالد منه، فأفرج ما به عليه بهذه الطريقة.

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ١٣٦.

وكثير من الناس يجلب له سؤاله الساذج الأذى، ويفاجأ بالجواب، بعد أن يفوت الأوان لتدارك أذاه. وقد يقع في هذا أذكى الناس، ولكن هذا قليل، والأغلب يأتي من السذّج أمثال الذي سأل الإمام أبي حنيفة السؤال المشهور الذي انتهى بالجواب المشهور: «يمد أبو حنيفة رجله ولا يبالي».

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يختار سبباً رئيساً يكتشف به خيانة عماله، فهو لا يطلب تقارير مطولة، ولا يرسل جواسيس مختفية، ولا يبث عيوناً مترصدة، ولكن الماء والطين هما كل ما يحتاج ليعرف ما عليه عماله.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«لي على كل خائن أمينان: الماء والطين». [1]

كل شيء يمكن إخفاؤه إذا كان منقولاً، فمن السهل أن يخبأ الذهب، ومن غير الصعب أن تخفى الفضه، ومن الممكن أن تحجب الرياش، ويُستر

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٣١.

الأثاث، إلا البيت فإنه لا يمكن تغطيته بغطاء يخفيه عن الأعين، والبيت عندما يبنيه العامل فهو المفتش الأمين للخليفة عمر، هو المفتش الذي لا يخون ولا يدلس ولا يرائى، لغته فصيحة، وصوته عالٍ، لا تخطئه العين، ولا يحتجب عن القلب.

يذهب العامل حيث نصِّب، فقيراً مدقعاً، لا يملك أجار بيته إلا بالجهد والتعب، ولا يضمن قوت يومه يومياً، فإذا مر به سنة أو ما إليها، «أبت الدراهم إلا أن تظهر أعناقها». أصبح له بيت، فإذا سئل من أين له هذا، أجاب بأن بعضاً من هذا هدايا أهديت له، وعطايا أتحف بها، ووفراً من رزقه، فيقال عن الهدايا: أفلا جلست في بيت أمك ورأيت هل تأتيك الهدايا؟

وهكذا يقف بطينهِ البيت شاهداً على انحراف العامل، وتقف المزرعة وما استنبط فيها من ماء شاهداً آخر، والاثنان يكونان الشاهد الرئيس الذي تنبه له عمر، وخدم عمر:

«مر عمر ببناء بآجر وجص فقال: لمن هذه؟
قالوا: لفلان.
فقال: تأبى الدراهم إلا أن تخرج أعناقها، وشاطره ماله». [1]

والأمر الرئيس يأتي باتفاق قوم عليه دون أن يعلموا أنهم أجمعوا عليه، ولكنهم اتفقوا لأن مجرى تفكيرهم سلك طريقاً واحداً، وكان طريقاً صادقاً ومنطقاً، ولهذا كانت إصابة الهدف واحدة:

«قال الحجاج لجلسائه:
ليثبت كل منكم في رقعة أطيب الطعام عنده.
ففعلوا؛ فإذا في الرقاع كلها الزبد والتمر». [2]

وعندما يقول الحجاج لابن القرّيّة:
«من أعقل الناس»، فإن المتوقع أن يعدد العقال، فيوضع على رأسهم أعقلهم، موسوماً بأن هذا ما جعله السبب الرئيس في الاختيار والتقرير؛ ولهذا

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٣١.
(٢) ربيع الأبرار: ٢/ ٧٢٨.

جاء الجواب محدداً:

«من يحسن المداراة مع أهل زمانه» .[1]

ولو حاولت أن تختار سبباً آخر، أو تعريفاً يقلع هذا من مكانه، ويثبت غيره فيه لما استطعت.

ورغم أن هناك من قال: إن ابن القرّية لا وجود له، وإنما هو اسم مخترع، علقت عليه أقوال كثيرة، فما يهمنا هو هذه الأقوال، فبجانب القول السابق الرئيس وهو مختصر، هناك قول يسير على نمطه، ويمثل جواباً رئيساً مختصراً:

«قال الحجاج لابن القرّيّة:
أيّ الثمار أشهى؟
قال: الولد، وهو من نخل الجنة» .[2]

ولكن هذا النمط من الاكتفاء بالجواب الرئيس ليس دائماً هو المسيطر على الإجابات التي يتطلع إليها سائل مثل الحجاج، فقد يأتي الجواب من عاقل

(١) ربيع الأبرار: ٣/ ١٤٢.
(٢) ربيع الأبرار: ٣/ ٥٤٥.

تغري إجابته الصادقة، وحكمته البليغة، بطلب مزيد من الأسباب، ولا يكتفَى بالرئيس منها ليسمع ما هو محكم صادق:

قال الحجاج لخُريم الناعم:

ما النعمة؟

فقال: الأمن؛ فإني رأيت الخائف لا ينتفع بعيش.

قال: زدني!

قال: الصحة، فإني رأيت السقيم لا ينتفع بعيش.

قال: زدني!

قال: الغِنَى، فإني رأيت الفقير لا ينتفع بعيش.

قال: زدني!

قال: الشباب، فإني رأيت الهرم لا ينتفع بعيش.

قال: زدني!

قال: لا أجد مزيداً». [1]

ولذة الإجابة أغرت الحجاج بأن يطلب المزيد، فلا يكتفي بالأمن تعريفاً للنعمة، وقد استحلب

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٤٦.

الباقي استحلاباً حتى لم يبق في الضرع نقطة واحدة، وأعلن المسؤول ألّا مزيد.

وخلافاً للمدفعي، الذي أستعد بعشرة أسباب منعته من الرمي، واكتفى مُكَلِّمهُ بأول سبب، ما فعله أعرابي بتعريف النعمة دون أن يطلب منه ذلك، ولم يجد من يكتفي بأول تعريف، بل أعطى ثلاثة التعاريف التي ذكرها في مستهل حديثه؛ وأردفها بدعاء، ولولا أن الدعاء خاتمة الحديث لأمكنه أن يزيد:

«حضر أعرابيّ وليمة، فرأى نعمة، فقال:

النعم ثلاث: نعمة في حال كونها نعمة، ونعمة ترجى مستقبله، ونعمة تأتي غير محتسبة؛ فأدام الله لك ما أنت فيه، وحقق ظنك فيما ترجوه، وتفضل عليك بما لا تحتسبه»[1].

ويأتي سبب رئيس واحد بصيغة جواب مجلجل، على أمر جلل، فيكون سبباً رئيساً كافياً، بإقرار

---

(١) تمام المتون: ٣٩.

صاحبه بأنه لا يملك غيره، وليس هناك سواه، وأنه يقف وحده شامخاً، يقف بما جيء به له، ولا يحتاج إلى معضد، أو سبب آخر يقف بجانبه، فيسنده:

«طلق أبو الخِندف امرأته أم الخندف، فقالت له: يا أبا الخندف، طلقتني بعد خمسين سنة؟!
فقال: ما لك عندي ذنب غيره». [1]

إما أن يكون أبو الخندف قد شرب المرّ من أم الخندف، وعيل صبره، ونَفَدَ تحمله، فعمد إلى أقرب الحلال إلى الله، فأطلق سهمه، ورمى نبله، أو أن أبا الخندف طلق بطراً، ولم يرع العشرة، ولم يهتم بصحبة خمسين عاماً هي مدة العِشرة الزوجية بينهما. وبدهشة أم الخندف نشعر أن أبا الخندف ظالم، وكان بإمكانه - إن كان جيبه يسمح - أن يتزوج أخرى، ونحن نضمن له أن هذا سوف يحقق هدفه من الإغاظة، وإيذاء شعور أم الخندف أذى كافياً بالغاً. ولكن قد يكون أبا الخندف في حالة تستوجب أن

(١) الامتاع والمؤانسة: ٣/ ١٨٣.

يكشف على عقله، فقد يكون في «قُفْشِ رأسه» ما يبرر فعله، ويبرئ ساحته، ويعفيه من اللوم!

والعلم فوائده لا تحد، ونفعه لا يكاد يحصر، وكل إنسان متعلم أو عالم يستفيد من العلم الفائدة التي يحتاجها، يستفيد منه اليوم مصدر رزق، وغداً مصدر جاه ومكانة، وبعد غدٍ مصيدة ثواب وجزاء، وبعد أيام مخرجاً من مأزق، وبعد أسبوع مساعدة لمحتاج، وبعد شهر فتح باب دنيوي أو أخروي، أما اليوم الذي تكلم فيه اسحاق بن مرار الشيباني الكوفي فقد كان السبب الرئيس في ذهنه له، أو لمن استفتاه كالآتي:

كان اسحاق بن مرار الشيباني الكوفي يقول:

«تعلموا العلم، فإنه يوطئ الفقراء بسط الملوك»[1].

هذا هو المستفاد الأول في ذهن اسحاق للعلم في هذه اللحظة، وهو سبب رئيس ومهم، فالعالم

(١) معجم الأدباء: ٦/ ٧٩.

والحاكم هما العينان في وجه المجتمع، وأن يطأ المرء بساط الملك فشرف لابد أن يكون لصاحبه ما يؤهله له، ويَبُزُّ به غيره، والعلم هو المرتقى، هو القوة التي تساعد على الصعود إلى بلاط الملك، وهي الجواز من باب السلطان، وهي الأداة لتنحية الحارس عن الطريق. أفلا يكفي أن يكون هذا سبباً رئيساً.

وقد يأتي سبب رئيس متوهم بضرر بالغ، نتيجة جهل وتأخر، وانسياق وراء الأوهام، وجري وراء الخرافات، لكسل عقلي لدى المسؤولين، وسيطرة من الرعاع، لا تجد أمامها من يردعها ممن يدركون الأمور على حقيقتها، فيوجهونها وجهتها، والقصة الآتية محزنة حقًّا، والسبب الرئيس فيها مفترى كاذب، في حين أن هناك أسباباً لم تخطر على بال من حصروا السبب في غير ما هو، والقصة كما يلي:

«اتفق في بعض السنين أن النيل لم يزد زيادة تامة، فقيل للحاكم حينئذ: إن جنادة (ابن محمد الهروي اللغوي النحوي) رجل مشؤوم، يقعد في المقياس،

ويلقي النحو، ويُعزّم على النيل، فلذلك لم يزد.

وكان من حدة الحاكم، وتهوره، وما عرف من سوء سيرته، لا يتثبت فيما يفعله، ولا يبحث عن صحة ما يبلغه، فأمر من ساعته بقتله، فقتله ـ رحمه الله ـ» .[1]

يعجب الإنسان كيف تدخل مثل هذه الأفكار على المجتمعات، فتطفئ نور العقل، وترديه إلى هذه الظلمة، وتنزل به إلى قعر السقوط والذلة، وأين العلماء؟ وأين العقلاء والحكماء؟ لكن هذه الفترة من حياة العالم الإسلامي كانت فترة عصيبة، غاب فيها العقل، وانحسر العلم، وضعفت الروح، وتضعضعت الشجاعة، وهزل الضمير، وتمركز الشيطان على كرسيه، يصرف الناس كيف يشاء، وكما يريد، وويل لمجتمع يحكمه الشيطان! وويل لمجتمع يغيب عنه العلم والعقل والتثبت، وفوق ذلك معرفة الله، والخوف منه، ورجاؤه.

(١) معجم الأدباء: ٧/ ٢١٠.

وكلمة واحدة رئيسة تقال صحيحة في موقعها تكشف فضل قائلها، وتُري عقله وعلمه، وتصبح مفتاحاً يفتح المغلق على صورة بديعة، وهذه الكلمة فهمها من يقدِّرها، ويقدِّر دقة استعمالها، ولو سمعها جاهل وهي في مكانها لم تعن له شيئاً، ولظنها من جملة مترادفات المعنى الذي دلّت عليه، وظن اشتراكها مع غيرها في هذا المعنى، الذي تبين أنها تنفرد به:

«دخل الحسين بن أحمد بن خالويه يوماً على سيف الدولة، فلما مثل بين يديه قال له: «أقعد»، ولم يقل: «أجلس».

قال ابن خالويه: فعلمت بذلك اعتلاقه (تعلقه) بأهداب الأدب، واطلاعه على أسرار كلام العرب.

قلت: قال ابن خالويه: هذا لأنه يقال للقائم: (أقعد)، وللنائم والساجد: (اجلس)». [1]

---

(١) معجم الأدباء: ٩/ ٢٠٢.

وهناك سبب يُعطَى على أنه رئيس، وإن لم يكن رئيساً، ولكن مفعوله يكون كذلك، رغم أنف الطرف المتلقي، وهذا يتأتى عندما يكون معطي السبب من أصحاب الميزات المدللين مثل الشعراء، الذين يقبل منهم عن شعرهم ما لا يقبل من الكتاب والأدباء في نثرهم، والخطباء على منابرهم، والوعاظ في مساجدهم، والمدرسين في حلقاتهم:

«قال الخالع: أنشدني علي بن عبدالله بن وصيف الناشئ يوماً لنفسه من قصيدة:

تجاهُ الشظا جُنُبُ الحمى فالمشرفُ

حيالُ الرُّبى فالشاهقُ المتشرف

فقلت له: بم ارتفعت هذه الأسماء وهي ظروف؟ فقال: بما يسوؤك»[1].

إن جواب الناشئ رئيساً بدليل أنه اكتفى به، ولم يردفه بغيره، ولم يتبعه أو يصحبه تعليل متوقع

---

(١) معجم الأدباء: ١٣/ ٢٨٦.

لجواب لمثل سؤال الخالع، ومن مكان عالٍ مشرف على من هم دونه ممن لا يحق لهم أن يسألوه جاء الجواب مغمضاً أصم، وترك لبيت المتنبى المشهور أن يطل برأسه فيقول:

أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصموا

وتنكب الناشئ الطريق، وترك الخالع مندهشاً، فاغراً فاه، لم يبق له من الأمر إلا حرية قص هذه القصة التي أدخلها التاريخ عنجهية شاعر، أخطأ وأصر على خطئه.

وكلمة رئيسة تطفئ ناراً ملتهبة، وتخمد حريقاً مشتعلاً، كاد يحدث خسائر الله أعلم بمداها، ولكن هذه الكلمة كانت ذَنُوبا من ماء، جاء ببرد وسلام:

«حضر رجل بين يدي بعض الملوك، فأغلظ له السلطان، فقال الرجل: «إنما أنت كالسماء إذا أرعدت، وأبرقت، فقد قرب خيرها».

فسكن ما به ، وأحسن إليه» .[1]

إن مَسْرى هذه الجملة في فضاء نفس السلطان كان مدهشاً ، ولقد أحسن القائل في قوله ، لأنه لجأ إلى رسم صورة حولت فكر السلطان من الغضب إلى تتبع أجزاء الصورة، وتأملها : فهذه هي السماء وهذا هو البرق ، وهذا هو الرعد ، ثم هذا هو المطر ، ولعل هماليل المطر المتخيلة ، أطفأت نار الغضب الحقيقية ، وجاءت نتيجة فائقة ، فغضب السلطان لم يسكن فقط ، بل تبعه إحسان للمغضوب عليه ، فأصبح الخير خيرين ، زوال الغضب والحسنى ، فهذا يدخل في نطاق : «والعافين عن الناس» ، «والله يحب المحسنين» .

إنها جملة رئيسة حقاً ، وجاءت بخير عميم ، وهي بلا شك خير من هَذْر كثير قد لا يأتي برفع أذى ، وإنّما يجلب أذى فوق الأذى ، وتكون كالحطب يرمى على نار مشتعلة ، يزيدها اشتعالاً ، ويزيد لهيبها أواراً .

---

(١) سراج الملوك : ١١٨ .

ويتمطى أحدهم، ويظن أنه وقع على كنز، وأنه سوف يلجم قبيله بسؤال حَضَّره، وظن أنه لن يستطيع عليه الإجابة، واستعد لفرحة الانتصار، وظن أن المسؤول سوف يتوه في جدل ملتوٍ معقد، يبين فيه عجزه، ويكشف عن إخفاقه، إلا أن النية الحسنة، والاعتماد على الله في العون والتعضيد كان سلاح المسؤول، فأنار الله فكره، وهدى طريقه، فرد رداً قصيراً وافياً شافياً، مدهشاً للسائل، ومخيباً لأمله السيء، وواضعاً قاعدة يرد بها، وعلى نسقها، على كثير من هذا النوع من السؤال، الذي يراد به التحدي والتعجيز، يأتي من أناس سيئي الأهداف، ملتوي المقاصد:

«قيل لعبدالله بن عباس: أين تذهب الأرواح إذا فارقت الأجساد؟

فقال: أين تذهب نار المصابيح عند فناء الأدهان؟». [1]

---

(١) أدب الدنيا والدين: ١٥.

إن هذا العبقري أجاب بسؤال لا بد أنه أفقد السائل توازنه، والكرة الآن عند السائل، وعليه أن يعطيها حقها، وإلا فليسلم طائعاً مختاراً. لقد كان الجواب رئيساً، كافياً بل فوق ما كان متوقعاً.

وقد يكون الجواب رئيساً، ولا جواب غيره رغم أنه خطأ، ولكن في أساس السؤال خطأ، وما بديء بخطأ فاحرٍ به أن ينتهي به. والشعبي رجل عرف بسخريته، خاصة عندما يكون مخاطبه ساذجاً مثل الخياط الذي سأله، والقصة كما يلي:

«روي أن خياطاً مر بالشعبي، وهو مع امرأة في المسجد فقال:

أيكما الشعبي؟

فقال الشعبي مشيراً إليها: هذه».[1]

وهكذا تأتي الأجوبة الرئيسه كافية وافية، يقتنع بها مستنهضها، ويرضى بها سائلها، لأنها تشفيه فيما سأل عنه، أو تقنعه بأنه لا غيرها يمكن أن يحل محلها.

---

(١) المراح في المزاح: ٣٤١.

والجواب الرئيس مريح، لأنه يوفر الوقت، خاصة في بعض المواقف مثل موقف الضابط العثماني في حرب البلقان أو القرم بالذات، فهذا وقت الاختصار في القول لأفساح المجال للفعل؛ وعلى العموم فالهذر غير مرغوب فيه، فهو كالثوب الذي يسحب على الأرض، فربما جمع من الأوساخ وغيرها ما يجعله ضاراً غير نافع.

لفائف جهل[1]

الجهل سبّة تلحق بالمرء فتسوّد صفحته، والجهل ظلمة تنتشر في نفسه فتعميها؛ والجهل نقص يلحق بالإنسان فيفقد معه ميزات، ويجني أضراراً، لا يتمنى عاقل أن ينزل بساحته، أو يحل قريباً من داره، أو يرى له وجهاً، أو يلبس له ثوبا؛ يبتعد العارف منه ابتعاد السليم من الأجرب، والصحيح من السقيم، يُحارَب بلا هوادة، ويستعان عليه بكل سلاح، يأتي دون عناء، ولا يقضى عليه إلا بالتعب؛ وإذ هو ظلمة فدواؤه النور، والنور يكمن في العلم، يكمِّل به الإنسان نفسه، فيبعد الجهل، وكل خطوة يخطوها يضيء شمعة تساهم في تبديد دُجُنَّة الجهل، وكل لبنة في التعليم والتعلم تقوض بناء فيه، وتهدم لبنة في صرحه.

والأمية جهل، ومحوها بالتعليم، وقليلون هم

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٣٠٩) في: ١٤١٥/٥/٢٤هـ الموافق: ١٩٩٤/١٠/٢٩م.

الذين لم يعطهم الله موهبة التعلم، والقدرة على الكسب الذهني، والاستيعاب الفكري، لأن عقولهم كدّة بالفطرة؛ أما أغلب الناس فعندهم الأرض الخصبة، المتعطشة للماء القراح، لتنبت البذرة المباركة فيها، فيسوق نبتها، وتخضر، ثم لا تلبث أن تؤتي أكلها بإذن ربها، ثمرة مباركة، بها يسير الإنسان في الحياة على هدي، فتشرق المنافع في حياته، وتكسف شمس المضار.

ونجد في النصوص ما يشير إلى اهتمام الكتّاب بالجهل، ومحاذرته، ومحاربته، والتنبيه إليه، والتبصير به، فأحيانًا يأتون بالكلمة دالة على قصدهم، وينطقونها صريحة في النصوص التي ورثت عنهم، فتأتي حكمة يطلقونها، يهتدي بها المسترشد، ويستفيد منها ناشد العلم، وطالب المعرفة؛ ومما لحظوه في الجاهل، وهم العارفون، حيلة يقوم بها الجاهلون، يبنون عليها انتصارهم، وهو انتصار لا يشرفهم:

«ومنها (أي خصال الجاهل) أن يناقل (يحادث) عادلاً وديعاً منصفاً له في القول، فيشتد صوت ذلك الجاهل عليه، ثم يُفلجه نظراؤه من الجهال حوله بشدة الصوت». (١)

هذا فلج ضال عن جادة الصواب، ومجانب لصورة الحقيقة، وإذا كان اللجوء إليه من قبل الجاهل عن علم بفائدته له، ولجأ إليه عمداً، واستعمله سلاحاً، فالأمر عجيب، لأن مجرد التفكير كان مفروضاً أن يصرف للبناء لا للهدم، ولكن الجهل لا يرحم صاحبه؛ وإذا لم يكن الأمر كذلك، وجاء الأمر طبيعة، وعادة تعود عليها المُلاَحي، فليس مع الجهل ملامة، فإنسان بهذه الصفة لا يدري ما يفعل؛ ولا شك أن الضحية في موقف يرثى له؛ لأن حقه قد ضاع في غبار الجهل.

والجهل لا يقف أذاه عند صاحبه، ولكنه يضر بمن يكون له صلة قرابة أو جوار به، لأن مفعوله

---

(١) الأدب الكبير: ١٧٥.

يسري، وأذاه ليس له حدود يُضمن ألا يتعداها، وقد فطن الأولون لذلك، ولعلهم اكتووا بنار قرابة الجاهل أو جواره، فأعطاهم هذا درساً استفادوا منه، وسجلوه ليستفيد منه غيرهم، وتجربتهم جاءت عصارتها في القول الآتي:

«لا يؤمننّك شرَّ الجاهل قرابةٌ ولا جوار ولا إلف، فإن أخوف ما يكون الإنسان لحريق النار أقرب ما يكون منها؛ ولذلك الجاهل إن جاورك أنصبك، وإن ناسبك جنى عليك، وإن ألِفك حمل عليك ما لا تطيق، وإن عاشرك آذاك وأخافك، مع أنه عند الجوع سبعٌ ضارٍ، وعند الشبع ملك فظ، وعند الموافقة في الدين قائد إلى جهنم؛ فأنت بالهرب منه، أحق منك بالهرب من سم الأساود، والحرق المخوف، والدَّين الفادح، والداء العياء». [1]

ما يقول مثل هذا القول الحاد إلا رجل قد لدغ من جاهل لدغةً مميتة، وعانى معاناة شديدة، جعلته

---

(١) الأدب الكبير: ١٧٧.

ينفث من صدره هذه النفثة، ويزفر هذه الزفرة.

ولأحد الشعراء تجربة مع جاهل وجهله، عانى منها، وهي داء، فوجد لها دواء، يشفي منها، ويوقف مدها، ويقي نفسه شرها، يتحمل صدمتها بهذا الدواء، فيضمن الراحة بعد ذلك:

«قال أبو العباس الناشئ:

وإذا بليت بجاهل متحامل
يجد المحال من الأمور صوابا
أوليتُه مني السكوتَ وربما
كان السكوت على الجواب جوابا»[1]

ووضع بعضهم معياراً للجاهل يعرفونه به، ووجدوا أن علامات الجهل تظهر على الجاهل، ويمكن أن يعرف بها، ويستدل منها عليه، وقد تنفرد واحدة منها تكفي أن تَصِم الشخص، وتَسِمه بهذا الميسم، والخصائص الست حواها القول الآتي:

---

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٤٣١.

«كان يقال: ست خصال تعرف في الجاهل: الغضب في غير شيء، والكلام في غير نفع، والعطية في غير موضعها، وإفشاء السر، والثقة بكل أحد، ولا يعرف صديقه من عدوه» .[1]

كل خصلة من هذه الست الخصال قائمة على هدم قاعدة أو قواعد من الخلق، والأسس الحميدة التي تعارف عليها الناس، وتواصوا بها، وحافظوا عليها، وحاسبوا عليها؛ فالغضب في غير شيء تعدَّى أدنى درجات قبول الغضب، والتماس العذر لصاحبه؛ والحث عادة ينصب على قمع غائلة الغضب، والتغلب عليها، وحصره، والحث على عدم التصرف تحت طائلته، لما هناك من توقع الزلل، وما يتوقع من ندم. أما أن يغضب الإنسان دون سبب فهذا عين الجهل.

والكلام وسيلة التخاطب، واختصاره وبيانه هدف العاقل إذا تكلم، ومحمدة من السامع إذا

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٥٣٧.

أصغى؛ والكلام وسيلة نفع يكتسب، أو ضرر يدفع، وفخر المتكلم في أن يأتي قوله بالنتيجة التي قصدها، وحديثه يصل إلى الهدف الذي ابتغاه، أما أن يصبح القول هذراً لا نفع فيه، فهو وصمة في وجه صاحبه.

والعطية تعطى لِهدف، أما لتفك ضائقة حلت، أو جائحة نزلت، أو لتفرح قريباً، أو تسر طفلاً؛ أو تبهج في يوم عيد، أو تطرب في يوم زواج، أو لتمهد لصداقة، أو لتمسح صدأً ران على قلب، أو لتزيل كابوساً جثم على صدر، أو لتبدأ صداقة، وتبني أخوَّة، أما أن لا تجد لدى المُعْطَى مكاناً شرعياً تستقر فيه، أو استقرت في غير موضعها عنده، فإنها تكون نابية، وتدل على جهل صاحبها، الذي أعطى دواء لصحيح لا يحتاج إلى الدواء.

والسِّرّ يقصد به الإخفاء ليبقى سرّاً محتجباً، فإذا أُفشي خرج عن موقعه، وفقد طبعه، ولم يعد سراً، والسبب جهل مفشيه، وعدم تقديره للأمانة التي

وضعت عنده، والأمانة ثقيلة، لا ينوء بحملها بكفاءة وجدارة، إلا أناس وهبهم الله القدرة على مقاومة إغراء الإفشاء، وهذا ليس سهلاً على كثير من الناس؛ وإغراء إفشاء السر ليس شعبة واحدة، ولكنه شعب متعددة، تهاجم من لديه السر كأنها رماح موجهة، ولا ينجو من الاستسلام لها إلا ذوو العزم.

والثقة غالية ثمينة، ويجب أن يشح بها الإنسان، شحه بالجوهر النفيس النادر، ولهذا فالمرء يختار المكان الذي تستكن فيه الثقة بأمان، يحافظ عليها فيه، ويطمئن إليها ما دامت بحضنه، أما إذا أهمل في هذا الجانب، وتساوى الناس عنده، ولم يجر بينهم إختبار يحكم به على الصالح منهم والطالح؛ فإن الثقة تدخل حيز الإهانة، وتخرج من طبعها كما خرج السر عندما أفشي، وتصبح وصمة جهل.

والذي يعتبر الناس كلهم أصدقاءاً، من يصلح منهم لذلك ومن لا يصلح، أو يعتبرهم أعداءاً،

بسبب أو بدون سبب، تصبح حياته شاذة، ولا يجد مكاناً مريحاً في مجتمعه، فإن وثق بصداقة من ليس مخلصاً في صداقته ارتطم يوماً ما بالواقع، وعانى الخذلان، ولا يعلم الضرر الذي قد يأتي به هذا الخذلان، وإن نزع ثقته من الناس أصبح في شك مستديم، وانعزل عن مجتمعه، والإنسان بلا مجتمع كالسمك خارج الماء، ودخل حيز الجهل من أوسع أبوابه.

هذه الأقوال تتكلم عن مبدأ الجهل، وصفات الجهلاء، وسوف نرى عملاً كيف يضر الجاهل نفسه والآخرين، وكيف يجعل الأمر المستقيم معوجًّا، والمريح مزعجاً، وكيف يعكس الأمور، ويقلب الحقائق، ويأتي بالمظلم في مكان المنير، ويتهم البريء، ويبعد عن الحق، ويقترب من الخَطل:

«سأل المأمون ثمامة: ما جهد البلاء؟

فقال: عالم يجري عليه حكم جاهل.

قال: من أين قلت هذا؟

قال: حبسني الرشيد، ووكل مسروراً بي»[1] ، فضيق علي الأنفاس، ثم قرأ يوماً: «والمرسلات»، فقال: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [بفتح الذال].[2]

فقلت: إن المكذِّبين هم الرسل، ويحك!

فقال: كان يقال إنك قدري فما صدقت، لا نجوتُ إن نجوتَ.

فعانيت الموت، يا أمير المؤمنين».[3]

ـ[4] مسرور هذا جاهل أصدر حكماً على ثمامة بناه على دخوله السجن، ووسمه بميسم ترتب عليه أذى ثمامة، وضلله جهله، فزاد من أذاه منطلقاً من فكرته الأولى، فتأكد له أن نظرته كانت صائبة، وأن ثمامة يجب أن يعاني أكثر مما كان يعاني من قبل، وفي هذه المرة سوف تكون المعاناة لوجه الله، وهكذا الجهل ظلمات بعضها فوق بعض، ولُجج من الأذى تتراكم

(١) في تاريخ بغداد: «سلام الأبرش» بدل سرور.
(٢) سورة المرسلات، الآية: ١٥.
(٣) ربيع الأبرار: ١/ ٦١٩.
(٤) من هنا تبدأ الإضافة إلى ما نشر في «عكاظ».

بسببها على الناس.

والجاهل كما قلنا أذاه يصل أول ما يصل إلى أقربائه وجيرانه، لأن نقص عقله لا يأتيهم بخير، ويصبح المجاور له مثل مَنْ بجانب نافخ الكير، يتطاير عليه الشرر، وتزكم أنفه الرائحة الكريهة. والجاهل بنقص عقله يُنقص عقل جليسه ومجاوره، لأنه لا يضيف فكراً سليماً، وإنما فكراً سقيماً، فالمجاورة لناقص العقل تنقص العقل، والجاهل ناقص عقل:

قال العتابي:
مجالسة الجاهل مرض العقل». [1]

فما يرجو رجل يجالس جاهلاً مثل الرجل في القصة الآتية إلا التدهور في المعرفة، والتدني في الفهم، فإذا لم يزد الجليس من معلومات جليسه، فإنه يعديه بصدإ الذهن، وقلة المحتوى، وتدريجاً يأخذ ذهنه في سلوك طريق غير موصلة، ويبتعد عن

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٣٣.

الملكة الصحيحة التي كان عليها:

«سمع بعضهم أن برذون فلان نفق فقال:

«والهفاه! كنت أرجو أن يكسد فيخسر».

«ظن أنه من نفاق السلعة»[1].

والجهل عذاب، كما حدث لثمامة من مسرور، للفارق بين الاثنين، وسوء حظ ثمامة، فلو كان الأمر بخلاف ما كان عليه، وكان مسرور تحت رحمة ثمامة، لم ينله ما أنزله مسرور بسجينه. ولقد أدرك أبو الأسود الدؤلي الفطن هذا فقال:

«إذا أردت أن تعذب عالماً فاقرن به جاهلاً»[2]

وأذى الجسم يسهل عند أذى الروح، فأذى الجسم يحتمل، لأنه كما قال أحدهم تحتمله أعضاء الجسم مجتمعة، أما أذى الروح فليس معها من يحمل عنها، فيقع العبء على عاتقها، وينهك قوتها.

وأمثال مسرور في خلطه الأمور عندما يكون

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٣٢.

(٢) ربيع الأبرار: ١/ ٦٣٣. قارن هذا بما جاء في البيان والتبيين: ٢/ ٨٧٢.

الأمر متصلاً بالدين، والتهم والصفات التي تأتي من الجاهل في هذا المقام قاتلة، وهذه القصة الآتية تري حالة من الحالات التي تراكبت فيها طبقات الجهل:

«شهد سلمي الموسوس عند جعفر بن سليمان على رجل فقال:

هو - أصلحك الله - ناصبي، رافضي، قدري، مجبر، يشتم الحجاج بن الزبير، الذي هدم الكعبة على علي بن سفيان.

فقال له جعفر:

لا أدري على أي شيء أحسدك! أعلى علمك بالمقالات، أم على معرفتك بالأنساب؟

قال: أصلح الله الأمير - ما أُخرجت من الكتاب حتى حذقت هذا كله»[1].

وتأثير الجاهل الأحمق على عقل المجالس يشهد عليه شاهد عدلٍ، لكلمته وزن، ولقوله معنى، ولرأيه صدى، عُرفت عنه الحكمة، والقول السديد،

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٤٤.

صادق في نظرته، متبصر متدبر فيما يمر به، مقامه يوجب احترامه، ومركزه يوجب اعطاء رأيه حقه من القبول، وهذا قوله:

قال الأحنف:

«إني لأجالس الأحمق ساعة فأتبين ذلك في عقلي». (١)

هذا يؤكد ما يشعر به الإنسان عندما يجلس مع جاهل، يقوم منه ولم يربح شيئاً إن لم يخسر أشياء، خلاف ما يحصل عليه من جلسته مع عالم ينضح بالعلم، لا مناص لِمُجالسه من الخروج بفائدة أضافها إلى ما عنده، أو ملاحظة أبداها عدلت أمراً معوجاً لديه، وحسنت مما عنده مما كان سيئاً.

والفطرة إذا كانت سليمة حمت الإنسان من الجهل وموبقاته، ووضعت سداً منيعاً بينه وبين الخطأ، أو الوقوع في مصائد الزلل، ونعمة العقل هبة يمن بها الله ـ سبحانه وتعالى ـ على الإنسان،

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٥٤.

ويهيىء له أسباب نموها وصقلها، فهي لا تخص خلقاً بعينه، أو جنساً عن جنس، وهذا أعرابي علمه من بيئته، إهتدى بفطرته التي حباه الله بصفائها، عندما خير بين أمرين، إختار الأصلح منهما. ولم يكن جاهلاً يقع في مصيدة الأغراء اللامع؛ وتبين من قوله أنه لم يجازف بالجواب عندما سئل، وإنما بناه على عقل وبصيرة:

قيل لأعرابي أيسرك أنك أحمق، وأن لك مئة ألف درهم؟

قال: لا.

قيل: ولم؟

قال: لأن حمقة واحدة تأتي عليها، وأبقى أحمقاً». [1]

وقيل إن المسؤول أعرابي صغير السن.

والفطرة السليمة تهدي كثيرين إلى مثل هذا، وقد يختلف أحدهم عن الآخر في التعليل كما في القصة التالية:

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٥٥.

«قال أبو تمام:

قلت لرجل من أهل الكوفة: أيسرك أنك جاهل ولك مئة ألف درهم؟

قال: لا.

قلت: ولم؟

قال: لأن يُسْر الجاهل شين، وعسر العاقل زين، وما افتقر رجل صح عقله». [1]

والجهل مثلما يكون في الفرد يكون منتشراً في مجموعة، مثلما حدث في قوم موسى، عندما انساقوا مع السامري، وعبدوا العجل، ومثلما حدث لبعض الصحابة، وهم حديثو عهد بالإسلام، عندما طلبوا من الرسول ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط، كما كان للمشركين ذات أنواط، والرواية تأتي كما يلي:

«قال الإمام أحمد:

حدثنا عبدالرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري،

---

(١) البصائر: ٤/ ١٦١.

عن سنان بن أبي سنان الديلي، عن أبي واحد الليثي، قال:

خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط؛ وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة، ويعكفون حولها.

فقال النبي ﷺ: الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى:

﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾.[1]

إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم».[2]

ولعل هؤلاء الذين طلبوا هذا كانوا من بين الصحابة الذين اعتنقوا الدين الإسلامي حديثاً، ولم يتشربوا روحه، وكنه العقيدة، ويعرفوا شُبَه الشرك، وحقائقه.

والفطرة السليمة منعت أناساً في الجاهلية عن

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.
(٢) قصص الأنبياء لابن كثير: ٣١٨.

الخنا، وصرفتهم عن تدني الخلق، صانوا أنفسهم عما يعيب الفكر، وينتقد عقل الإنسان، فتحصنوا بالعقل السليم، فدلهم على طرق مكارم الأخلاق، فتمسكوا بها، وصارت لهم نهجاً. هذا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وهو من تبين سلامة فطرته، يروي سَيْرَهُ في أيام الجاهلية فيتبيّن منه تجمع علامات الرجولة:

«قيل لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أخبرنا عن أيام جاهليتك؟

قال: ما داعبت أمة، ولا جالست إلا لُمَة (رفقة)، ولا دأبت إلا في حمل جريرة، أو خيل مغيرة؛ وأما أيام الإسلام فكفى برغائها منادياً»[1].

فعمر وأمثاله، ممن وهبهم الله العقل العامل الناضج، لا يتصور بحال من الأحوال، وهذا سيرهم في الجاهلية، أن يفكروا بذات أنواط!

والجهل مرعب، وظهور علامته مفزع، والعاقل

---

(١) البصائر: ٢/ ٣٠.

يسرع ببناء الحصون أمامه، ما رأى له علامة، أو أحس منه باقتراب، والقصة الآتية تُرِي سرعة التحصن عندما أحس شخص أنه بحاجة إلى التقوّي أمام بادرة جهل عابرة، ولم يركن إلى الضعف، ولم يغلبه الحياء، ولم تركبه عقدة نفس، بل برز للميدان، وشمر ساعده، ونجح في تثبيت كلمة في ذهنه، صححت خطأ، وأزاحت كلمة أخرى، وحلت محلها:

«قال أمير لأعرابي، وقد رأى معه ناقة، فأعجب بها: هل أنزيت عليها:

قال: نعم، أيها الأمير، قد أَضْربتُها.

قال: قد أضربتَها، قد أحسنت حين أضربتَها، نِعْمَ ما صنعت حين أضربتَها.

قال: فجعل يرددها، فعلمت أنه يريد أن ينقف بها لسانه» .[1]

هذا الأمير لم يعش في الصحراء، فيعرف أن الناقة

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٥٢.

تُضَرَّب، وما يعرفه عن دواب المدينة، هو نزوها؛ والأعرابي كان مؤدباً، فلم يصححه، وإنما جاء بالجواب صحيحاً، فأدرك الأمير خطأه، فلم يتوان عن أن يضع الكلمة في جمل منوعة، لتستقر في ذهنه، ولم يخجل أن يبين جهله، بل سارع في إضاءة البقعة التي وجدها مظلمة، ويوقد شمعة مكان أخرى مطفأة؛ وفعل هذا لأنه لم يكن جاهلاً.

وقد يقع الجاهل، الذي يتصنع العلم، في شر فعلته، ويوقع نفسه في الخطأ، لأنه ليس عنده خط دفاع يحميه، وتصنعه العلم، وادعاؤه الفهم، أدى به إلى أن يستمرئ طرق الجهل، فيسير في أنفاقها المظلمة، وفي القصة الآتية ما قد ينطبق على بطلها في هذه الصفات:

قال الأصمعي: عن بعض الرواة:

قلت للشرقي بن القطامي: ما كانت العرب تقول في صلاتها على موتاها؟

فقال: لا أدري.

فكذبت له، فقلت: كانوا يقولون:

ما كنت ولواك ولا بزونك
رويدك حتى يبعث الحق باعثه

فإذا به يحدث به في المقصورة يوم الجمعة.[1]

فإن كان لم يكشف الكذبة فهو جاهل، وإن كان اكتشفها ودلّس على الناس فهو أكثر جهلاً».

وأظهر علامات الجهل تلك التي تقترن بالغباء، وهو نقص في الطبع، وقصور في الإدراك، والغبي لا يرى إلا جزءاً من الصورة، يتبع طارقها، ويحتجب عن جانب قد يكون هو الأهم؛ وتصرفه هذا يلفت إليه الناس، ويسمه بعلاقة لا تشرفه، ومن الأمثلة على ذلك القصة الآتية:

«مرّ رجل من العباد، وعلى عنقه عصا في طرفيها زبيلان قد كادا يحطمانه، في أحدهما برّ، وفي الآخر تراب، فقيل له:

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٤٦.

ما هذا؟

قال: عدلت البر بهذا التراب، لأنه قد أمالني في أحد جانبي.

فأخذ رجل زبيل التراب فقلبه، وجعل البر نصفه في الزبيلين، وقال له:

إحمل الآن.

فحمله، فلما رآه خفيفاً قال:

ما أعقلك من شيخ»[1].

هذه شعبة من شعب الجهل، أساسها نقص الإدراك لجوانب الأمر المختلفة، وتحديد الذهن على جانب واحد؛ فالرجل يعرف أن معادلة الحمل على الجنبين أفضل من جعل الحمل على جانب واحد، فإن هذا يحني الحامل إلى جهة واحدة، فيتعب بسرعة، وقد يضره الحمل، ففكر في ما أقدم عليه؛ واعتبر الأمر الطبيعي مدهشاً!

وليس بعيداً عن هذا الرجل في نقص الإدراك

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٤٦.

ما أقدمت عليه امرأة عرفت كيف تحاجي الناس وتراهنهم، ولكنها لنقص إدراكها لم تتقن الأمر، وأهملت جانباً مهمًا، لفت النظر إلى نقص عقلها، وتحقق جهلها:

«كانت أم عمرو بنت جندب بن عمرو بن جمعه السدوسي عند عثمان بن عفان، وكانت حمقاء، تجعل الخنفساء في فيها، ثم تقول:

حاجيتك ما في فمي»[1].

ولا أدري مدى صحة هذه القصة، ولكن هذا وضعها، وهذه صفتها، إذا صحت!

وهناك أحمقان جاهلان، إنضم إليهما ثالث، فصار أحمق منهما في تعامله معهما، ومع أمرهما، والقصة لا تبعد كثيراً عما وصف به صاحب البُرِّ والتراب السابقة، في نقص العقل، وإن كان أبطال هذه القصة فازوا بقصب السبق على ذاك الرجل، لأن منطلقهما أساسه ضعيف:

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٤٦.

«اصطحب أحمقان في طريق، فقال أحدهما:

تعال نتمنى، فإن الطريق يقطع بالحديث.

فقال أحدهما: أنا أتمنى قطائع غنم، أنتفع برسلها (لبنها)، ولحمها، وصوفها، ويخصب معي رحلي، ويشبع معها أهلي.

قال الآخر: وأنا أتمنى قطائع ذئاب، أرسلها على غنمك حتى تأتي عليها.

فقال: ويحك! أهذا من حق الصحبة، وحرمة العشيرة؟

وتلاحما، واشتدت الملحمة بينهما؛ فرضيا بأول من يطلع عليهما حكماً؛ فطلع عليهما شيخ على حمار بين زقين من عسل؛ فحدثاه، فنزل من الحمار، وفتح الزقين حتى سال العسل في التراب، ثم قال:

صب الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين».[1]

ولشدة الغباء، وتناهي الحمق، لا يستطيع

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٥٥.

المتمعن فيها إلا أن يحكم بأنها مصطنعة؛ وعلى كل حال، فقد مثل مصطنعها الحمق المتناهي بأدق الصور.

ومن الأمور التي تتسم بالجهل، تلك الأمور التي لا تتماشى مع ما اعتاد عليه الناس، وتأتي فيها فكاهة تستوجب السخرية، لإفراط الجهل فيها؛ وشُذوذُها هو الذي لفت إليها النظر، فاستحقت أن تدون، ولو سارت على النهج المستقيم لما كان لها هذه الطرافة، وإليك القصة التي تمثل هذا النوع من الجهل:

«مدح شاعرٌ محمدَ بن عَبْدُوْس، (١) فقال:

ما أن أعطيك شيئاً من مالي، ولكن إذهب فاجن جناية حتى لا آخذك بها». (٢)

هذا هو الملجأ الوحيد الذي فكر في الهروب إليه

---

(١) كان حاجباً للوزير علي بن عيسى الوزير، ثم صار حاجباً للوزير حامد بن العباس في خلافة المقتدر بالله. وروى صاحب الكشكول أن الممدوح صاحب شرطة، وهو أقرب للقبول، لأنه يملك ما وعد به، وأقرب إلى الجهل من الوزير. الكشكول ٢/ ٣٠٣.

(٢) ربيع الأبرار: ١/ ٧٥٨.

من إعطاء دراهم أو دنانير، وخير منه ما فعله المأمون عندما مدحه مادح بشعر، فأحب أن يداعبه فكافأه بشعر، فجاء بينهما حوار طريف كشف علم الشاعر والمأمون، مثلما كشف تصرف ابن عبدوس جهله وغباءه، إلا إذا كان ابن عبدوس، أو صاحب الشرطة، أراد أن يجبه الشاعر صراحة، فجاء بما جاء به متفقاً مع ما أراده، وما استحقه الموقف.

وقصة المأمون مع الأعرابي الشاعر كما يلي:

«حكى «النواجي» في «حلبة الكميت» أن أعرابياً قصد المأمون وقال له:

قلت فيك شعراً.

قال: أنشده.

فأنشد:

حياك رب الناس حياكا
إذْ بجمال الوجه رقّاكا
بغداد من نورك أشرقت
وأورق العود بجدواكا

فقال المأمون: يا أعرابي، وأنا قلت فيك شعراً، وأنشد:

حيـــاك رب العــرش حيـاكـــا
إن الـــذي أملـــت أخطـــاكـــا
أتيـت شخصـاً قـد خـلا كيسـه
ولـــو حـــوى شيئـاً لأعطـاكـــا

فقال الأعرابي: يا أمير المؤمنين، إن بيع الشعر بالشعر رباً، فاجعل بينهما شيئاً حتى يستطاب.

فضحك المأمون، وأمر له بصلة» .(١)

ويأتي الجهل أحياناً تحت قاعدة: كم من كلمة، قالت لصاحبها: دعني، والثرثرة هي السبيل إلى الزلل، والكلام الذي لا داعي له يوصل صاحبه إلى ما يندم عليه لجهله، ولو علم لعرف أن اختصار الكلام إلى المفيد أسلم، وهذا أمر لا يعرفه الجاهل، الذي يفتح فمه للقول قبل أن يكون أعمل الفكرة في ذهنه، ووزنها، وعرف ما يمكن أن يبدى، وما

(١) رحلة الشتاء والصيف: ١٥٧ .

يمكن أن يمسك، والقصة التالية تري مظهراً من مظاهر الجهل، وهو الكلام اللغو الذي لا يليق أن يقال في حضرة أمير، حتى لو خطرت الفكرة في بال صاحبها، وما كل فكرة تطرق الباب يفتح لها، وما كل مُلحٍ يُنزل على إرادته:

«نزل النعمان برابية فقال له رجل:

أبيت اللعن، لو ذُبح رجل أي موضع كان يبلغ دمه من هذه الرابية؟

قال: المذبوح والله أنت، ولأنظرن إلى أين يبلغ دمك.

فقال رجل ممن حضر: رب كلمة تقول لصاحبها: دعني» .[1]

الفكرة التي عرضت لهذا الأحمق فكرة شاذة، ولو علم ما جهل لعلم أن الملوك لا يُسألون، وهم الذين يَسألون من يريدون؛ وما فكر هذا الجاهل، الجاني على نفسه، ما الجواب الذي توقعه؛ إن الحاكم

(١) البصائر: ٤/ ٢٠٢.

أول ما يطرأ على ذهنه تجاه السؤال عندما يسأل، هو: لو لم يعرف الجواب لظهر جاهلاً أمام من في مجلسه، وهذا ينقص من هيبته، ولهذا لا يستغرب عندما يغضب الحاكم غضبة مضرية، مثلما حدث مع يزيد بن عبدالملك عندما سأله كثير عزة:

والقصة كما يلي:

«كان كُثَيِّر يحضر سمر يزيد بن عبدالملك، فقال له ليلة:

يا أمير المؤمنين. ما يعني الشماخ بقوله:

وقد عَرِقت مغابنها وجادت
بدرتها قرى جَحِنٍ قتين

فقال: وما يضر أمير المؤمنين أن لا يعرف ما قاله أعرابيّ بوال على عقبه، هو القراد أشبه خلق الله بك! وكان «كثيرّ» قصيراً قميئاً دميماً». (١)

ومجالسة الملوك والحكام لها آداب، ومن جهلها،

(١) آداب الملوك: ٣٠٠، والأغاني: ٩/ ١٦٧.

أو لم يراعها، يقع في مواقف لا يَحمدها، فالقول في حضرة الحاكم يوزن قبل أن يقال، سواء كان بدءاً أو رداً على سؤال، أو مشاركة في بحث، أو مساهمة في نقاش. وفي مجلس الحاكم يتبين العارف من الجاهل، وتتباين المعرفة، مثل ما يتباين الجهل، فلكل إنسان درجة. وفي مجلس الحاكم لا يحرص على الانتصار للرأي، وإنما يبحث عن طريق للباقة عند الحرج، للخروج من مأزق وقع فيه الإنسان، أو طريق رصد له فيه؛ والأمثلة على هذا في التراث كثيرة، ومن الأمثلة الدالة على عدم التوفيق في الرد على ملاحظة ولي عهد خليفة، جاءت من رجل جاهل، لم يحسب للموقف حسابه، أو لم يكن باستطاعته ذلك، لنقص مستوى تفكيره وتدني درجة تقديره، والقصة جرت كالآتي:

«تغدى رجل عند سليمان بن عبدالملك، وهو يومئذ ولي عهد، وقدامه جدي، فقال له سليمان:

كل من كليته، فإنها تزيد في الدماغ.

فقال: لو كان هذا هكذا كان رأس الأمير مثل رأس البغل». [1]

وموائد الخلفاء والأمراء ليست للشبع، وملء البطون، ولكنها لنيل الشرف بمؤاكلتهم، ومجالستهم، وما دام الأمر كذلك، فلا يكمل هذا إلا بحسن التحدث إليهم، وجمال الإجابة. ولم يكن ليضر هذا الرجل أن يقول: إني ـ حفظك الله ـ لم أر أن هذا أثّر في رأس فلان. ويختار شخصاً من بين الحاضرين، ممن تصلح معه المداعبة، أو لو وفقه الله للحقيقة لقال: إنها تنفع ـ حفظك الله ـ لرأس، له من الاستعداد الفطري ما يستفيد منه في الخير، فالكلى مثل البذرة إذا لم تجد أرضاً خصبة لم تنبت، وأنا أظن أن رأسي أرض مصبخة، وما نفع رأس الأمير لن يفيد رأسي. وفي هذا مخرج يسر الأمير الذي قَبِل أن يكون على سفرته.

ويكشف الجهل عن نفسه، مهما حاول الإنسان

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٥٧.

إخفاءه، بزيف مظهر، أو تعمد غش، فهو يطل برأسه، ويعلن عن نفسه؛ وإذا لم يكن هذا فهو يُكتَشف بأتفه اختبار، وأيسر محاولة، وفي القصة الآتية ما يؤكد هذا:

«خرج الوليد بن يزيد حاجاً، ومعه عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر، فكانا ببعض الطريق يلعبان بالشطرنج، فاستأذن عليه رجل من ثقيف، فأذن له، وستر الشطرنج بمنديل، فلما دخل سَلَّمَ، فسأله عن أمور وهنات قال:

أفتعرف الفقه؟

قال: لا.

قال: أفرويت من الشعر شيئاً؟

قال: لا.

قال: أفعلمت من أيام العرب شيئاً؟

قال: لا.

قال: فكشف المنديل عن الشطرنج وقال: «شاهك».

فقال له عبدالله بن معاوية : يا أمير المؤمنين!
قال : اسكت ، فما معنا أحد» .[1]

لما سمع الوليد بالاسم، وتدبر الوقت الذي طلب فيه الثقفي الأذن بالدخول، خطر بباله أنه رجل ممن يستحقون الاحترام، لمقامهم وعلمهم، ولم يرد أن يحرجه برؤيته للعبة الشطرنج ، فأخفاها .

ولعله لما رأى هيئته ولباسه أراد أن يتأكد أن تحت هذه الثياب شرفاً، وتحت العمة عالماً نبيلاً، وقد يكون خطر بباله، لفراسة عرضت له، أن الرجل طاووس يزهو فقط بريشه، وأنه لا مخلب عنده ولا منقار، فأخذ يختبره في علوم النبلاء، الذين يستوجبون من الحكام الاحترام، فسأله في الدين فوجد فؤاد أم موسى خاوياً منه، ثم سأله عما يتزين به أهل العصر من رواية الشعر ، فوجد عقله خالياً منه، ثم سأله عن العلم الذي تُزين به المجالس، ويحلو به السمر ، وهو التاريخ ، وأيام العرب ، وما

(١) عيون الأخبار : ٢/ ١٣٦ ، وربيع الأبرار : ١/ ٦٣٦ .

فيها من الشعر، وأخبار البطولة، وفنون الشجاعة، وعلوم القبائل، وعادات أهل الصحراء، وتقاليدهم، فوجد أنه صفر اليدين، فوجد أن من أمامه لا يستحق الاحترام الذي قدره به عند دخوله، أما اللباس فعارية مؤقتة، وقشر لا لب تحته. فعاد إلى لعب الشطرنج أمام دهشة عبدالله بن معاوية، فشرح له ما وصل إليه من قرار، مما سمع الحوار فيه.

وهذه درجة العلم، ورفع شأن المَتلبس بها، والمتزين بردائها، والمستفيد من ثمرتها، وهذه قيمة الجاهل، وما يستحقه من عدم احترام.

ونفشة ريش الطاووس هذه كثيراً ما تحدث، وقصد الايهام من بعض الذين يشعرون بنقص تلاحظ في المجتمعات، وتكون أحياناً من الطرائف، لغرابة مظهرها، ولما يأتي منها مما يلفت النظر، ويشد الانتباه، والقصة التالية تمثل ذلك وتشبه في بعض جوانبها القصة التي سبقتها:

«حَدَّثَ معبد بن خالد العدواني ـ وكان دميماً:

وفدنا، معشر عدوان ـ على عبدالملك، فقدموا رجلاً مِنّا وَسِيماً، فقال:

ممن؟

فقال: من عدوان.

فأنشد:

عذير الحي من عدوا ... ن كانوا حية الأرض
بغى بعضهم بعضاً ... فلم يرعوا على بعض
ومنهم كانت السادا ... ت والموفون بالقرض

ثم قال له: إيه!

فقال: لا أحفظها.

وكنت خلفه، فقلت:

ومنهم حَكَم يقضي ... فلا ينقض ما يقضي

فقال له: من الحكم؟

فقال: لا أدري.

فقلت: عمر بن الظرب.

فقال: من قائل الشعر؟

قال: لا أدري.

فقلت: ذو الأصبع.

فقال: لم قيل له: ذو الأصبع؟

قال: لا أدري.

قلت: نهشته أفعى، فقطعت أصبعه.

فقال: ما كان اسمه؟

قال: لا أدري.

قلت: حرثان بن الحارث.

فقال عبدالملك: كم عطاؤك؟

قال: سبع مئة دينار.

قال لي: في كم أنت؟

قلت: في ثلاث مئة.

فقال: إجعلوا عطاء هذا لهذا، وعطاء هذا لهذا.

فانصرفت وعطائي سبع مئة، وعطاؤه بثلاث مئة (كذا بالياء)». [1]

وبالعلم ثقلت كفة، وبالجهل شالت كفة.

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٤١.

والأمر الذي يوجب الدهشة إن صدقت الرواية هو أن يظهر القاضي بمظهر جاهل في تصرفه مع الخصوم، فكل أمر يتولاه الخرق والغباء، قد يقبل على مضض إلا القضاء، لأن القاضي مؤتمن على الحقوق والأنفس والأعراض، وهي أهم ما على الإنسان في حياته، فإذا لم يكن عقله بالكفاية التي تجعله أميناً على عمله الذي يلمس هذه الأمور، فإنه لا يصلح أن يكون قاضياً بحال من الأحوال، والقصة التالية فيها علامة لا تبشر بخير عن هذا القاضي، إذا لم تكن الرواية مختلقة، اخترعها ساخط على قاض، وألصقها به:

«أتت جارية أبي ضمضم فقالت:

إن هذا قبلني.

فقال: يا فتى، إذعن لها بحقها. قبليه ـ عافاك الله ـ كما قبلك، فإن الله يقول: والجروح قصاص». [1]

ويتبين الجهل أحياناً بإقرار المتصف به، دون أن

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٦٩.

يدري أنه أَقَرَّ بنفسه، وهذا يجعل الجهل ذا شعب، لأن الجاهل في هذه الحال لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، ويفضحه سؤاله كما حدث في القصة الآتية:

«قال رجل لخالد بن صفوان:

ما لي إذا رأيتكم تتذاكرون الأخبار، وتتدارسون الآثار، وتتناشدون الأشعار، وقع عليّ النوم؟

قال: لأنك حمار في مسلاخ إنسان». [1]

هذا رجل عنده داء ولا يدري، ويسأل الآخرين ليخبروه عن نفسه، وجهله يتماشى مع جهل الذي شكى إلى الطبيب من معاناته من معدته، وأنه إذا جاع أحس كأن بقرة بلسانها الأحرش تلعق معدته، فإذا أكل زال هذا عنه، فطلب الطبيب من الله أن يصيبه بمثل دائه، لأن هذا ليس داءً، وإنما هو العافية، وقوة الشهية عند الاحساس بالجوع، وهو يزول مع الشبع. كلا الرجلين يشكو للآخرين ما هو فيه دون أن يدري ما كنهه، فَيُخْبَرُ بما فيه. وما حقيقته!

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ١٣٦، وربيع الأبرار: ١/ ٦٣٠.

وننتقل إلى قصةٍ أحد طرفيها أعرابي، وقصص الأعراب يشجع على تدوينها طرافتها، وهي ذات صفتين، إما صفة ذكاء، أو صفة غباء، وفي القصة الآتية سوف نرى أن الأعرابي غلب بالحجة والمنطق عامل الخليفة، وألجمه بحجة ذكية، ولعل الغرور، والتهاون بالأعرابي هو الذي أدى إلى هزيمة العامل:

«قال بعض العمال لأعرابي: ما أحسبك تدري كم تصلي في كل يوم وليلة!

فقال: أرأيتك أن أنبأتك بذلك تجعل لي عليك مسألة؟

قال: نعم.

قال الأعرابي:

إن الصلاة أربع وأربع ثم ثلاث بعدهن أربع
ثم صلاة الفجر لا تضيع

قال: قد صدقت، فسل.

قال: كم فقار ظهرك؟

قال: لا أدري.

قال: أفتحكم بين الناس، وأنت تجهل هذا في نفسك؟!». [1]

ويأتي الدواء أحياناً من الجاهل بالداء، فبدلاً من أن يهنئ يعزي، وبدلاً من أن يحسن يسيء، ويخطئ من حيث أراد الصواب، ويَصِم من حيث أراد أن يُبَرِّئ؛ جهله يخجل من حوله أكثر من أن يخجله، لأنه جاهل لا يدري مدى جرح كلماته، ولا عمق الندوب التي تتركها ألفاظه؛ والقصة الآتية مثال صادق على ذلك:

«دخل أبو عتاب على عمرو بن هدّاب، وقد كفّ بصره، والناس يعزونه. فقال:

يا أبا زيد، لا يسوءنّك ذهابهما، فإنك لو رأيت ثوابهما في ميزانك تمنيت أن الله قطع يديك ورجليك، ودق ظهرك». [2]

أبو عتاب بجهله، وقلة عقله، وبلادة ذهنه، لم

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٧٣.
(٢) عيون الأخبار: ٢/ ٥٧.

يوفق لحسن التعزية، ولم يُجِد تخفيف الألم عن عمرو ابن هداب، وأوقف ذهنه جامداً على أمر وقع عليه، فأخذ يكرر أمر الثواب، ولأن الثواب جميل نسي معه الآلام التي عَرَّض الرجل لها، ولابد أنه تصور أن المريض معجب هو وزواره بهذا القول السخيف، والرأي المبتعد عن الصواب، والذوق المتدني.

ويقل العقل، ويسيطر الجهل أحياناً، فيتصرف المرء مسوقاً بالحمق، فيدخل في الخطأ دون أن يدري، أو لعله يدري، ولكن جهله يهيئ له الخطأ صواباً، والقبح حسناً، ولا يوقظه من سباته، وينبهه من سدرة الجهل، إلا هزة عنيفة، تغير وجهة فكره، فيرى معها ما لم يره قبلها:

«ضجر أعرابي من كثرة العيال، وبلغه أن الوباء بخيبر شديد، فخرج إليه بعياله، يعرضهم للموت، وقال:

قلت لحمّى خيبر استعدّي

هاك عيالي فاجهدي وجدّي

وبـــاكـــري بصــالـــب وورد
أعـــانـــك الله على ذا الجنـــد

فأخذته الحمّى، فمات وبقي عياله». [1]

لقد اجتمع لهذا الرجل مع الحمق والجهل قلةُ الدين، وروح الإجرام، وشذوذ العقل.

ومن الطرائف التي ترد في التراث عن جهل بعض الناس فيما لا يتوقع أن يتطرق إليه الجهل القصة الآتية:

قال أبو الحسن:
جاء قوم إلى رجل من الوجوه، فقالوا له:
مات جارك فلان، فمر لنا بكفن.
فقال: ما عندنا اليوم شيء، ولكن تعودون.
قالوا: أفنملحه إلى أن يتيسر عندك شيء؟!». [2]

وحجاب الخلفاء، وبوابوهم، يأتي بينهم جهلة، وهم يختارون أحياناً على أن تتوفر فيهم هذه الصفة،

---

(١) البصـــائر: ٤/ ٢٠١.
(٢) عيون الأخبار: ٢/ ٧٠.

وتعتبر في عملهم ميزة، لأنهم لا يهمهم ما يقال فيهم، وهم ينفذون الأوامر بدقة متناهية، ولا يهمهم إلا سيدهم، وطاعته طاعة عمياء عندهم، ومن منهم يظهر روح تسامح أو تهاون يتعرض للأذى والعزل. وللمأمون بواب فيه هذه الصفة، وله قصة طريفة تدل على جهله، بشهادة المأمون، وبحكمه عليه، وهو خير من يعرفه، والقصة كما يلي:

«كان أحمد بن يوسف، وناس، يختلفون إلى باب المأمون، فقال البواب يوماً:

يا هؤلاء، كم تقفون هاهنا! اختاروا واحدة من ثلاث: إما ميزتم لوقوفكم ناحية من الباب، وإما نزلتم، فجلستم في المسجد، حتى يدعى بكم.

قالوا: والخصلة الثالثة؟

فما تهيأ له، فقال:

جئتمونا بكلام الزنادقة؟

فدخل أحمد، فحدث المأمون، فضحك المأمون، وأمر للبواب بألف درهم، وقال:

لـولا أنهـا نـادرة جهـل لاستحـق بهـا أكثـر مـن ذلك» .[1]

ويأتي الجهل أحياناً واضحاً في طلب الفتوى، فيكشف السائل عن جهل، خاصة إذا كان الأمر المستفتى عنه ليس مما اعتاد الناس على التعامل فيه، وليس له جانب عملي إلا في الخيال؛ ومن أمثلة ذلك سؤال رجل الشعبِّي: عن أكل الذئاب.

فقال: إن اشتهيت فكله.

أو سؤال آخر له: عن أكل لحم الشيطان.

فقال: ويحك، ويدعُك الشيطان تأكل لحمه؟ إرض منه بالكفاف![2]

لم يرد الشعبي أن يبعد في جوابه عن جواب أبي حنيفة: «يمد أبو حنيفه رجله ولا يبالي»!

والعقل ينقذ الإنسان من الجهل، ويأتي لنجدته، ليضيء البقعة الداكنة في ذهنه، ويقضي على الجزء من

(١) البصـائر: ٧/ ١٠٨.
(٢) البصـائر: ٧/ ١٠٨.

الجهل الذي كان عنده، فعلم المرء وعقله كفيلان بأن لا يدعا للجهل مكاناً، ولهذا لما أدرك أحد العقلاء أنه لا يجيد التعبير عن المطر ونزولهِ، وتراكم سحبه وغيومه، أمده الله بفكر نَيّر حتى يسأل، ويتثقف في هذا الجانب، ويتعب نفسه ويجهدها حتى يصل إلى غايته، وما خيب الله أمله، بل أعطاه ملء كفيه:

«قال الوليد بن سريع، مولى عمر بن حريث:

وجهني الجراح بن عبدالله من العراق إلى سليمان ابن عبدالملك، فخفت أن يسألني عن المطر؛ فإني لأسير بالسماوة إذ أنا بأعرابي من كلب في شملة، فقلت: يا أعرابي هل لك في درهمين؟

قال: إني والله حريص عليها، فما سببها؟

قلت له: تصف لي المطر.

قال: أتعجز أن تقول:

أصابتنا سماء تَعَقَّد منها الثرى، واستأصل منها العِرق، وامتلأت منه الحفر، وقاءت منه الغدران، وكنت في مثل وِجار الضبع حتى وصلت إليك.

فلما قدمت على سليمان، قال:

هل كان من ورائك من غيث؟

فقلت ذلك.

فضحك، وقال: هذا كلام ما أنت بأبي عذره.

فقلت: صدق فوك، يا أمير المؤمنين، اشتريته والله بدرهمين، فضحك، وقال:

أصبت وأحسنت.

فأمر بجائزتي، ثم زادني ألفي درهم مكان الدرهمين». [1]

هذا رجل جَهِل وطلب العلم بالعقل، فأدركه، وفاء عليه بفضل عميم.

ويجتمع العقل والجهل في قصة واحدة، العقل والعلم زرعهما الدين الإسلامي، باشراق نوره، وتلألؤ جوهره؛ والجهل نبت في أيام الجاهلية في رؤوس جوفاء يخيم فيها الغباء، ويعشش فيها عنكبوت الجهل، والقصة يمثلها النص الآتي:

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ١٥٢، قارن هذا بما جاء في «مجالس ثعلب»: ١/ ٢٨٣.

«قال الجاحظ:

لما هدم خالد بن الوليد العزى رمته بالشرر حتى أحرقت عامة فخذه».

وقال الجاحظ:

وما أشك أنه كان للسدنة حيلة وكمين.

ولو رأيت ما للهند من بيوت عباداتهم من هذه المخاريق لعلمت أن الله قد منّ على المسلمين.

وقال صاحب ربيع الأبرار:

وذكر الجاحظ احتيال رهبان كنيسة الرها بمصابيحها، حتى أن زيت قناديلهم يتوقد من غير نار في بعض ليالي أعيادهم»[1].

فلقرون وقرون دَجْلُ سدنةِ العُزَّى يمضى على الناس، ويأخذونه بالقبول، والاندهاش، ولم ييأسوا من بقائها حتى في اللحظة التي لفظت العزى فيها أنفاسها، وجاء خالد على آخر أمل لهم في حياة مصدر رزقهم، وحط دجلهم، ولكن خالد بنور

(١) ربيع الأبرار: ١/ ١٨٢.

الايمان لم يتوان عن القيام بواجبه تجاه تصفية بلاد المسلمين من أصنام الشرك، ونصب الكفر.

والجاحظ بإيمانه أدان ما هو مثل هذه الخرافة، وما معها من خزعبلات سدنة معابد الهند، وكنائس النصارى، والحيل التي يتحصنون خلفها، في تقوية مظهر أديانهم.

والجهل أحياناً يتخذه الكتاب مجالاً للقصص يضعونها، ويتفكهون بها، ويطربون بها الناس، والوضع فيها بين، والتكلف ظاهر، ولكن لطرافتها بقيت، ولم يجهد الناس أنفسهم لنقدها، وإظهار زيفها، ومن هذه القصص القصة التالية:

«عن الأصمعي:

اختصمت الطفاوة، وبنو راسب، في رجل يدعيه الفريقان، إلى ابن عرباض، فقال:

الحكم بينكم أبين من ذلك، يلقى في النهر، فإن طفا فهو لطفاوة، وإن رسب فهو لبني راسب». [1]

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٧١.

والذي جاء بالقصة أوهم أنها حقيقة، وأن الحكم جاهل في حكمه، وقد تموت بسببه نفس، وقد يطفو إن كان راسباً، ويرسب ان كان طفاوياً، فالحكم أساسه ضعيف، لأنه اعتمد على اللفظ، والأمر يحتاج إلى مدلول شرعي، أو على كفيء في علم القيافة.

ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور[1] ، وهناك من نزع الله من صدورهم نور البصيرة، فهم في جهلهم ينتقلون من خطأ إلى خطأ، وينطبق هذا على من صفتهم مثل صفة الرجل الذي وصفه آخر، وكان متدبراً لأمره، فقال:

«كان يغلط في علمه من وجوه أربعة: يسمع غير ما يقال، ويحفظ غير ما يسمع، ويكتب غير ما يحفظ، ويحدث بغير ما يكتب»[2].

وهذا على نقيض ما قال يحيى بن خالد عن أولئك الذين يسيرون بهدي من الله، بنور وبصيرة، وسداد رأي، ورجاحة عقل:

---

(١) سورة النور، الآية: ٤٠.

(٢) عيون الأخبار: ٢/١٤٦.

قال يحيى بن خالد:

«الناس يكتبون أحسن ما يسمعون، ويحفظون أحسن ما يكتبون، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون». [1]

ونختم قولنا عما رأيناه من لفائف الجهل، وما مر بنا من تنوع أخبار الجهلاء، وتعدد شعب الجهل معهم، وهي شعب لا يكاد الحصر يحصيها، بمجلس لمسلمة بن عبدالملك، دار فيه حديث مفيد، ومدح فيه مسلمة علم شخص، مسح جهل آخرين وعبر عن ذلك برسم جميل، وصورة مبتدعة.

«تكلم جماعة من الخطباء عند مسلمة بن عبدالملك، فأسهبوا في القول، ثم اقترح المنطق منهم رجل من أخريات الناس، فجعل لا يخرج من حسن إلا إلى أحسن منه، فقال مسلمة:

ما شبهت كلام هذا بعقب كلام هؤلاء إلا بسحابة لبّدت عجاجا». [2]

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ١٤٦.

(٢) البيان والتبيين: ٢/ ٧٩.

المتنبؤون[1]

مُدَّعو النبوة في الإسلام كثيرون، يخرج المدعي بين آن وآخر، فيدّعي دعواه، ثم لا تفتأ أن تبطل، ويقابل صاحبها جزاء شديد في بعض الأحيان، خفيف في أحيان أخرى.

وردّ دعوى النبي المزيف، وكشفه، سهل في ضوء ما يعرفه المسلم عن دينه، وما يحمله من إيمان ثابت فيه، والمتَنبئ المدعي في المجتمع المسلم المستنير، تزييفه سهل الكشف، ودحض حججه لا تحتاج إلى عناء. والمتنبؤون المزيفون أخف عبأً على السلطة والمجتمع من الملحدين، والمارقين بطريق الشبه، والآراء الدينية الملتوية.

إلا إن دعوى النبوة تنجح في بعض المجتمعات المزدحمة بالسكان، ضحلة الثقافة في الدين، وما

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٣١٦) في: ٢/٦/١٤١٥هـ الموافق: ١٥/١١/١٩٩٤م.

يصاحب ذلك من فقر، وتطلع إلى تحسين المعيشة، مما يستغله المتنبىء، فيلعب على أوتاره؛ وعلى أنغامه يحصل على بعض النجاح؛ ولعل من أخصب الأماكن لهذا الهند، وقد خرج فيها عدة متنبئين، واعتمدوا على حجج وأوهام نجحوا فيها إلى آماد تطول أو تقصر، تتسع رقعتها أو تضيق، ولا غرابة فالهند مكان يعج بالديانات والمذاهب، وتختلط ملامحها على الإنسان العادي، فيدخل عمل عبادي في ديانة إلى ديانة أخرى، وهذا يضيع المعالم، ويسهل قبول الباطل.

ولعل أمر مسيلمة وسجاح هو أول ادعاء للنبوة منذ أن ظهر الإسلام، ولأنه لم يدون عنه في زمنه وثائق مفصلة، يمكن أن يعرف منها الأسس التي قامت عليها الدعوى، فإن ما وصلنا أخبار متقطعة تدينهما بادعاء النبوة، وتوحي بأن ادعاءهما له إطار سياسي يحكمه، وربما هدف اقتصادي يسنده، وهما جانبان مغريان للطامع، خاصة إذا كان رئيس

مجتمع، فذلك تكون دعواه كبرى قياساً على مركزه.

ولعل ما دعاهما إلى ما أقدما عليه ما رأياه من نجاح الإسلام في غرب الجزيرة، ولم الشمل بين قبائلها ومجتمعاتها الحضارية، والاتجاه السلمي والأمني الذي بدأت بوادره تظهر، مما يبشر بازدهار سياسي واقتصادي، وهما أمران يزدهران في ظل الأمن والاستقرار.

وما لدينا عن مسيلمة وسَجَاح نتف مبعثرة، بعضها أشبه بالهزء والسخرية، ولا يتصور أن تصدر من رئيسي قبيلتين مهمتين، ولكن حنق من يقص دعواهما الباطلة يجعله يزوق هذه الحكايات ويروجها. وأمر تركيب الصور الشنيعة على مثل هذين المتنبئين، قد يجد فيه القاص قربى، ويرجو من ورائها الأجر، والمستمع كذلك يستمع مزدرياً فعلهما، ولا يأتي في ذهنه التشكيك في بعض ما يروى.

وقد يكون زواج مسليمة بسجاح صحيحاً، وأنهما أقدما عليه من باب السياسة، وتقوية القبيلتين

إحداهما بالأخرى، وهي خطوة قد تكون مدروسة، ودعا إليها الظرف السياسي، والوضع القبلي؛ إلا أن ما يروى عن حديث بذيء تم بينهما في خلوة ليلة العرس، غير مقبول، ولا يتصور أن يتم بين زوجين ناضجين، هما في منتصف العمر أو نهايته؛ ومن ذا الذي كان حاضراً خلوتهما حتى يروي هذا الشعر الساقط البذيء، المتدني لغة، المتردي خلقا.[1]

وإذا كان ما يروى عن قرآن مسيلمة صحيحاً، وأنه فعلاً قاله، فلعله قاله على سبيل الاستهزاء بالقرآن، ـ كرم الله القرآن ـ ولا يستبعد هذا، فالحنق والعداء يؤدي إلى مثل هذا. أما الجمل التي نطق بها قرآنا له، فهي جمل ساذجة بسيطة، ولا يتوقع أن تصدر من رجل من أصل قبائل العرب، وفي ذلك الزمن، واللغة في قمتها:

يروى أن مسيلمة وضع قرآنا على أثر سماعه بعض آيات القرآن الكريم، فادعى أنه أوحي إليه ما يأتي:

---

(١) انظر مثلاً الكشكول: ٢/ ٣١٠.

«يا ضفدع يا بنت الضفدعين، نقّي أو لا تنقّين، فنصفك في الماء ونصفك في الطين، فلا الطين تأكلين ولا الماء تعكرين».

والروايات تزيد فيها وتنقص، وتحور وتغير، هي وآيات أخرى على نسقها من التردي والهبوط:

«والزارعات زرعاً، والحاصدات حصداً، فالذاريات ذرواً، فالطاحنات طحناً، فالآكلات أكلا». (١)

لعلها إن صح أنه قالها، أو قالها قوم من أهله على لسانه، فإنما هي إعلام هازئ ساخر.

أما ما يمكن أن يقبل أنه حدث، لأنه يتناسب مع دعوى مسيلمة الرامية إلى منازعة الرسول ﷺ حقه، ومنافسته له، لاعتقاده أنه على الأقل مساوٍ له، إن لم يكن عند نفسه وقومه، أعلى مقاماً منه، وأعز جانباً فالخبر الآتي:

---

(١) الكشكول: ٢/ ٣١١.

«كتب مسيلمة الكذاب إلى النبي ﷺ :
من مسيلمة، رسول الله، إلى محمد رسول الله :
أما بعد :
فإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون» .
وبعث بها رجلين . فقال لهما النبي ﷺ أتشهدان أني رسول الله؟
قالا : نعم .
قال : أتشهدان أن مسيلمة رسول الله؟
قالا : نعم، إنه قد أشرك معك .
فقال النبي ﷺ : لولا أن الرسول لا يقتل لضربت أعناقكما .

ثم كتب إليه رسول الله ﷺ :
«من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، أما بعد : ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾» .[1]

---

(١) الكشكول : ٢/ ٣١١ . سورة الأعراف، الآية : ١٢٨ .

مدخل القبول لهذه الرواية أن عناصرها تتفق مع المتوقع في مثل هذا الموقف؛ فمسيلمة يعرف أنه ليس برسول، ولكنه يكسب من وراء كتاب مثل هذا يسير على النهج الدنيوي في الجاهلية، تقاسم المرعى، وتقاسم السلطة، وتقاسم القبائل، ولم يتشبع بالروح الجديدة للإسلام، ولم يكن له أن يطلب أكثر من النصف، لأن غير هذا طمع مرفوض حتى في أيام الجاهلية، وعادات العرب، ولم يكن له أن يطلب أقل من النصف، فعرض مثل هذا فيه ذل، قد يساوَم عليه فيقبل، أما أن يسلم به، ويعرضه، فهذا غير ما جرت به العادة، خاصة وأنه يتكلم، وخلفه قوة، لا يستهان بها في تلك الفترة.

والرسول ﷺ دقيق في معالجته للموقف، سأل الرسول: إن كان يقر برسالته عليه السلام فأقرّ بها، يعني أسلم، ولكنه في جوابه عن رسالة مسيلمة، أشركه مع الرسول ﷺ وهذا يجعل قتله حلالاً، إلا أنه رسول، والرّسول لا يؤذي الرسل الواردة إليه.

ثم جاء جواب الرسول ﷺ على الخطاب قوياً، وحاملاً حكماً من أحكام الإسلام الواضحة، حيال من يملك الأرض، ومن هو مالكها، ولمن يعطيها.

ولعل من أبرز من قيل عن ادعائه النبوة المتنبي، وقد اختلف الناس حول هذا، فبعض رواه، وبعض أنكره، ونفاه عنه، أخذاً من وضع الرواية، واحتمال حسد الحساد، واعتماداً على ما عرف عن المتنبي من عقل لا يتصور أنه ينحدر إلى هذا القاع.

ولعل مما يرجح بطلان الدعوى على المتنبي ما الصق به من قرآن ليس بعيداً عن منحى قرآن مسيلمة، في اتجاهه وأسلوبه وتدنّيه، مما يُرفع عن قوله المتنبي، بما عرف عنه من قوة في الشعر، وحِكَم لا يطاول فيها ولا يجارى؛ ويحكى أنّه عندما تنبّأ عند بني كلب وكلاب، قال أبو علي بن حامد إنه بقي في حفظه منها:

«والنجم السيار، والفلك الدوار، إن الكافر لفي أخطار. أمض على سننك، واقف أثر من قبلك

من المرسلين، فإن الله قامع بك زيغ من ألحد في دينه وضل عن سبيله» .[1]

قارن هذا بقوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ .[2]

وقد جاء متنبؤون كثيرون في زمن العباسيين، وساعدهم تباعد أجزاء الدولة على أن يتنبؤا، ولكن مدد بقاء دعواهم قصيرة في الغالب، وأحياناً تنتهي بموقف طريف يأتون به، أو يؤدي إليه الجدل معهم، واستقصاء أمرهم، وفي كثير من الأحيان يفرج عنهم، وقد رجعوا عن دعواهم في جلسة واحدة أمام القاضي أو الخليفة، ومن هذه المواقف الموقف التالي:

«تنبأ رجل في زمن المنصور، فقال له المنصور: أنت نبي سفلة.

فقال: جعلت فداك كل إنسان يبعث إلى شكله» .[3]

---

(١) نزهة الألباء: ٢٢١-٢٢٢.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩٣.

(٣) ربيع الأبرار: ١/ ٦٧٥.

ـ[1] من رد هذا المتنبئ ـ إذا صحت القصة ـ أنه ذكي، ولو لم يكن كذلك لاتّهم بالجنون قبل أن يصل إلى الخليفة، ومما يلاحظ أنه بجانب رده السريع على كلمة المنصور فإنه كان مؤدباً، فجاء بالجملة الاعتراضية ليمنع الخليفة من أن يطيش قدر غضبه، فيسارع إليه بالعقاب الذي قد يكون القتل، لأن الرد أدخل ضمناً الخليفة في جملة السفلة، ولكن كلمة: جعلت فداك، لينت قساوة الرد، وأثبتت أن الرجل مؤدب رغم دعواه، وعلى كلٍّ هذا الأدب من صفات الأنْبياء عنده!

وقد لوحظ أن بعض هؤلاء المتنبئين ربما دعاهم إلى هذه الدعوى الكاذبة، وأوقفهم هذه المواقف إما الحاجة والعوز، أو الطمع في لفت الأنظار إليهم، وتعطشهم للشهرة، والوقوف تحت سطعة الأنوار، وبريق الحوادث، أو لظلم حلّ بهم، فلم يستطيعوا رفع ثقله عن كاهلهم، ولم يستطيعوا الوصول إلى

(١) ابتداء الجزء الذي زاد عما نشر في «عكاظ».

المسؤول الأعلى، ليشكوا المسؤول الأدنى، الذي جاءهم الظلم منه، فاضطروا أن يركبوا الصعب، لعلهم يصلون إلى نتيجة تريحهم، أو تعيد لهم حقهم المفقود، أو ترفع الظلم الجائر الذي حل بهم، ولعله كان متواصلاً، يتزايد مع مرور الزمن، مما أرخص أمامه الروح.

ومن قصص ادعاء النبوة المشهورة القصة الآتية، ومن مجراها وسيرها، والنتيجة التي انتهى أمر صاحبها إليها نعرف مدى نظرة الناس إليها في ذلك الزمن:

«تنبأ في مدينة أصبهان رجل في زمن أبي الحسين بن سعد، فأتي به، وأحضر العلماء والعظماء والكبراء كلهم، فقيل له: من أنت؟

فقال: أنا نبي مرسل.

فقيل له: ويلك! إن لكل نبي آية، فما آيتك وحجتك؟

فقال: ما معي من الحجج لم يكن لأحد قبلي من الأنبياء والرسل.

فقيل له: اظهرها.

فقال: من كان منكم له زوجة حسناء، أو بنت جميلة، أو أخت صبيحة، فليحضرها إلي أحبلها بابن في ساعة واحدة.

فقال أبو الحسين بن سعد، أما أنا فأشهد أنك رسول، وأعفني من ذلك.

فقال له رجل: نساء ما عندنا، ولكن عندي عنز حسناء، فأحبلها لي.

فقام، يمضي، فقيل له: إلى أين؟

قال: أمضي إلى جبرائيل، وأعرّفه أن هؤلاء يريدون تيساً، ولا حاجة بهم إلى نبي!

فضحكوا منه، وأطلقوه»[1].

تكاد برودة الموقف، وما انتهى إليه الأمر بعد هذا الحوار أن توحي بأن القصة مفتعلة، وغير صحيحة، إلا إذا كان لها بقية من استتابة وتوبة، أو اكتشاف خلل في عقل الرجل، رغم سرعة بديهته في الرد على

(١) معجم الأدباء: ٣/ ٣٩، ترجمة أحمد بن سعد أبو الحسين.

صاحب العنز، وهو رد ذكي من ذهن حاذق.

ومن القصص التي تدلّ على ذكاء في ادعاء النبوة القصة الآتية، وقد أدى إلى ادعاء صاحبها النبوة ظلم حل به، وقد تنبه له الخليفة، وعرف أن وراء النبوة أمراً فادحاً، أجبر المدعي أن يدعي، وأن يعرض نفسه للجزاء العظيم، ولعل ما دل الخليفة على ما اكتشفه هو ذكاء هذا المتنبىء، الذي رغم دعواه إلا إنه خرج منها خروج الشعرة من العجينة:

«تنبأ رجل أيام المأمون فقال: «أنا أحمد النبي».

فحمل إليه فقال له:

أمظلوم أنت فتنصف؟

فقال له: ظلمت في ضيعتي.

فتقدم بإنصافه ثم قال: ما تقول؟

قال: أنا أحمد النبي، فهل تذمه أنت؟»[1].

وهذا الجانب من التنبؤ الكلي تصغر مضرته عند التنبؤ الجزئي، وهو التنبؤ بما يحدث في المستقبل،

---

(١) البصائر: ٦/ ٦١، وربيع الأبرار: ٣/ ٦٥٧.

الذي هو من علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ، والناس يضعفون أمام دجل المنجمين، وادعائهم معرفة المغيب عن طريق النجوم، أو عن طريق قراءة الكف، أو بعمل حسابات وهمية يبنونها على تاريخ الميلاد، وما إلى ذلك من الإيهام؛ لهذا فإن دعوى هؤلاء الناس أخطر، لأنها تتسلل إلى عقيدة الناس، دون أن تجد حارساً يردها.(١)

والمنجمون قد فتحوا أبواباً لقلوب الناس يلجون منها إلى بغيتهم، ويزيد الأمر خطورة إذا ما صادف وحدث حادث يتفق مع نبوءتهم، فإنهم يستغلون ذلك لصالحهم، رغم أن إخفاقهم دائم، إلا أنهم يضللون تجاه هذا الإخفاق. والتنجيم حلّ محل الازلام التي كانت سائدة في الجاهلية، وما كان يأتي من بعض المشهورين في الجاهلية من الدجالين من الكهنة والعرافين.

---

(١) يقول صاحب الكشكول: «قد تستعين النفوس في إحداث التعاليم بمزاولة أعمال مخصوصة وهي السحر، أو بقوى بعض الروحانيات، وهي العزائم، أو بالأجرام الفلكية، وهي دعوة الكواكب، أو بتمزيج القوى السماوية بالأرضية، وهي الطلسمات، أو بالخواص العنصرية وهي النيرنجيات، أو بالنسب الرياضية وهي الحيل.

ومن الحوادث التي تأرجح الناس فيها بين قوي إيمان يرفضها، وضعيف إيمان يصدقها، ويتأثر بها، القصة التالية التي يرويها أبو حيان التوحيدي عن آخرين:

«دخلت على الوزير جهور بن الضيف، وكان القحط قد ألحّ، والغيث قد احتبس، واغتم الناس لذلك.

وتحدث المنجمون بتأخر الغيث مدة طويلة، فوجدتُ عنده ابن عزرا المنجّم، وجماعةً من أصحابه، وقد أقاموا الطالع وعدلوا، وقضوا بتأخير الماء شهراً. فقلت للوزير: إن هذا من أمور الله المغيبة، وأرجو أن يكذبهم الله بفضله.

ثم خرجت عنه، وأتيت داري، فجاء أول الليل والسماء قد تغيّمت، ونمت ساعة، فما أيقظني إلا نزول الماء، فقمت وقربت مني المصباح، ودعوت بالدواة والقلم، فما رفعت يدي حتي نسخت هذه الأبيات.

ثم صابحت بها الوزير، فسرّ بها واستحسنها، وهي:

ما قدر الله هو الغالب
ليس الذي يحسبه الحاسب
قد صدق الله رجاء الورى
وما رجاءٌ عنده خائب[1]

وهي اثنا عشر بيتا، اكتفينا منها بالبيتين الأولين.

وقد قيل في سفه المنجمين ودجلهم شعر كثير، ومما قيل في هذا قول الشاعر:

«علم النجوم على العقول وبال
وطلاب شيء لا ينال وبال
هيهات ما أحد مضى ذو فطنة
يدري متى الأرزاق والآجال
إلا الذي هو فوق سبع سمائه
ولوجهه الإعظام والإجلال»[2]

(١) بهجة المجالس: ٣/ ١١٨.
(٢) بهجة المجالس: ٣/ ١١٥.

(لعل «وبال» في الشطر الأول «خبال»!).

وعندما قال المنجمون للمعتصم إن حساب النجوم لا يبشر بنجاح حملته إلى الروم عندما تحرك بجيوشه إلى عمورية، وفتح الله له أبواب النصر قال الشاعر:

السيف أصدق أنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب

ثم قال:

والعلم في شهب الأرماح لامعة
بين الخميسين لا في السبعة الشهب
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة
ما كان في فلك منها وفي قطب[1]

ويقول المتنبي:

فتبًّا لدين عبيد النجوم
ومن يدّعي أنها تعقل[2]

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ١١٦.
(٢) بهجة المجالس: ٣/ ١١٦.

وقال منصور الفقيه:

قــول المنجــم شيء   دعــا إليــه التــوهّــم
فــلا تصــدّق بشيء   ممــا يقــول المنجــم[1]

ويحكــم على المنجمين بــأنهــم مشركــون أحــد الشعراء فيقول:

إذا كنــت تــزعــم أن النجــوم
تضر وتنفــع مــن تحتهـــا
فــلا تنكــرن على مــن يقــول
بـــأنـــك بـــالله أشركتهـــا[2]

هـذه أقـوال الشعـراء، وهـي أقـوال مستنيرة، ترفض ظلمة الجهل التي يقع فيها بعض ناقصي الإيمان، ولم يكن الشعراء وحدهم في هذا الاعتراض والرفض، والحكم العادل على المنجمين، ولكن هناك من يأتي مثلما أكدت القصة التي رواها أبو حيان عمن حضر مجلس المنجمين وتنبؤهم في احتباس

(١) بهجة المجالس: ٣/ ١١٦.
(٢) بهجة المجالس: ٣/ ١١٧.

المطر، وتكذيب الله لهم، فيؤكد مثله بالمنطق، والحجة الدامغة كذب ما يدعونه، فيقول:

«قال أبو العَنْبَس الصيرمي:

أنا وأخي توأمان، وخرجت أنا وهو من البصرة في يوم واحد، وساعة واحدة؛ ودخلنا سرّ من رأى في يوم واحد، فولي هو القضاء، وصيرت أنا صفعان، فمتى يصح أمر النجوم؟!»[1].

هذا رأي سديد، فإذا كان المنجمون يؤسسون حسابهم على المولد، والخروج لطلب الرزق، والاتجاه وجهة معينة، وفي وقت معين، فابن الصيمري أثبت أن نبوءتهم على هذه الأسس قد أخفقت؛ لأن المقدمات كلها واحدة، وجاءت النتيجة مختلفة كل الاختلاف، فأحد الأخوين نجح والآخر أخفق، والناجح نجاحه عظيم، والمخفق إخفاقه ساحق، فواحد أصبح قاضيا، والثاني مشرداً، أو يكاد.

والناس مغرمون بالتنبؤ بحصول الشيء قبل

---

(١) البصائر: ٦/ ٤٢.

وقوعه، وإذا لم يجدوا أحداً يتنبأ لهم، اخترعوا خبراً يدعون فيه ذلك، وقد يعلقونه على من لا يثبت على مشجبه لقوة إيمانه، فيسقط هذا الخبر لهذا، ويكذب لأن الزمن أثبت أنه لم يحدث ما قالوا أنه سوف يحدث، وقد يكون هذا الخبر المختلق يرمي إلى هدف بعيد عما يبدو بظاهره، ومن أمثلة ذلك الخبر الآتي:

«وعن عبدالله بن عمر (ولعله عبدالله بن عمرو ابن العاص):

إني لأعلم السنة التي تخرجون فيها من مصر:

قيل له: أيخرجنا عدو؟

قال: لا، ولكن نيلكم هذا يغور، فلا تبقى فيه قطرة، حتى يكون فيه الكثبان من الرمل، وتأكل سباع الأرض حيتانه» .[1]

وسواء كان من عُلِّق عليه الخبر عبدالله بن عمر، أو عبدالله بن عمرو بن العاص، وهو الأقرب، فإن أيّاً منهما لا يمكن أن يكون قاله، لأن عقيدتهما

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٢٤٦.

تمنعهما من مثل هذا، وعقلهما أبعد من أن يقبل هذا، بَلْهَ يقوله؛ ولكن يبدو أن هناك هدفاً لإرعاب أهل مصر، أو الخليفة، الذي لابد أن يقلقه هذا لو صَدَّقه، لأن خراج مصر كبير، وهو معتمد على النيل، شريان الحياة هناك، في ذلك الزمن وهذا الزمن.

وها هو النيل يكذب النبوءة، فلا هو جف، ولا ماؤه غار أو نقص، ولا حيتانه انحسر عنها الماء حتى استطاعت سباع الأرض أن تأكلها. وهكذا تأتي النبوءة، وتتوغل في أذهان الناس.

ولعلنا نذكر قصة دعوى وعد الرسول ﷺ للعباس بن عبدالمطلب، بأن الأمر سوف يكون في بنيه إلى يوم القيامة، ولم يبق، بل زال على أيدي التتار، زوالاً لم يعد إليهم بعده، رغم تعكيز الملك الظاهر بيبرس وخلفه لهم، ولكن الرغبة في تأكيد حقهم في الخلافة، في أولها وفي أثنائها، جعل المتنبئ هذا يسارع إلى نحت هذا الخبر من خياله، ويشيعه،

ويجعله على لسان الرسول ﷺ فيتبوأ هذا المنتحل مقعده من النار، كما وعد رسول الله ﷺ: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

ولعل هذه كلها بقايا أيام الجاهلية، لم يستطع بعض الناس التخلص منها، لضعف إيمانهم، أو لأن المروجين لها نشيطون في الترويج لها، والاقناع بها، لاتخاذها مهنة يسترزقون منها، وقد تكون سبباً يوصلهم بالحكام، ويقربهم إليهم.

وتنبؤ الجاهلية جذاب لما يحاك حوله من قصص، وما يقال عنه من حل مشاكل لولا هؤلاء المتنبؤون لسالت دماء، وأهدرت أعراض، وامتهن شرف؛ والخيال الذي يضاف إليها يجعلها مقبولة، لانعدام التوازن الديني الذي يشع على النفوس، فيحرك فيها العقل الذي يرفض هذه الأمور، لأنها تتنافى مع العقل، ومع الدين، وما يوجبه من حماية الأنفس من أن تهان بمثل هذه الخرافات الواضحة.

وقد لجأ بعض المسلمين فيما بعد إلى الاستفادة مما

كان يقال عن المتنبئين في الجاهلية عن أناس امتد بهم الزمن إلى عصر الإسلام، حتى يؤكدوا حقاً نيل، ويحموا ملكاً حِيْزَ: فمعاوية ـ رضي الله عنه ـ عندما أصبح خليفة، قامت أجهزة الإعلام تجلل هذا المنصب وصاحبه، بما يؤكد حقه فيه، ويبعد دعوى المدعين، فكان لِمَا كان سائداً في الجاهلية من النبوءات دور يمكن أن يلعبه إذا أحسن استخدامه، والقصة الآتية مزورة في نظرنا تزويراً واضحاً في هذا المجال، وواضح الهدف السياسي الذي رمت إليه:

يقول صاحب كتاب: «أنباء نجباء الأبناء»:

بلغني أن هنداً بنت عتبة بن ربيعة، وهي أم معاوية، خرجت من مكة تريد الطائف، ومعها معاوية ـ رضي الله عنه ـ صغيراً، فجعلته بين يديها في مركبها، فرآه شيخ من الأعراب، فقال لها:

يا ظعينة، شدي يديك بهذا الطفل، وأكرميه، فإنه سيِّدُ كُرام، وصول أرحام.

فقالت هند: بل ملك همام، كبار عظام،

ضروب هام، ومفيض إنعام.

وبلغني أنها خرجت، وهو طفل، ويده في يدها، فعثر، فقالت له:

قم، فلا انتعشت.

فسمعها أعرابي، فقال لها: مهلاً عليه، فإنه سيسود قومه.

فقالت: ثكلته إن كان لا يسود إلا قومه». [1]

وصاحب البصائر يأتي بالخبر كالتالى:

«قال أبو هريرة:

رأيت هنداً بمكة جالسة كأن وجهها فلقة قمر، وخلفها من عجيزتها مثل الرجل الجالس، ومعاوية صبي يلعب، فمر رجل فنظر إليه، فقال:

إني لأرى غلاماً إن عاش ليسودن قومه.

فقالت هند: إن لم يسد إلا قومه فأماته الله». [2]

لقد حاول واضع الخبر في النص الأول أن يتقن

---

(١) أنباء نجباء الأبناء: ٨٦-٨٧.

(٢) البصائر: ٦/ ١١٥.

أسلوب المتنبئين في الجاهلية، مع إن الملاحظة لم تأت من عراف حتى يحتاج الأمر إلى سجع كما هي العادة، وإنما جاءت من عابر سبيل، قرأ في صفحة حياة معاوية المقبلة أن له مستقبل رئاسة. فهذا أول عنصر خان الراوي وفضحه.

ونساء قريش في الجاهلية لم يكن يحلمن بأكثر من أن يسود الرجل قومه، أو يبز أقرانه بكرمه، أو شجاعته أو مروءته، وحسن جاهه، ولهذا فتطلع هند إلى شيء أكثر من هذا أمر ناب فضح الراوي مرة أخرى.

ومجيء النص مروياً بعدة صور، مرة ومعاوية مع هند في الهودج، وابتداء الرجل الحديث ابتداء، وفي الخبر الثاني استفز رجل آخر سخط هند على معاوية عندما عثر، يؤكد أن الهدف هو تأكيد نبوة مَا بما ينتظره.

أما الخبر الثالث، فكان صاحبه حريصاً على أن يدفع المسمار في الخشبة حتى النهاية ـ كما يقول

المثل، فنسب الخبر لصحابي جليل، ليلبسه ثوب الثقة والثبات، ولم ينس أن يحشر وصفاً لعجيزة هند التي اشتهرت بعظمها، حتى أن ابنها بُكِّتَ بها وعيّر[1] ، وإنه وإن كان وصف العجيزة بالضخامة والكبر في ذلك الزمن للمرأة مدح، فإن أبا هريرة ـ رضي الله عنه ـ أبعد من أن يتكلف إدخالها في الخبر.

هذا وإيمان أبي هريرة فوق هذا الجهل المطبق، ولعله لو سمع بمن يروي هذا الخبر، لتتبعه وخنقه!

ومعول صغير نراه في آخر كلام هند، فهي تدعو الله أن يعدمها ابنها أو يميته إن لم ينل المركز الذي هي تريده لها، ولا نظن أما تدعو الله أن يميت وليدها، لأنه لم يصل إلى نهاية الشرف، إلا إذا كان هذا في لحظة حنق عليه، فهي تدعو بما لا تعنيه، ولم يأت معاوية بعمل يدعو إلى الحنق.

وليست هذه هي النبوءة الوحيدة عن هند بنت عتبة، فهناك نبوءة أعظم، طلبت لتبرئة هند في

(١) العقد الفريد: ١/ ٥٣-٥٤، انظر ما يأتي: ٢٤٧.

مكان بعيد عن مكة، وشدت لها الركبان، وقطعت لها البراري والقفار، وتخللها الخوف والرجاء، واستعمل لها العقل والحيلة، ولعب في القصة الخيال، وسرح في آفاق بعيدة، وتفنن في رسمه الرواة حتى جاء بصورته الجذابة، وأصبح من أعمال العرافين المبدعة، ولِمَ لا، وهند بنت أحد رجال قريش العظام، والعراف أحد أشهر العرافين إن لم يكن أشهرهم، وهو الكاهن «شق»، ولم يكن هناك من يعدله إلا «سطيح»، وهو في الشمال، وشق في الجنوب، وبهما انقطعت الكهانة لظهور الإسلام، ويقال إن سطيح مات يوم ولد النبي ﷺ.

وقصة هند مع الكاهن شق تتلخص في أن زوج هند، وكان قد تزوجها قبل أبي سفيان، شك يوماً في عفتها واستقامتها، وكان لابد من التحقق، ولم يكن لديهم حينئذ إلا حكم الكاهن، الذي يقال إن له قريناً من الجن يساعده على كشف المعمّى، ومعرفة ما غيب من الأمور.

فشد عتبة، والد هند، الرحال مع ابنته إلى اليمن، حيث يقيم «شق» الذي وصف بأنه شق رجل، وليس رجلاً كاملاً، ولم تكن الرحلة مريحة لهند، لما كان يخامرها من شك في مقدرة الكاهن على كشف الحقيقة، وأقلقها هذا الهاجس في نفسها. وأخذ يتجهم ويتضخم، وتتضخم معه عواقبه، فمستقبلها وشرفها يتوقف على كلمة ينبس بها هذا الكاهن البشر، الذي يمكن أن يصيب أو يخطئ.

ولما أصبحوا على مقربة من نهاية رحلتهم، لم تصبر هند على ما أثقل صدرها، فصارحت أباها، وكشفت له عما يخالجها من خوف، فطمأنها والدها بأنه قد أعد للأمر عدته، وأنه سوف يقوم بعمل يكشف مقدرة «شق» على معرفة الحقيقة أو الجهل بها، وأنه قد خبأ حبة قمح في مكان لا يمكن أن يعرفه إلا من يعرف دخائل الأمور.

وقد جرت العادة أن يمتَحِن القادم إلى العراف أو الكاهن مقدِرَته على كشف الأسرار، ومن عادة

الكاهن أن يكون جوابه سجعاً، وفي هذا تأثير بالغ، ويلعب الخيال في الروايات التي تروى في هذا المجال دوراً كبيراً، ولعل للسجع فضل في بقاء صورة ما حدث أو أُلِّف مقاوماً للزمن حتى وصل إلينا.[1]

وعندما وصل الركب إلى حيث يقيم شق، امتحن والدها عتبة الكاهن، عن الشيء الذي خبأه، وأين خبأه، فيقال إن الكاهن أخبره بالشيء ومكانه ووقته؛ وكانت هذه هي الخطوة الممهدة لعرض الأمر الذي جاء المكيّون من أجله، وقد برأ الكاهن هنداً من التهمة التي رماها بها زوجها، وطهر سمعتها، وصان شرفها، وعادت مع أبيها إلى وطنها رافعة الرأس، بيضاء الإزار.

وأسقطت زوجها من حياتها، ثم ما لبثت أن تزوجت أبا سفيان، وانجبت منه أولاده الذين دخلوا التاريخ الإسلامي من باب واسع.

---

(١) انظر مثلاً «الأمالي: ٢/ ٢٩٠» ففيها نموذج واف من سجع الكهان، واختبار مقدرتهم.

إذاً لا غرابة أن يتابع المغرمون بالنبوءات هنداً وأولادها بما يجعل روح الجاهلية تترسب في بعض النفوس إلى عصر الإسلام.

واستدرار النبوءات لم يقتصر على طلبها عن المتنبئين والعرافين، بل تعدى ذلك إلى طلبها من الطير والجماد، سواء جاء ذلك عن طريق هؤلاء العرافين والكهان، أو الأخذ منها مباشرة.

وهذا أمر يري إلى أي مدى انحدرت العقول في ذلك الزمن المظلم، الخالي من إشعاع العلم الذي يحرك العقل، ويقدح زنده، فيلمع الحق والصدق والمنطق في جنباته، وكان في تصرف العرب في الجاهلية مع الأزلام، وزجر الطير استهانة بعقولهم، وطعناً في كرامتهم التي ينسونها إلا قليل منهم ممن رجح عقله، ووهب الله له من البصيرة ما فتح له نافذة يطل منها، فيرى الحق حقاً، ويبتعد عن السفه الذي كان معاصروه غارقون فيه، مما أدى إلى أن يكونوا طوع هذه الوسائل، توجههم حيث جاءت

الصدفة، فإن طار الطير من الجهة اليمنى، عزموا ومشوا، وإن أخذ الجهة اليسرى فهذه علامة الشؤم إن سافروا.

ومن إشعاع العقل عند بعضهم، وسطوع نوره القصة الآتية:

«قال الأصمعي: حدثني سعيد بن سلم بن قتيبة عن أبيه، أنه كان يعجب ممن يصدّق بالطيرة، وكان يعيبها أشد العيب، وقال:

فَرَقَت لنا ناقة، وأنا بالطفّ، فركبت على أثرها فلقيني هانئ بن عتبة من بني وائل يركض وهو يقول:

«والشرّ يلقى مُطالع الأَكَم».

ثم لقيني رجل آخر من الحَي فقال، وهو للبيد:

ولئن بعثت لهم بُغا ة ما البغاة بواجدينا

ثم دفعت إلى غلام قد وقع في صغره في نار، فأحرقته، فقبح وجهه وفسد. فقلت له:

هل ذكرت من ناقة فارق؟

قال: ههنا أهل بيت من الأعراب فانظر.

فوجدناها قد نُتجت، ومعها ولدها». [1]

هذا رجل خالف ما عليه قومه، فالأقوال التي مرت به كلها توحي إليه بأنه لا داعي لأن يتعب نفسه بالبحث عن ناقته، لأنه لن يجدها، ووجه الصبي بما فيه من عاهة تضيف تحذيراً مع تحذير الأقوال، إلا أن هذا لم يثن من عزم الرجل، بل إن هذا الصبي الذي يعتبره قوم مؤكداً للشؤم الذي يؤدي إلى عدم قضاء الحاجة، أصبح هو الدليل الذي بسبب توجيهه وصل الرجل إلى حيث ناقته، بل إن الناقة أصبحت ناقتين، فبدل الشؤم حلت البركة.

وهذا لأن الإسلام بنوره قد أزال ظلمة الجهل، فشع الضياء في أركان الأنفس وجنباتها، ولم يعد في طياتها ما يوجب الشك، وإن وجد فإن هناك ما هو كفيل بالقضاء عليه من أمثال هذا السراج الساطع النور:

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢٣١.

قال عكرمة :

كنا جلوساً عند ابن عمر وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فمرّ طائر يصيح ، فقال رجل من القوم :

خير خير !

فقال ابن عباس : لا خير ولا شر .

قال كعب لابن عباس : ما تقول في الطير؟

قال : وما عسيت أن أقول فيها؟ لا طير إلا طير الله، ولا خير إلا خير الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله . (١)

وإذا كان الناس ذووا العقول الناقصة ، والأفهام الملتوية، يستشيرون الجماد، ويتصرفون حسب ما يأتي صدفة من الطير ، فلا غرابة أن يطمع إنسان في أن يُقبل إذا ادعى النبوة، وجاء ببعض الخوارق السحرية؛ فالرجل بما قد يكن عليه من الذكاء قد لا يخاطب إلا من يعرف أنه يقبل منه ، ويطمئن إلى أنه سوف لا يناقشه، أو يتعبه بالاعتراضات ،

---

(١) عيون الأخبار : ١/ ٢٣٣ .

وأسئلة الشك، وتنبيه الآخرين، وإنما سوف يتأثر تأثراً بالغاً، ويخضع لذلك خضوعاً تاماً، يكون فيه قدوة لغيره، مما يجعل مهمة المشعوذ تخف قليلاً.

ونعود مرة أخرى إلى أخبار مدعي النبوة، وما سجل عنهم في التراث، فنجد أحياناً عند التبصر أنه قد لا يكون هناك متنبئ، وإنما هي فكرة نبتت في رأس أديب أو كاتب، أوحت بها جملة تصلح حجة لادعاء النبوة، فصيغت على أنها جاءت على لسان متنبئ، لا وجود له في الحقيقة، ولكن القصة إلى حد ما متكاملة العناصر، مثل القصة الآتية:

«تنبأ رجل، فطولب بالعلامة، فقال:
أُنَبِّئُكم بما في نفوسكم.
قالوا: فما في نفوسنا؟
قال: أني لست بنبي». (١)

لا يقبل مثل هذا الادعاء من الراوي، إلا إذا كان هذا المدعي مثل المدعي في زمن المأمون، جاء بالادعاء

---

(١) ربيع الأبرار: ٦٥٦.

وسيلة توصله إلى مجلس الخليفة، ليعرض مظلمة، أو ليُدلي بشكوى، لأنه لم يجد وسيلة للوصول إلى الخليفة إلا عن طريق عمل كبير يرتكبه أو يدعيه مما يمس الدين أو الدولة، وهما الإمران اللذان لا يقتنع الخليفة بأن يعالج ما يأتي عنهما إلا هو، لأهمية تأثير ذلك على عقيدة الناس فيما يخص الدين، ويهدد أمن البلاد فيما يخص هيبة الدولة وكرامتها.

ولم تزد القصة عما ورد من قول مدعي النبوة هذا، ولم تذكر شيئاً عن مظلمة أو غيرها مما يجعلنا نرجح أن الفكرة أغرت الكاتب في أن يصوغ القصة عليها، ويجعلها محوراً تدور عليه، وهي بلاشك طريفة في حدود ما قصد منها.

وهذه وأمثالها تكشف مصدر متح الأدباء أفكارهم مما يدور في المجتمع، ووضع قصصٍ تُصَوِّر ذلك المجتمع تصويراً يتفق مع روح الواقع، وما يدور بين الناس؛ وقد لا يغري الأديب تدوين الحوادث الحقيقة، لنقص بعض عناصر التشويق، أو الخوف

من معاصر، ممن تلمسهم هذه الحوادث، فيعمد إلى ابتداع قصة يحملها مغزى القصة الحقيقية؛ أو تعن فكرة مثل فكرة المتنبى في ذهنه، فيراها سانحة للاقتناص، فيقتنصها ويهيئها لنا ناضجة، قد آتت أكلها.

ولعل فكرة القصة الحديثة التي تصور ما قد يحدث في المجتمع، وهي خيال، والكاتب لا يخفي هذا، والقارئ يعرفه جيداً، جاءت امتداداً لتلك المحاولات في تلك العصور، وتطوراً مرّ بمراحل حتى أخذ الصورة التي نراها؛ وتشعبت القصة إلى قصة قصيرة، وقصة طويلة، ورواية، ومسرحية، وما إلى ذلك، وأصبح لها هيكل ثابت إلى حد ما، يسير معه الكاتب، كما يسير منفذ البناء على مخطط يضعه مهندس قدير، و تتفق فيه المباني كلها في الأسس، وتختلف في التفاصيل والأهداف.

وقبل ختام هذه الكلمة نود أن نلتفت التفاتة خاطفة إلى أناس يقتربون أحياناً في بعض دعواهم

من مدعي النبوة، لأنهم يدعون كشف المغيب الذي لا يعرفه إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ مما أكده الله سبحانه في كتابه، وعلى لسان نبيه، بحيث لم يبق لمدع حجة يقدمها أمام دعواه، أو مبرر لمخالفة ما هو واضح في الشرع وضوح الشمس في رابعة النهار.

وعلى هذا فبعض الصوفية لا يقفون عند حد الانقطاع للعبادة، وأكل القليل المتواضع، ولبس الصوف والخشن من الثياب، والنوم في العراء، والتعرض للحر والبرد، ولكن بعضهم يحاول أن يدعي ما لا يكون لبشر، فيدعي أنه يعرف ما سيأتي دون علامة معتادة متاحة للناس أجمعين؛ وقد يدعي قلب بعض المعادن بمجرد لمسها، وتحويلها من معدن خسيس إلى معدن نفيس، وقد يأتي ببعض الشعوذة، التي يلج منها إلى نفوس الناس البلهاء، وضعاف العقول والإيمان، فيكون لتأثيره عليهم، وكثرة روايتهم ما رأوه، والإضافة إليه، رغبة في الاقناع، ما يزيد من مريديهم، والمصدقين لهم.

وفي المجتمعات أناس عطشى إلى الغموض، والروحانية المبهمة، فيكون هؤلاء هم الضحايا، يسقطون في أول المعترك.

وهؤلاء هم المتنبؤون بفئاتهم، وهؤلاء هم الزاجرون للطير بأنواعهم، والمستنطقون وهما للنجوم، المستحلبون لتأثيرها، وهؤلاء هم المشعوذون «المتدروشون».

إحتيال واحتيال[1]

كتبت من قبل عن الاحتيال، وقلت من منا لا يحتال؟ وجئت بأمثلة تدل على أن جزءاً كبيراً من عمل اليوم عندنا احتيال: احتيال على طلب الرزق واصطياده، واحتيال على التغلب على الصعوبات، واحتيال على دفع الأذى، واحتيال على جلب المنفعة. وجئت بأمثلة من التراث، فيها صور من الاحتيال بأنواعه المختلفة، منها المؤلم المبكي، ومنها المفرح المطرب، ومنها الغريب المدهش، ومنها المعتاد، ولكنه حظي بالتدوين.[2]

وأمثلة الاحتيال بأنواعه، وقصصه المدونة لا تنتهي، فأنت لا تكاد تقرأ كتاباً من كتب الأولين من آبائنا وأجدادنا إلا وتطل عليك حيلة من الحيل الملفتة للنظر، ولا يستطيع المرء مقاومة الوقوف عندها، وتملّي جوانبها وطبيعتها، والغوص على ما في نفسِ

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٣٢٣) في: ١٤١٥/٦/٩هـ الموافق: ١٩٩٤/١١/١٢م.

(٢) إطلالة على التراث: ٣/ ٦٢.

مَنْ احتال، أو احتيل عليه، ثم لا يفتأ المرء أن يجد فائدة نقلها وتسجيلها، ثم لا يجد أن له الحق أن يتفرد بالمتعة فيها، ولكنه يشعر بشعور ملح في اشراك غيره فيما أعجبه.

وقد تجمع لديّ منذ أن كتبت المقالة السابقة عدد من هذه الحيل، التي تمثل جوانب متعددة من الحياة، وتكشف عن أمور نفسية تدخلت في تكوين الصورة التي تمت بها الحيلة.

وكل واحدة من هذه القصص تمثل جانباً مستقلاً قد لا يشاركها في طبيعته إلا القليل من الحيل، وسبب ذلك أن الحيل يمليها الظرف والحال، وإن كان بعضها يخطط له، ولكنه حتى عند التخطيط يخضع لقواعد الحيلة وطبيعتها.

والحيلة غالباً ما تأتي عن ذكاء، وعن عقل يستطيع أن يسير في خطواتها بما يوصل إلى النتيجة المطلوبة، وقد يكون من سيقت عليه الحيلة ذكياً، فيكشف الحيلة منذ بدء صاحبها في بيعها عليه، ولكن

طرافتها أحياناً تشفع في التغاضي، والايهام بأن من احتيل عليه لم يكتشف أنها حيلة، فيتغابى وليس غبياً، ويتسامح كرماً وجوداً.

ولم يكتف الأدباء القدامى في تسجيل حيل الناس بل أحياناً جاؤا بحيل الحيوانات، ومنها ما هو مقبول، لأنه يتماشى مع الغريزة التي وضعها الله في الحيوان، ضماناً لتكاثره وبقائه، وبعضها متخيلاً، ويكون قابلاً للتصديق أو التكذيب، أو يتأرجح بينهما مائلاً إلى إحدى الصفتين.

ومن الحيل الطريفة حيلة لجأ إليها صحابيّ جليل، أراد بها أن يصل إلى ما لم يصل إليه بالقول المباشر، والوعظ المواجه، وكانت الحيلة منه إلى زوجته، وكان يبدي وجهة نظره في ذهابها إلى المسجد، وكان يريدها أن تكتفي بالصلاة في البيت، وهذا هو الأوفق لها وهي امرأة، ولكنها لم تقتنع بما قاله، واستمرت في ذهابها إلى المسجد، فأجرى حيلته مجراها، فآتت أكلها، وأوقفت زوجته الذهاب إلى المسجد،

مقتنعة بأن ذلك هو الأفضل، والقصة كالآتي مأخوذة من حديث طويل عن عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل، التي كانت زوجة لعبدالله بن أبي بكر، فلما مات تزوجها الخليفة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فلما مات تزوجها الزبير بن العوام:

«ثم تزوجها الزبير بعد عمر، وقد خلا سنها، (كبرت) فكانت تخرج بالليل إلى المسجد، ولها عجيزة ضخمة؛

فقال لها الزبير: لا تخرجي.

فقالت: لا أزال أخرج أو تمنعني.

وكان يكره أن يمنعها لقول النبي ﷺ «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله».

فقعد لها الزبير متنكراً في ظلمة الليل، فلما مرت به قرص عجيزتها، فكانت لا تخرج بعد ذلك.

فقال لها: ما لك لا تخرجين؟

فقالت: كنت أخرج والناس ناس، وقد فسد الناس، فَبَيتي أوسع لي». [١]

(١) عيون الأخبار: ٤/ ١١٢.

لقد أجاد الزبير ـ رحمه الله ـ الحيلة، وأقام أركانها على ما ظهر له من عفة زوجته، وعلى تغير مجتمع المدينة، وهو ما كان سبباً وراء إجفاله من ذهابها إلى المسجد، وعلى مدخل الأذى الذي يتصوره. وكان الزبير بارعاً في إنفاذ هذه التمثيلية، إخراجاً وتمثيلاً، واختار وقت العتمة مسرحاً للعبته هذه؛ فخرج منها مملوء اليدين بالنتيجة التي أرادها، والهدف الذي سعى إليه.

وما دمنا في مجال الحيل على النساء، فهناك حيلة سيقت أيضاً إلى امرأة في وقت متأخر عن زمن الزبير وعاتكة، وتمت مع عاتكة أخرى، وزوجة للخليفة عبدالملك بن مروان؛ وإذا كان للقصة الأولى هدف رأينا القصد فيه، وأسلوب رأينا السير فيه، فالهدف في القصة الآتية مختلف، والمسرح مختلف، وعدد الأشخاص عليه زاد عن اثنين:

«تغيظت عاتكة بنت يزيد بن معاوية على عبدالملك، وكانت امرأته، وكان من أشد الناس حباً لها،

فحجبته، وأغلقت بابها عليه؛ فشق ذلك عليه، وشكاه إلى خاصته، وأعيته الحيل فيها، وفي رضاها عنه.

فقال له عمرو بن هلال، وكان خصيصاً بيزيد ومعاوية: ما لي عندك إن رَضِيَت؟

قال: حكمك.

فأتى بابها، فخرجت إليه مولياتها ونساؤها، فقال:

قد عَرَفت الحُرَّة مكاني من أمير المؤمنين، وقد وقع لي ما لابد من أن أفزع إليها فيه: قتل أحد ابني الآخر، وأراد الخليفة قتل الآخر به، وأنا الولي، وقد عفوت، وهو لا يسمع قولي؛ وقد رجوت أن يحيي الله ابني على يديها.

فقالت: فما أصنع مع غضبي عليه؟

فلم يزلن بها حتى خرجت إليه، وأخذت برجله فقبلتها.

فقال: هو لك. ولم يبرحا حتى اصطلحا.

وقال لعمرو: حكمك؟

قال: مزرعة بعبيدها وما فيها، وألف دينار، وفرائض لولدي، وأهل بيتي.

فقال: ذلك لك». [1]

لقد نجح عمرو في حيلته، ووصل إلى مقصوده، بنصب فخ أحسن وضعه، اعتمد له العاطفة أساساً، ونشد له الشفقة والرحمة سياجاً، وكانت الفكرة مأخوذة من غور بعيد القاع، لا يتصور أن تصل عاتكة إلى كشف مُخَبَّئِه، أو كشف مستوره، ولقد كان بالإمكان أن يرجح تأبِّي عاتكة في أن تهدم جدار الجفوة الذي أقامته بينها وبين الخليفة، لولا أن عمراً تابع ترقيق قلبها، وشحذ حنانها وعطفها، بتأثيره على من حولها من رصيفات ووصيفات، وقد نجح لأنه تابع الأمر، وأجاد التمثيل، فأوصد أي باب للشك فيما أتى به، أو الريبة في الهدف.

وتتعقد الحيلة، وتأخذ مجرى طريفاً، يلجأ إليه

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٨٠٢.

رجل لم يبق له من الحيلة إلا ذهنه، فيحتال به ليصل إلى إشباع هوايته، وعدم قطع عادة أراد من حوله أن يقطعوها؛ والقصة عن ابن جدعان، الكريم المشهور، وهي كالآتي:

«لما كبر عبدالله بن جدعان أخذ بنو تيم على يده، ومنعوه أن يعطي ماله، فإذا أتاه السائل قال: ادن مني، فيلطم وجهه، ثم يقول: إذهب فاطلب لطمتك، أو ترضى منها.

فيطالبه الرجل بلطمته، فترضيه بنو تيم من ماله.

وذلك عنى ابن قيس الرقيات بقوله في قصيدة يذكر فيها سادات قريش:

والـذي إن أشـار نحـوك لطمـا

تبـع اللطـم نـائـل وعطـاء[1]

وهواية ابن جدعان في الكرم يبدو أنها كبرت معه، مما جعل من حوله يخشى أن تأتي على ماله،

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٥٢٨، عيون الأخبار: ١/ ٤٥٨.

فاتخذوا ما اتخذوا رحمة به، وإبقاء على ماله، ولكنه لم يَرَ لهم ذلك، وأوصله تفكيره المنطلق من حبه للكرم، أن يقدم على هذه الحيلة المبتدعة؛ ومما يدل على قوتها، وتوفيقه في اللجوء إليها أنها آتت ثمرتها، وأوصلته إلى غايته، وأفردته بذكر لم يصل إليه غيره من قبل ولا من بعد، والفكرة تأتي من ذهن صاف، مرتكنة على عاطفة قوية، وعادة متمكنة، عاشها المرء سنين وسنين، مآلها النجاح، وزكاء الثمرة.

والجوع وألمه، والرغبة في الشبع، مما يغري أحياناً بالاحتيال، وهو أمر مقدر، يعذر فيه صاحبه؛ لأن الجوع كما يقال كافر، فهو لا يرحم، ولهذا فلا بد من مقابلته بالحرب، والحرب خدعة، والخدعة قد تأتي بصورة حيلة.

هناك قصة تروى في إحدى مدن القصيم في نجد، وهي أن رجلاً اتفق مع آخر على أن يقوم هو ومن يرى مساعدته بإنجاز عمل حدده، مما قد يأخذ يومين أو ثلاثة؛ وكانت العادة أن صاحب العمل يقوم بتقديم

وجبة رئيسة لهم، ماداموا يعملون عنده من شروق الشمس إلى غروبها. وكان العاملون إثنين، فأرسلت الزوجة التي عليها إعداد الطعام طفلها تسألهم عن عددهم، فقال أحدهم: أنا ومحمد، وأخي وعلي، فمجموعنا أربعة، ولم يَصْدق ولم يَكْذِب، فاسمه هو محمد واسم أخيه عليّ، وهكذا حَظِي بعشاء أربعة!!

وهناك قصة في التراث لا تبعد في هدفها عن هذه، وتقترب منها في مجراها كثيراً، وكان فكر المنفذ يجري في مجرى واحد مع صاحب القصة الأولى:

«توفي رجل من بني عجل، فبني على قبره بناء، وكان يضاف عند قبره الأضياف، فإذا جاء الليل جاء رجل من أهل العجلي، فنظر كم ثَمَّ من ضيف، فجاءهم من النزل على قدر ذلك.

فمر رجل من بني ذهل، فجاء الرجل الموكّل بالأضياف، وقد جاء الليل، فلما رآه الذهلي نزع قلنسوته، فوضعها على ركبته وقال:

قم يا عمروا!

فذهب الرجل فجاء بنزل رجلين، فقال فيهم الشاعر:

إذا أنفذ الذهلِيّ ما في جرابه
تلَفّت هل يلقى برابية قبرا
فإن قيل قبر من لجيم ببلدة
أناخ وسمَّى رأس ركبته عمرا[1]

وتستمر الحيل تتوالَى بتوالي أنواعها، وتتلون بلون ظروفها، وتصور عقول من يحبكها ويحيكها، فتأتي متقنة مجدية.

ـ[2] وتأتي الحيلة أحياناً من باب الاضطرار، ويجبر الإنسان عليها ليحمي عقيدته، أو ليبقي رأسه على كتفيه، ولا مناص له إلا أن يُعمِل عقله بحيلة يخرج منها من المأزق بسلام، وهذا هو وقت الاستفادة من العقل، أكثر من أي وقت آخر، لأن العقيدة غالية، والحياة مثلها لا يرخصها من يستطيع صيانتها،

---

(١) من اسمه عمرو: ٦٢.
(٢) من هنا يبدأ جزء لم ينشر في «عكاظ».

والإبقاء عليها. وفي القصة الآتية حيلة تمثل هذا القول، وهي على بساطتها بارعة متقنة، نفذت بعبقرية متناهية:

يقول صاحب أخبار الظراف:

«بلغنا أن رجلين سعيا بمؤمن إلى فرعون ليقتله، فأحضرهم فرعون، فقال للساعين:

من ربكما؟

قالا: أنت.

فقال: من ربك؟

فقال: ربي ربهما.

فقال لهما فرعون: سعيتما برجل على ديني لأقتله، فقتلهما.»[1]

وسواء أصحت هذه القصة، أو لم تصح عند من يرى أن اللغة العربية قد تسمح بهذا، ولكن اللغة الفرعونية قد لا تسمح، ومدخل الطعن أن زمن فرعون بعيد على مثل هذه القصة أن تخترق الزمن؛

---

(١) أخبار الظراف: ٩٣.

والرجلان يستبعد أن يستسلما بهذه السهولة، دون أن يوضحا ويناكفا.

على أي حال هي قصة لحيلة طريفة تستحق أن يوقف عندها، وأن تعطى من الوقت ما استحقته.

ويلاحظ أن الأمر كله يرتكز على ترتيب الجمل في الجدل، ولكن النتيجة التي جاءت من ذلك كبيرة، فيها إدانة، وفيها براءة.

ويستعمل شخص عقله في أن يستفيد من عمل مبرور، اعتماداً على قول مأثور، ويقدمه أمام غرضه حيلة ينجح فيها بسهولة، لأن هدفه نبيل، وقصده شريف، فيه خير له، وخير لمن أجريت عليه الحيلة، والقصة تجري في كتب التراث هكذا.

«قال عبدالله بن الزبير الحميدي الأسدي من أعلام الحديث، وهو شيخ البخاري:

«كنا عند سفيان بن عيينة، فحدث بحديث زمزم: أنه لما شرب له، فقام رجل من المجلس، ثم عاد، فقال له: يا أبا محمد، أليس الذي حدثتنا في

زمزم صحيحاً؟

فقال: نعم.

قال: فإني قد شربت الآن دلواً من زمزم على أنك تحدثني بمئة حديث.

فقال سفيان: اقعد؛ فحدثه بمئة حديث». [1]

فهذا مدخل على سفيان احتال في أن يلجه هذا الرجل، ودار على الحديث دورة مغايرة لما يفهم عادة من الحديث، وهو أن ماء زمزم، يشفي، بإذن الله، مما قد يكون هناك من داء، إلا أن كلمات الحديث لا تخرج عما رمى إليه الرجل، ولهذا، إن صح الخبر، فسفيان استجاب.

والحيلة على عالم مثل سفيان، في الحصول على برّ أمر مقبول، وتنسى الوسيلة، وما قد تحتوي عليه، ولكن حيلة أخرى أجريت على عالم جليل، لم تأت بنفع، غير مقبولة؛ والغريب فيها أن الخدعة جاءت من امرأة مجهولة، وسلطت على الإمام أبي حنيفة،

---

(١) أخبار الظراف: ١٤٢.

والذي يرويها هو أبو حنيفة نفسه:

«قال أبو حنيفة:

خدعتني امرأة أشارت إلى كيس مطروح في الطريق، فتوهمت أنه لها، فحملته إليها، فقالت: احتفظ به حتى يجيء صاحبه» .[1]

والقصة التالية فيها شبه حيلة، لأن يونس بن عبيد، كما يبدو، كان حريصاً على أن يستقبله ابن سيرين، ولكنه يعرف أن ابن سيرين ليس حريصاً على ذلك، فاستعد بما يجعل ابن سيرين يستقبله، ولكنه أراد أن يتأكد من سوء ظنه به، وقد ثبت ما ظنه فيه، وهذه هي القصة:

«قال يونس بن عبيد:

أتيت ابن سيرين يوماً، ومعي خبيص، فقلت:

قولوا له: يونس بالباب.

فقال، وأنا اسمع: قولوا له قد نام.

فقلت: إن معي خبيصاً.

(١) أخبار الظراف: ١٧٤.

قال: كما أنت، حتى أخرج إليك» .[1]

والحاكم يضطر أن يحتال أمام الأمر الغامض المبهم، ليكشف ما وراءه، ويعرف خفي سره، حتى تتبين الحقوق، ويحمي الناس من الاعتداء والأذى؛ والحيلة في هذا المجال وسيلة مهمة، وتحتاج إلى ذكاء خارق، حتى تؤدي الغرض منها بالسرعة المطلوبة، وبالصورة المبتغاة، وقد مر بسليمان بن داوود ـ عليهما السلام ـ موقف احتال أمامه بحيلة بارعة، ما لبثت أن كشفت له المعمى فيه، وأبانت ما كان قد أخفي عنوة وإصراراً، وهذه هي القصة:

«قال محمد بن كعب القرطبي:

جاء رجل إلى سليمان بن داوود ـ عليه السلام ـ فقال:

يا نبي الله، إن لي جيراناً سرقوا أوزتي.

فنادى: الصلاة جامعة.

ثم خطبهم، فقال في خطبته:

(١) بهجة المجالس: ١/ ٢٨٢، عيون الأخبار: ٣/ ٤٨.

«وأحدكم يسرق إوزة جاره، ثم يدخل المسجد والريش على رأسه».

فمسح رجل على رأسه.

فقال سليمان: خذوه، فهو صاحبكم».[1]

لقد بنى سليمان ـ عليه السلام ـ حيلته على أساس نفسي لم يخنه، وجاء له بالنتيجة التي قصد إليها، وجمع الناس من أجل تنفيذها، وقد تم له بهذا ما أراد، ووقع الرجل في فخ الحيلة الذي كان فاغراً فاه في انتظاره.

والحيل الخيرة لا تفتأ تطل برأسها من التراث، وتري كيف يستفيد الناس من عقولهم لعمل الخير، وازدهار أسبابه، والقصة التالية فيها شيء من ذلك، وفيها من الابداع ما أوجب تدوينها:

«كان سعيد بن عمرو مؤاخياً ليزيد بن المهلب، فلما حَبَس عمر بن عبدالعزيز يزيد، ومنع من الدخول عليه، أتاه سعيد فقال:

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢٩٩.

يا أمير المؤمنين، لي على يزيد خمسون ألف درهم، وقد حلت بيني وبينه، فإن رأيت أن تأذن لي فأقتضيه.

فأذن له، فدخل عليه، فسرّ به يزيد، وقال: كيف وصلت إليّ، فأخبره.

فقال يزيد، والله لا تخرج إلا وهي معك.

فامتنع سعيد، فحلف يزيد ليقبضنها.

فقال عدي بن الرقاع:

لم أر محبوساً من الناس واحداً
حبا زائراً في السجن غير يزيد
سعيد بن عمرو إذا أتاه أجازه
بخمسين ألفاً عجلت لسعيد[1]

لقد مرت الحيلة بعمر بن عبدالعزيز فلم يتنبه لها، لأنها متقنة، ولقد كان سعيد موفقاً عندما جاء باسلوب مؤدب، وترك لعمر الخيار في أن يأذن أو لا يأذن، فلم يلح، وحسناً فعل عندما اختار أمر الدين واقتضاءه، لأنه يعرف أن عمر بن عبدالعزيز لا يحرم

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٦٦.

صاحب حق من حقه، ومدخل الحيلة دينيٌّ عند رجلٍ الدينُ عنده فوق كل اعتبار، ولهذا فمضمار جري حصان الحيلة قد اختير بعناية، فربح صاحبه، ونال قصب السبق، كما خطط.

وهناك حيلة ذكية جاء بها اللعب على الكلمات، وفاز فيها اللاعب ببغيته، وفاتت بها على آخر طلبته؛ فلما تَكَشَّف الأمر كان العذر جاهزاً، وعلى هذا فلم يكن العامل النفسي هو الذي لعب الدور الأول في هذه التمثيلية، وإنما كان لاعباً مسانداً، واللاعب الأول هو التلاعب بالألفاظ، التي أدت الغرض منها بجدارة، وفعلت فعلاً كبيراً، والقصة كمايلي:

«قال المغيرة بن شعبة:

ما خدعني أحد قط غير غلام من بلحارث بن كعب، فإني ذكرت امرأة منهم، فقال: أيها الأمير، لا خير لك فيها، إني رأيت رجلاً قد خلا بها يقبلها.

ثم بلغني بعد أنه تزوجها، فأرسلت إليه، فقلت:

ألم تعلمني أنك رأيت رجلاً يقبلها؟
فقال: بلى، رأيت أباها يقبلها». [1]

إنها لشجاعة من المغيرة أن يُقِرَّ أنه خدع، وخدعه فتى، وهو الرجل الناضج المجرب، صاحب المنصب والأمارة، ولعل الفتى لم يرد لأبنة قبيلته إلا فتى من هذه القبيلة؛ ترى ما رأي الزوجة لو علمت بأنه صد عنها الأمير، أتراها تعتقد أنه خدعها هي أيضاً، أم ترى أنه عَلَّقها معروفاً وهو الشاب من قومها، وأعفاها من إحراج الأمير الذي يكبره سنًّا، وأحرى أن يتزوج ثم يطلق؛ يبقى هذا الجانب مبهماً لنا.

والتقبيل يوصلنا إلى قصة أخرى عن تقبيل مختلف، تأخذ الحيلة فيه منحى يؤدي إلى نفع لم يتوقع، جاء من إخفاق الحيلة هذه المرة وليس من نجاحها، والمحتال والمحتال عليه كلاهما ذكي، وأحدهما يعرف الثاني جيداً، ويدخل إلى نفسيته فيسبر غورها، وعلى أساس ما يعرفه عنها يأتي

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٢١٨.

تصرفه، والقصة كمايلي:

«قال الأصمعي:

دخل أبو بكر الهجري على المنصور فقال:

يا أمير المؤمنين، نَغَضَ فمي (أي تخلخلت أسناني)، وأنتم أهل بيت بركة، فلو أذنت لي، فقبلت رأسك، لعل الله يشدد لي منه!

فقال أبو جعفر: اختر منها ومن الجائزة.

فقال: يا أمير المؤمنين: أهون عليّ من ذهاب درهم من الجائزة ألا تبقى في فمي حاكة» .[1]

لقد بسط الهجري على الصفحة كذبة ما لبث المنصور أن غاص إلى ما خلفها من حقيقة وصدق، وقاد معه في بحثه عنها الهجري نفسه، فجعله يقر علنا، بما أخفاه باطنا، وجعله يسلم بما لم يرد أن يظهره في أول الأمر.

لقد أنست الجائزة الهجري حيلته، فرخصت عنده عند لمعان وجه هذه الوافدة الجديدة، التي

(١) عيون الأخبار: ٣/ ١٤٠.

جاءته تهدي نفسها بعد أن كان ظن أنها لن تأتي إلا بحيلة، والحقيقة أنها لم تأت إلا بحيلة نقضتها حيلة!

والخلفاء، طمعاً في رفدهم، عرضة للحيل من أناس عرفوا بالإتيان بالطرائف، وهي المصيدة التي عن طريقها يحصلون على الرفد، فهي دالتهم على الخلفاء وعمالهم، وأبو جعفر المنصور خاصة كان له نصيب وافر منها، ولشدته في بعض الأمور، ولينه في بعضها تأتي منه ومعهم طرائف، لعل زمنه ساعد عليها، فهو الوارث الحقيقي لمجتمع الأمويين، بما فيه من جد وهزل، لأن السفاح قضى وقتاً عصيباً في توطيد الملك، وتثبيت أركانه، فلم يرو عنه في هذا المجال ما روي عن المنصور وعن المهدي والهادي والرشيد.

وأبو دلامة رجل طريف، وله قصص طريفة، ومن هذه القصص الحيلة التالية التي قابل بها المهدي:

«قيل: قدم المهدي، أمير المؤمنين، (وقيل الرشيد)، فتلقاه الناس، وتلقاه أبو دلامة في جملة الناس، فأنشده:

إني نــذرت لئـن رأيتـك سـالمـا
بقــرى العــراق وأنــت ذو وفــر
لتصــليـنّ عــلى النـبي محمــد
ولتمـــلأن دراهمـــا حجـــري

فقال له أمير المؤمنين: أما الأولى فنعم، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وأما الأخرى فلست أفعل.

فقال أبو دلامة: يا أمير المؤمنين، ما نذرت إلا الاثنين. فضحك، وأمر حتى ملؤا حجره دراهم». [1]

وحيلة أبي دلامة متقنة، فلولا الجزء الأول من الحيلة ما تم له ثانيها، وكانت الأولى الوسيلة للثانية، والأداة لقبولها، ولم يسع المهدي أن يتهرب من اعطاء أبي دلامة نتيجة جهده، وثمرة تخطيطه؛ ولقد كان الطعم الذي وضع في مقدمة الفخ شهيًا ملزماً، وبتناوله أطبق الفخ!

ونصب الفخاخ بهذه الطريقة، والاستدراج بالمقبول إلى غير المقبول، أو الاستدراج بالمستحيل

(١) عيون الأخبار: ٣/ ١٣٤.

ليوصل إلى المعقول أسلوب ناجح في الحيل، فأبو دلامة إذا كان بدأ بما لا يريد، فهناك رجل آخر مثله، بدأ بما لا يريد ليصل إلى ما يريد، ولولا هذه الحيلة لما وصل إلى ما وصل إليه من الغنم.

وكانت حيلة هذا الرجل بارعة، إلى حد أن من حوله لم يدروا عن قصده، وأخذوا يلومونه على اقتصار طموحه إلى ما تحقق له، ولم يدروا أن هذا هو كان منتهى أمله، وأن ماكان بذل من جهد فهو لهذه النتيجة، والقصة صورتها كمايلي:

«قال رجل لمعاوية: أقطعني البحرين.

قال: إني لا أصل إلى ذلك.

قال: فاستعملني على البصرة.

قال: ما أريد عزل عاملها.

قال: تأمر لي بألفين.

قال: ذلك لك.

فقيل له: ويحك! أرضيت بعد الأولين بذلك!

قال: اسكتوا، لولا الأوليان ما أعطيت هذه».[1]

لقد كانت الألفان منتهى طموحه، ولو طلبها مباشرة لما أعطى إياها، أو لما أعطي إلا بعضها، ولكن الحيلة التي لجأ إليها، والجهد الذي بذله في إيجادها لم يخيب أمله، فقد رضي بما حصل عليه، ومعاوية تنفس الصعداء، إذ نزلت الصفقة إلى هذا المبلغ الطفيف، واستراح من أن يدخل في أمر قد لا يكون الخروج منه سهلاً، فلابد أن الرجل ذو مركز في قومه، وإن كان أحمقاً، كما رأينا.

وقد تتدنى الحيلة، وتكون ساذجة إلى حد أن سابكها لا يريد أكثر من ثمن كفن يحصل عليه، يتقاسمه مع رفيقه الذي قاسمه جهد الحيلة، وتحمل معه نصفها، والقصة كالآتي:

«قال أبو هفّان:

كنت أنزل في جوار المعلّى بن أيوب، وكان ابن أبي طاهر قد نزل عندي؛ وكنا على ضيقة شديدة،

(١) عيون الأخبار: ٣/ ١٤٧.

فقلت لابن أبي طاهر: هل لك في شيء لا بأس به؟ تجيء حتى أُسَجِّيك، وأمضي إلى منزل المعلّى، وأعلمه أن رفيقاً لي توفي، وآخذ ثمن الكفن، فنتسع به أياماً إلى أن يصنع الله.

فقال: أفعل.

وكان المعلّى قد أقام وكيلاً يكفّن كل من مات، ولم يخلِّف ما يكفن به، بثلاثة دنانير.

قال أبو هفّان:

فصرت إلى منزل المعلّى، وأعلمتهم ذلك، فجاء الوكيل ليعرف حقيقة الخبر؛ ولما دخل منزلي، وكشف عن وجه ابن أبي طاهر استراب به، فنقر أنفه فضرط؛ فالتفت إليّ وقال: ما هذا؟

فقلت: هذه بقية روحه كرهت نكهته، فخرجت من استه!

فضحك حتى استلقى، ودفع لي ثلاثة دنانير، وقال: أنتم ظرفاء مجّان، فاصرفوها فيما تحتاجونه». [1]

---

(١) البصائر: ١/ ٢٧.

إن نظرنا إلى النتيجة، والثمرة التي جاءت من الحيلة، قلنا إن الحيلة نجحت، وإن نظرنا إلى اكتشاف وكيل المعلّ للحيلة، وعلمه بتدبير أبي هفان وابن أبي طاهر، قلنا إن الحيلة أخفقت. ولابد أن الوكيل رحمهما، وعلم أنهما لم يلجآ إلى هذا التظاهر إلا لحاجة وعوز، والحي أولى من الميت بالرأفة والإحسان، وما جعله المعلّى من صدقة في الأكفان.

وإذا تدنت الحيلة إلى هذا المستوى من القصد، وإلى هذا الحد من الهدف، فإنها قد تعلو، وتأخذ عدة خطوات قد تعرضها للإخفاق، لولا أن وراءها عقولا فطنة تهيىء لها أسباب النجاح، وقد يجعل الدافع، لقوته وأهميته، القائمين بالأمر يبذلون الجهد حتى يأتي العمل متكاملاً، فيضمنون النتيجة، والقصة الآتية تمثل ذلك:

«كان عبدالملك بن مروان ولّى بشر (بن مروان بن الحكم، وكان شابا يحب اللهو والمرح) الكوفه، ووجه معه روح بن زنْباع، (وكان شيخاً وقوراً متورعاً).

وقال عبدالملك: يابني «رَوْحٌ» عمك، والذي لا ينبغي أن تقطع أمراً دونه، لصدقه وعفافه، ومحبته لنا أهل هذا البيت.

فخرج معه حتى قدما الكوفة، وكان بشر ظريفاً أديباً، يحب الشعر والسمر، والسماع والندام، فراقب روحاً واحتشمه، وقال: أخاف أن يكتب روح إلى أمير المؤمنين بأخبارنا، فتقبل منه، وإني لأحب من الأنس والاجتماع ما يحبه الشباب، ولكني أتجنب ذلك لمكانه.

فضمن له النديم كفاية أمره، وردَّهُ إلى عبدالملك من غير سخط ولا لائمة؛ فسرّ بذلك، ووعده مكافأته عليه بأعظم الحباء.

وكان روح غيوراً، إذا خرج من منزله أقفله، وختمه بخاتمه حتى يعود فيفضه بيده؛ فأخذ الفتى دواة، ثم أتى منزل رَوْحٍ ممسيا، فوقف بالقرب منه مستخفيا، فخرج روح إلى الصلاة، فتوصل الفتى إلى أن دخل الدهليز، فكمن تحت درجة فيه، وعاد

روح ففتح الباب، وأغلقه من داخله، فلم يزل الفتى يحتال ويتلطف به حتى وصل، فكتب على حائط في أقرب المواضع من مرقد روح:

يـا روح مـن لبنيـات وأرملـة
إذا نعاك لأهل المغرب الناعي
إن ابن مروان قد حانت منيته
فارحل لنفسك يا روح ابن زنباع
ولا يغـرنّـك أبكـار منعّمـة
فاسمع ـ هديت ـ مقال الناصح الداعي

ثم رجع إلى مكانه من الدهليز، فبات به، فلما أصبح روح خرج إلى الصلاة، فتبعه الفتى متنكراً وخرج. وكان روح قبل خروجه أقفل على الموضع الذي كتب فيه الفتى، فلما عاد إلى الموضع، وأسفر الصبح تبين الكتاب، فراعه، وأنكره، وقال: ما هذا؟! فوالله ما دخل حجرتي أنسي سواي، ولا حظ لي في المقام بالعراق.

ثم نهض إلى بشر فقال: أوصني بما أحببت من

حاجة أو سبب عند أمير المؤمنين .

قال : أوتريد الشخوص يا عم؟

قال : نعم .

قال : ولم ذاك؟ هل أنكرت شيئاً؟ أو رأيت قبيحاً لم يسعك المقام عليه؟

فقال : لا والله ، بل جزاك الله عن نفسك وسلطانك خيراً ، ولكن أمر حدث ولابدّ لي من الانصراف .

فأقسم عليه أن يخبره .

فقال : إن أمير المؤمنين ميت إلى أيام .

قال : ومن أين علمت ذلك؟

فأخبره بخبر الكتاب .

فقال بشر : أقم ، فإني أرجو ألا يكون لهذا حقيقة .

فلم يثنه شيء ، وصار إلى الشام .

وأقبل بشر على الشراب والطرب .

فلما لقي روح عبدالملك أنكره أمره ، وقال له : ما أقدمك؟ ألحادثة حدثت على بشر ، أم لأمر كرهته؟

فأثنى على بشر وقال :

بل حدث أمر لا يمكنني ذكره حتى نخلو.

فقال عبدالملك: إذا شئتم!

وخلا بروح، فأخبره بقصته، وأنشد الأبيات، فضحك عبدالملك حتى استغرب، وقال:

ثقل مكانك على بشر وأصحابه حتى احتالوا لك بما رأيت، فلا ترع.

ووفى بشر لنديمه بما وعده، وزاد ما كان منه في روح في حاله عنده، ومكانه منه»[(١)].

هذه حيلة مركبة، فيها خطوات متتالية، تتابعها لازم، وإتقانها مهم لنجاحها، وقد جاء بعد دراسةٍ لحال الضحية، اقتضتها الخطوات التي سوف تنفذ، وكان فيها مخاطرة، لموقع روح ومكانه. وبيت القصيد، ومح الفكرة، والأساس الذي دارت عليه عجلة الحيلة ومحورها الأبيات المؤلفة بعناية، المصاغة باتقان، لتوائم الهدف، ولتكون الضربة الدامغة في الإجهاز على الضحية، والقضاء على أي

(١) البصائر: ٣/ ١٣١، ربيع الأبرار: ١/ ٧٩٨.

تردد، أو التفكير في الأمر بعمق وعقل.

أما عبدالملك فلم يغب عن باله تفسير الأمر، وهو السياسي المحنك، والحاكم اليقظ، والعارف بأمور الشباب وحيلهم لإيجاد المسرح الذي يستطيعون أن يهيؤوه للعبهم.

وتأخذ الحيل أحياناً منحىً ساذجاً هو أقرب إلى الهزل، وأدنى إلى الفكاهة، رغم أن الموقف جد، وحد السيف فيه لامع، والنطع ملقى، والسياف مستعد، ومع هذا يبدع العقل في هذا الجو المخيف فكرة تأتي بنتيجة تفوقها حجماً وقدراً، والقصة الآتية من هذا النوع:

«أمر عبدالملك بن مروان بضرب عنق خارجي، فقال:

يا أمير المؤمنين، هذا جزائي منك.

قال: كيف؟

قال: والله ما خرجت معه إلا نظراً لك، وتقرباً إليك. فإني ما صحبت أحداً إلا هزم، وقتل وصلب؛

ولكوني مع غيرك خير لك من مئة ألف معك.

فضحك، وأطلقه». [1]

إن الحيلة أثمرت ثمرة يانعة، لقد أبقت رأس الخارجي مستتباً على كتفيه؛ ولكن الحيلة لم تمر بذهن عبدالملك دون أن يدري أنها حيلة، ولكن عبدالملك، وهو يبحث عن سبب يعفو به عن بعض حواشي الخوارج، يفرح بمثل هذا النطق في مجلس عام، لأنه دليل على عدم عمق عقيدة الخوارج لدى بعض أتباعهم، ولأن العفو بأي حجة يعفيه من سفك دم قد لا يجد العذر في سفكه.

وعلى هذا النسق تأتي حيلة أخرى معجبة، هي أقرب للطرافة منها إلى الجهد، وقد نجحت فيما نويت له، إلا أن الخليفة لم يكن ليغيب عن باله أنها حيلة، ولكنها أطربته، لما فيها من تبجيل له أمام الجمع في مجلسه، خاصة وأن الذنب لم يكن يوجب العقاب الصارم الذي أمر به الخليفة:

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٥٤٣، البصائر: ٤/ ٤٦.

«سخط الرشيد على حميد الطوسي، فدعا له بالسيف والنطع، فبكى.

فقال: ما يبكيك؟

فقال: والله، يا أمير المؤمنين، ما أفزع من الموت، لأن لابد منه، وإنما بكيت أسفاً لخروجي من الدنيا وأمير المؤمنين ساخط علي.

فضحك، وعفا عنه، وقال:

إن الكريم إذا خادعته انخدعا». (١)

هذه القصة، إذا صحت، فإن هارون الرشيد فيها قد أبان الجانب الذي أثر عليه وعلى عبدالملك في القصة السابقة، لقد أوضح أنه يعرف أن هذا خداع، ولكن من صفة الكريم إذا خودع أن يظهر أنه انخدع، للفائدة التي تأتي من هذا.

وعدم ذكر الذنب الذي ارتكبه حميد الطوسي يجعلنا لا نجزم بصحة القصة، لأن مثل هذا القتل ليس من طبيعة الرشيد أن يقدم عليه، ولعل القصة

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٧٢٨.

مركبة مولدة، وأغرى بها رد الطوسي البديع.

ونتقل إلى زمن الرسول ﷺ، وإلى قصة حدثت برضاه، فيها نفع لأحد المسلمين، وكانت الحيلة فيها بارعة، ووقع ضحيتها بلدة بكاملها، وقبيلة عظمى بفروعها، وقام بالحيلة رجل واحد، هيأ لها جميع خطواتها، ونفذها بجدارة، ولم ينله من عواقبها شيء؛ دخل فيها بسلاسة، وخرج منها برفق وربح، والقصة هي قصة الحجاج بن علاط السلمي:

«كان الحجاج قد أسلم، ولم تعلم قريش بإسلامه، فاستأذن رسول الله ﷺ يوم خيبر، في أن يصير إلى مكة، فيأخذ ما كان له من مال، وكانت له هناك أموال متفرقة، وهو رجل غريب بينهم، إنما هو أحد بني سليم بن منصور، ثم أحد بني بهز.

فإذن له رسول الله ﷺ؛ فقال: يا رسول الله إني أحتاج أن أقول، قال: قل:

[قال أبو العباس: وهذا كلام حسن، ومعنى حسن، يقول: أقول على جهة الاحتيال غير الحق،

فأذن له رسول الله ﷺ، لأنه من باب الحيلة، وليس من باب الفساد، وأكثر ما يقال في هذا المعنى «تَقَوَّل» كما قال الله عز وجل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾][1] .

فصار إلى مكة فقالت قريش:

هذا، لعمر الله! عنده الخبر.

قال: فقولوا.

فقالوا: بلغنا أن القاطع قد خرج إلى أهل خيبر.

فقال الحجاج: نعم، فقتلوا أصحابه قتلاً لم يسمع بمثله، وأخذوه أسيراً، وقالوا: نرى أن نكارم به قريشاً، فندفعه إليهم، فلا تزال هذه اليد لنا في رقابهم؛ وإنما بادرت لجمع مالي لعليّ أصيب به من فَلِّ محمد وأصحابه، قبل أن يسبقني إليه التِّجّار، ويتصل بهم الحديث.

قال: فاجْتَهَدُوا في أن جمعوا لي مالي أسرع جمع، وسروا أكثر السرور.

«وأتاني العباس، وهو كالمرأة الواله، فقال:

(١) سورة الطور، الآية: ٣٣.

ويحك يا حجاج ما تقول!؟

قال: فقلت: أكاتم أنت عليّ خبري؟

فقال: أي والله!

قال: فقلت: فالبث عليّ شيئاً حتى يَخِفّ موضعي.

قال: فصرت إليه، فقلت: الخبر والله على خلاف ما قلت لهم؛ خلفت رسول الله ﷺ، وقد فتح خيبر، وخلفته والله معرساً بابنة ملكهم؛ وما جئتك إلا مسلماً فاطوِ الخبر ثلاثاً حتى أُعجِزَ القوم، ثم أشِعْهُ، فإنه والله الحق.

فقال العباس: ويحك أحق ما تقول؟

قلت: أي والله!

قال: فلما كان بعد ثالثة تخلّق العباس، وأخذ عصاه، وخرج يطوف بالبيت. قال:

فقالت قريش: يا أبا الفضل، هذا والله التجلّد لحر المصيبة!

قال: كلّا، ومن حلفتم به! لقد فتحها رسول الله ﷺ وأعرس بابنة ملكهم.

قالوا: من أتاك بهذا الحديث؟
قال: الذي أتاكم بخلافه، ولقد جاءنا مسلماً».
ثم أتت الأخبار من النواحي بذلك، فقالوا:
أفلتنا الخبيث، أولى له!». [1]

وتأتي الحيلة هذه المرة من امرأة، نصبت رصداً، وأقامت شركاً، ما فتئ أن وقع فيه رجل، كان المعنيَّ بالحيلة، وكان مدخل الشرك سهلاً بسيطاً، ولكن الثمرة ثمينة، والصيد فَرَا؛ ومن السهل وقوع البريء في براثن المخطِّط المستعد، خاصة إذا لم يكن هناك دلائل سابقة توجب الشك، وتوحي بالحذر، ولقد نجحت الحيلة، وإن كان مجرى الهدف اختلف، وعُدِّل ما كان مخططاً له أن لا يكون مستقيماً، ولكن نجاح الحيلة توقف على هذا التعديل الجوهري، والقصة تجري حوادثها كالآتي:

«روى بعض الرواة أن أبا دَهْبَل الجمحي كان تقياً، وكان جميلاً، فقفل من الغزو ذات مرة، فمرّ

(١) الكامل: ١/ ٤٥٥.

بدمشق، فدعته امرأة إلى أن يقرأ لها كتاباً، وقالت: إن صاحبته في هذا القصر، وهي تحب أن تسمع ما فيه، فلما دخلت به برزت له امرأة جميلة، وقالت له: إنما احتلت لك بالكتاب حتى أدخلتك.

فقال لها: أما الحرام فلا سبيل إليه.

قالت: فلست تراد حراماً.

فتزوجته، وأقام عندها دهراً حتى نعي بالمدينة.

وقد استأذنها ليلم بأهله، ثم يعود، فجاء وقد اقتسم ميراثه، فلما هم بالعود إليها نُعيت له» .[1]

وتأتي الحيلة بارعة، ولكنها صغيرة، وإتقانها يجعل من ورائها مكسباً يجعل صاحبها يكررها، وتمر الحيلة على من سيقت عليه، ويقتله القهر والكمد، ولكن الناس مع المحتال وليسوا معه، ولابد أن يقع هذا الشاطر في مغبة فعله، وهو إن نجا مرة فقد لا ينجو الأخرى.

«قال الأعمش:

(١) الكامل: ١/ ٣٨٧.

دخل رجل داراً فسرق طستا، فلما خرج رأى على باب الدار نفراً، فالتفت إلى الدار، فقال:

إن لم يشتر بسبعة أبيعه بستة؟

يوهم أنه دفع إليه ليبيعه» .[1]

وهناك حيلة، لعلها منحولة وملفقة، ومع هذا فهي طريفة، وركبت لتقبل، ولكنا نعتقد أن هؤلاء، الكبار في المقام والعقل، لا يفعلون ما قيل إنهم فعلوه، ولو حدث مثل هذا ممن قيل إنه احتال لجاء الجزاء عاجلاً وقوياً:

«استعمل معاوية أبا الأعور السلمي على مصر بدل عمرو بن العاص، وكتب إليه كتاباً بالعزل. فلما قدم على عمرو احتال عمرو حتى وضع الكتاب من يده، وشغله بالأكل، ودسّ من سرق كتابه؛ فلما فرغ ادعى العمل، فقال عمرو:

إنما جئتَ زائراً، ونحن نصلك.

فبلغ ذلك معاوية، فضحك من دهاء عمرو» .[2]

معاوية إن كان عزم على عزل عمرو، فإنما يفعل ذلك لسبب قوي، ويقدم على هذا بعد تروٍّ وتبصر، فإذا أقدم أقدم بحزم وتصميم؛ ولا يرضيه بحال من الأحوال أن يضحك أحد من منصوبه بهذه الطريقة الصبيانية، فالأمر أمر أمن دولة، وسمعة خليفة، ولكنه خيال أديب جامحٌ.

وطرافة أشعب وطمعه تجعله صاحب حيل متتابعة، لا يمر يوم دون أن يكون له فيه حيلة، وغالباً ما تكون صيداً لبطنه، وهذا أعطاه ملكة في سبك الحيل، وإيقاع الناس في شباكها، وهذه الملكة نفعته مع امرأة أحسّ أن وراءها كسباً، والمال أهم من الأكل، وعن طريقه يضمن الأكل.

«قال أشعب:

جاءتني جارية بدينار وقالت:

هذه وديعة.

فجعلته بين ثني الفراش، فجاءت بعد أيام وقالت:

ناولني الدينار.

فقلت: ارفعي الفراش، وخذي ولده.

وتركتُ إلى جنبه درهما، فَتَرَكَتْ الدينار، وأخذت الدرهم؛ وعادت بعد أيام فوجدت معه درهماً آخر، فأخذته، وعادت الثالثة كذلك.

فلما رأيتها في الرابعة بكيت.

فقالت: ما يبكيك؟

فقلت: مات دينارك في نفاسه.

قالت: سبحان الله! أيموت الدينار في النفاس؟

قلت: يا فاسقة، تصدقين بالولادة، ولا تصدقين بالنفاس» .[1]

إما أن يكون أشعب ابتدع هذه القصة، أو أن أحداً اخترعها، وعلقها عليه، أو أن المرأة ساذجة إلى حد البله المتناهي، والغفلة المجحفة.

ونختم قولنا بحيلة أخفقت، وسبب إخفاقها، إن صدقت الرواية. حيلة أخرى غلبتها، وأبطلت مفعولها، لأن العنصر في الثانية كان أقوى من الأولى،

---

(١) البصـــائر: ٥/ ١٩٥.

ولعل نية الخليفة الصالح، عمر بن عبدالعزيز هي التي مهدت لنجاح الحيلة الثانية، بل لعلها هي التي سخرت له من يعرض عليه خدمة جُلَّى في كشف حيلة سيءٍ نيةٍ أراد أن يختله فاختيل، وأراد أن يصيد فاصطيد:

«وفد بلال بن أبي بردة على عمر بن عبدالعزيز بخناصره (بليدة من أعمال حلب) فسدك بسارية المسجد يصلي، فقال عمر للعلاء بن المغيرة:

إن يكن سرّ هذا كعلانيته فهو رجل أهل العراقين بلا مدافع.

فقال العلاء: أنا آتيك بخبره.

فقال له: قد عرفتَ مكاني من أمير المؤمنين، فإن أشرت بك على ولاية العراق ما تجعل لي؟

قال: عمالتي سنة، وهي عشرون ألف ألف.

قال: فاكتب لي.

فكتب له: فلما رآه عمر كتب إلى والي الكوفة:

أما بعد:

فإن بلالاً غرنا في الله، فكدنا نغتر، ثم سبكناه فوجدناه خبثا كله، فلا تستعن على شيء من عملك بأحد من آل أبي موسى» .[1]

الهجوم على آل أبي موسى ملحوظ في تلك الفترة وما بعدها، ولم يسلم أبو موسى نفسه من تلفيق الأقوال عليه، ونسج الأخبار التي تسيء إليه، وإلى ذريته، يأتي هذا أحيانا بقصص متكاملة، وأحياناً لمزاً وغمزاً، وتعرَّضوا مثل باهلة في زمن الأمويين للنيل منهم، والحط من قدرهم، والسبب يعود إلى موقف أبي موسى من علي ـ رضي الله عنه ـ وعن وقوفه معه، مما لم يَنْسَه بعض أنصار بني أمية .

وعمر بن عبدالعزيز تقي يعرف قول الله ـ تبارك وتعالى ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ ،[2] ولو كان حصل من بلال ما حصل، لحذّر من بلال وحده، لا من آل أبي موسى كلهم .

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٧٩٤.
(٢) الأنعام، الآية: ١٦٤.

هذه بعض الحيل، وكيف سارت، وإلى ماذا انتهت، ومن أراد المزيد من حيل لم ترد في هذه المقالة، وهي تستحق أن تقرأ، وأن تتدبر، لأن فيها من العقل، وحسن التدبير، والخيال أحياناً، وأهمية ما استعملت له الحيلة، ما يجعل قراءتها مفيدة وممتعة، فعليه بكتاب: «لطف التدبير، لمحمد بن عبدالله الخطيب الإسكافي، المتوفَّى عام ٤٢١ هـ». [1]

ويكاد الكتاب كله يكون حيلاً، وهو ما عبر عنه بالتدبير.

---

(١) دار الكتب العلمية، تحقيق: أحمد عبدالباقي، الطبعة الثانية: ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

بين التحرش والاستفزاز[1]

التحرش مؤذٍ، ويجلب الضرر لصاحبه؛ والضرر قد يكون صغيراً، وقد يكون كبيراً، وفي الغالب يأتي عاجلاً وسريعاً، لا يتأخر ولا يتوانى؛ ونتيجته تؤلم سواء كان التحرش بإنسان أو حيوان، والتحرش من الأدنى للأعلى، ومن الصغير للكبير، ومن الضعيف للقوي، وتكاد أن تكون نتيجته أكثر إيلاماً.

وقد يثير التحرش تصرفاً فعلياً مزعجاً، ينهي حياة الإنسان أو ينتهي بعاهة من العاهات، وقد يثير ردّاً جارحاً، يتمنى معه الإنسان أن لو كانت الأرض ابتلعته قبل أن يقدم على التحرش والاستفزاز، أو يفكر فيه.

وهناك أناس كثيرو التحرش، مديمون عليه، وكأنه من طبيعتهم، لا يكادون يخرجون من تحرش إلا إلى تحرش؛ فعندهم مقدرة واضحة على انتقاء

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٣٣٠) في: ١٦/٦/١٤١٥هـ الموافق: ١٩/١١/١٩٩٤م.

أسباب التحرش، والمتحرَّش بهم؛ وتكاد تجزم بأن أحدهم لو لم يتحرش، في يومه ذاك، مَرِضَ، أو أصابه جنون؛ وكأن في شوقه للاستفزاز غذاء لنفسه، ومتعة لقلبه، عودته على «خرمة»، لا يطيق تركها، ولا يقدر على الاقلاع عنها.

والتراث مليء بالقصص والحكايات والأقوال التي تصور مواقف ظهر فيها التحرش والاستفزاز، وحدث الضرر بسببها؛ وأخف النتائج في هذا أن يأتي الرد قارحاً يتخلل الجلد إلى العظم.

وأكثر ما يلفت النظر عندما يأتي التحرش من إنسان متعلم، عرك الحياة حلوها ومرها، ولا يغيب عن باله أن التحرش والاعتداء فيه ضرر يجعل تجنبه واجباً، والبعد عنه غنيمةً وقصداً؛ والجاحظ من هذه الفئة، ولهذا تستغرب عندما تراه دون سبب يعمد إلى التحرش والاستفزاز، ويحذف لبنة يريد بها أن تخدش رأس إنسان لم يكن بينه وبينه ما يوجب ما تعرض له به؛ فتعود اللبنة «مُلْوِيَةً» إليه، فتأتيه بما

أراده لغيره؛ والغريب في الأمر أن الجاحظ يرويها، ويسجلها في كتبه، وكأنه يريد أن يؤكد أنها حدثت منه وله، فلا يُظْلم أحدٌ بوضْعها عليه!

والقصة هي كالآتي ينقلها عنه صاحب كتاب أخبار الظراف:

«قال الجاحظ:

كنت مجتازاً في بعض الطرق، فإذا أنا برجل قصير بطين، كبير الهامة، متزر بمئزر، وبه مشط يسقى به (يصبغ به) شِقَّه، ويمشطها به، فاستزريته، فقلت له:

كأنك صعوة في أصل حشّ
أصاب الحِشَّ طِشٌّ بعد رَشِّ

فقال لي: إسمع الجواب!

قلت: هات:

فقال:

كأنك كودن في إست كبش
يدلدل هكذا والكبش يمشي»(١)

---

(١) أخبار الظراف: ١١٦.

إن الجاحظ لم يستطع أن يمسك نفسه، فقد استثاره المنظر، ولم يسترح حتى رمى بهذا الهمِّ من صدره، ولعل هذا الرد القاسي أخف عليه من معاناة حَمْلِ المَنْظر دون التعليق عليه.

وحظ الجاحظ أحسن من حظ بواب في إحدى دور السينما في القاهرة، كان إذا مرّ به أحد قال بصوت خافت: أبوك حمار، أبوك كلب، أبوك حصان، أبوك بغل، وكان يوزع الألقاب، حسب جسم المرء ومظهره، وقليل جداً من الناس يعرفون عنه هذا؛ وكان متمسكاً بهذه العادة، حدبا عليها، وكان يجد الوقت لإعطاء كل داخل للسينما لقبه براحة وتمعن وهدوء وإتقان، ولكنه عند خروجهم يعطيهم إياها مجموعات مجموعات، لتزاحمهم عند الخروج، وكنت ترى الفرحة تملأ وجهه وهو يقوم بهذه الهواية، وكأنها عبادة يرجو من روائها ثواباً، أو عملاً سيأخذ عليه أجراً.

وفي يوم من الأيام مر به رجل، ويبدو أن سمعه

كان حادّاً، أو أنه سبق أن أعطي لقباً؛ وكان ضخماً عملاقاً، يهصر الأرض تحت قدميه، ويحرك الهواء بمنكبيه، فنظر إليه البواب، وبدلاً من أن يقول: أبوك بغل، قال أبوك تَيْس؛ فانفتل الرجل بسرعة ورفع يده، وأنزلها مثل الكَرَبة على وجهه، فصافحت هذه اليد الخشنة ذلك الخد الأسيل! فاختل توازن البواب ثم سقط كأنه جذع نخلة، واستمر الضارب في طريقه، ولما استعاد البواب صوابه، واستطاع أن يقف على قدميه، وتأكّد أن الرجل قد ذهب، وأبعد حيث لا يسمعه، قال: والله أنا كلامي صحيح، إنت تيس، وأبوك تيس، وألف تيس.

فليحمد الله الجاحظ أن من تحرش به يقرض الشعر، ولم يكن يقرض الآذان، أو يصفع الوجوه، أو يلقي بالناس على الأرض.

وللشعراء مواقف يَسْتَفِزون فيها ويُسْتفَزون؛ يتحرش الصغير منهم بالكبير، وتزيد الثقة عند الصغير، فينسى حده، ويتجاوز ما سمح أن يصل

إليه، ويغضب الكبير، فيهدر هدرة يجلجل بها موقف الصغير، فيصحو هذا من غفلته، ويتبصر فيما أقدم عليه، وفي حق نفسه أمام من أهدر حقه؛ وأحياناً يقف الشاعر الكبير موقفاً يصغر فيه، وتكون اليد الطولى لقبيله، والأمثلة الآتية تعطي صورة لبعض هذه الحالات:

«قال يحيى بن عروة:

لما قدم الفرزدق المدينة أتى مجلس أبي، فأنشده الأحوص شعراً؛ قال: من أنت؟

قال: الأحوص بن محمد.

قال: ما أحسن شعرك!

قال: أهكذا تقول لي؟ فوالله لأنا أشعر منك.

قال: وكيف تكون أشعر مني وأنت تقول:

يَقِرُّ بعيني ما يقرّ بعينها
وأفضل شيء ما به العين قرت

فإنه يقر بعينها أن تنكح، أفيقر ذاك بعينك». (1)

(١) مجالس ثعلب: ٢/ ٤٣٤.

تَحَرُّشُ الأحْوص بالفرزدق، واستفزازه بهذه الطريقة الظالمة هي التي جعلته يتلقى هذه اللطمة، التي جاءت ومعها مبرر قوي؛ وطمعه في مكان أعلى من المكان الذي بوأه إياه شاعر كبير، هو الذي أوقعه في هذا الموقف الواصم له برداءة شعره؛ ولو اكتفى بالحكم الذي أصدره الفرزذق لكان خيراً له.

ويستفز الشاعر كعب بن جعيل الناس، ويتحرش بهم دهراً، آمناً منهم، مطمئناً إلى أنه في مكان عالٍ، يصل ما يرسله من أحجار عليهم، ولا تأتيه قذائفهم، ولكنه فوجئ يوماً ما من حيث لم يحتسب، بوابل من الحجارة، تأتيه أرسالاً، منْقضة من أدنى إلى أعلى، بقوة لم يتوقعها، ومن شخص لم يفكر فيه، ومن مكان لم يخطر بباله، فبهت، ولم يدر كيف يتقى ما جاءه أرتالاً تترى، وقذائف تُدْمِي، وهجاءاً يجرح ويبقَى:

«قال كعب بن جعيل:

مكثت دهراً أهجو الناس، ولا أُهجى، حتى

انبرى لي غلام من تغلب، فقال:

تسميت كعباً بِشرِّ العظام
وكان أبوك يُسمى الجُعَل
وأنت مكانُك من وائل
مكان القراد من است الجمل

فما رفعت رأسي حتى الساعة»[1].

ويُغلب شاعر فطحل آخر، ويفاجأ بما لم يكن في حسبانه، لأنه جاءه عامي بما لم يعتد عليه، وسل عليه سيفاً لم يره، أو يسمع عنه من قبل، وبارزه على أرض لم يتعود المبارزة عليها، ولهذا جعل يد الشاعر الدنيا، وألجمه بلجام مسكت مدهش:

قال الفرزدق:
ما أفحمني أحد إلا نبطي من أهل تِيرَى قال لي:
أنت الفرزدق الشاعر؟
قلت: نعم.
قال: إن هجوتني تموت زوجتي عيشونة؟

(١) المحاسن والمساوىء: ٢٣١.

قلت: لا.

قال: فتموت حمارتي؟

قلت: لا.

قال: فمن رجلي إلى عنقي في رحم أمّك.

قلت: ويلك! فَلِمَ تركت رأسي؟

قال: حتى أنظر ماذا تصنع؟». [1]

ويتحرش شاعر كبير بآخر، ويبدأ باستفزازه أمام الخليفة، فيشم الخليفة رائحة هجاء يعرف الشواء خلفه، والنار التي ستوقد تحته، فيضفي جناح حمايته على المهاجَم، بتهديد يصغر عنده الهجاء، فيخذي الشاعر الكبير جرير، وينكمش عنقه، ويضعف زنده، ويصدأ سيفه، ويُسَلِّم أمره مرتعباً من هول الجزاء:

«دخل جرير على الوليد، وعنده ابن الرقاع، فقال الوليد لجرير: تعرف هذا؟

قال: لا.

(١) سرح العيون: ٣٩٣.

قال: هو ابن الرقاع.

قال: شر الثياب ما كانت فيه الرقاع.

قال: إنه من عاملة.

قال: عاملة ناصبة.

قال: ما تريد من رجل يمدح أحياء بني أمية، ويؤبن موتاهم؟ والله لئن هجوته لأركبنه عنقك!

فخرج جرير وابن الرقاع وراءه، فقال:

أيها الناس، كدت أخرج إليكم، وهذا القرد على عنقي». [1]

ويحاول أناس تحريك شاعر على آخر، ويحثونه على التحرش به، ولكن رجحان العقل عنده يغلب على نقصه عندهم، فلا يقدم على ما طلبوا منه أن يرتكبه؛ ولا يهم السبب الذي منعه من ذلك، المهم أنه قابل الضغط وقاومه، ولم يرضخ لمن أراد أن يرميه في النار، ويقف على حافة الأخدود، يتدفأ بالنار التي تحرق غيره؛ وله المتعة وعلى غيره الأذى والغرم:

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٨٦.

«قالوا لزياد الأعجم:

لِمَ لا تهجو جريراً؟

قال: أليس الذي يقول:

كـأن بنـي طُهيـةَ رهـطَ سلمـى

حجارةُ خـارئ يرمـي الكـلابـا؟

قالوا: بلى.

قال: ليس بيني وبين هذا عمل». [1]

قد يكون زياد الأعجم قال ما قال خوفاً من رد جرير عليه بمثل هذه الصورة التي رسمها عن بني طهية، وهي صورة مرعبة، انتقاها جرير لتكون بالغة الألم لا في رسمها ولا في جاذبيتها للرواية والاستدلال، ولكن لأنّها صورة متكاملة في بيت واحد.

وقد يكون زياد رفع نفسه عن مثل هذا الشاعر ومهاجاته ما دام المنبع الذي يستقي منه متدنيا بهذه الصورة.

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٢٥٠.

ـ[1] وكان هناك موقف مماثل وقفه ذو الرمة من شاعر آخر هجاه، فلم يجاره في تحرشه، ولم يرد عليه في هجوه، وقد أبان السبب، وحدده بأنه يترفع عن أن يهجوه، لأنه بِخِسته سوف يرتفع بهجوه إذا هجاه، فهل يا ترى وفى بوعده ألا يهجوه؟:

يقول ذو الرمة:

قيل لي قد هجاك مولى زياد
فَأَجِبْه، فقلت: ليس بكفوي
لست أهجوه، إنّه خامل الذكـ
ـر، لعل الخسيس يعلو بهجوي
هو كالكلب ينبح الليث رعباً
فذره يهرّ بعدي ويعوي
هو من سطوتي وبأسي هجاني
في أمانٍ ما بين حلمي وعفوي[2]

ولقد قال ما قال في هجوه، رغم أنه قال إنه لن يهجوه!

(١) من هنا يبدأ جزء لم ينشر في «عكاظ» لضيق المكان بها.
(٢) بهجة المجالس: ١/ ٣٧٣.

ويدعو الخرق والسّفه رجلاً فيلطم الأحنف بن قيس، دون سبب ظاهر، إلا إشارة من عقل ناقص، وتدبير أهوج، ولكن الأحنف لم يرد على هذا الاستفزاز، ودلّه على طريق أخذ منه جزاءه من حيث لا يعلم أنه سوف يأخذه، ولكن أنى لعقل مثل عقل هذا الرجل أن يدلّه على ما ينفعه، أو يمنعه عما يضره!:

«جاء رجل إلى الأحنف بن قيس، فلطم وجهه، فقال:

باسم الله، يا ابن أخي، ما دعاك إلى هذا؟

قال: آليت أن ألطم سيد العرب من تميم.

قال: فبرَّ بيمينك، فما أنا بسيدها، سيدها حارثة بن قدامة.

فذهب الرجل، فلطم حارثة؛ فقام إليه حارثة بالسيف، فقطع يمينه.

فبلغ ذلك الأحنف، فقال: أنا والله قطعتها»[1].

---

(١) المحاسن: ٥١٩.

والتحرش أحياناً يأتي برد قاس، لعل المتحرش كان في غفلة عنه، وحجبه عنه بريق التحرش، وقد لا يكون التحرش قصد به ذلك ولكن مجرى الكلام أوحى به، وهذه الصفات تتوافر في القصة الآتية:

«قال الأعمش: أحذروا الجواب، فإن عمرو بن العاص قال لعدي بن حاتم:

متى فُقِئت عينك، يا أبا طريف؟

قال: يوم طعنت في استك، وأنت مولٍّ في صفّين»[1].

وهذا النص له حق الوقفة عنده قليلاً، فإذا كان هناك نية لعمرو في التحرش برجل كان في يوم من الأيام مع علي في جيش معاد لمعاوية ومعه عمرو، فإن الجواب جاء مزمجراً، وكفيئًا لتحرش عمرو واستفزازه لعدي؛ وقد يكون هذا في أوائل عهد معاوية عندما كانت الجروح لم تلتئم بعد. وإذا صح أن هذا حدث فهو يسجل على عمرو في غير صالحه.

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ٩٤.

إلا أن هناك مدخلاً للطعن فيه، يأتي أولاً مما توحي به هذه النّصوص، من أن الطرفين الرئيسين في النص كانا فكرة في رأس مولِّد استطاع أن يُتقن نحتها وصياغتها بهذه الصورة، لأنه لو جاء بالأمر مطلقاً، فقال إن عين عدي عطبت في وقعة صفين، وأن عمراً ولى الأدبار فيها، لما كانت لها الجاذبية التي لها اليوم، ولا القبول والترحيب من الأدباء والكتاب والوراقين.

وإن من المدخل عليها أن هؤلاء كبار، لا ينزلون إلى مستوى الأطفال، فيتراشقون بكلمات لا تؤدي إلا إلى تعميق الأحقاد، وإثارة النعرات، وهم في غنى عن ذلك، خاصة وأن المتحرش وهو عمرو، هو الفريق الذي بقيت له السلطة، وليس عنده حَرٌّ يحتاج إلى إطفاء لهبه.

ومن ضعف الاحتمال أن يكون عمرو لا يدري أين فقد عديّ عينه، فلعل أمرها أشهر من أن يخفى عليه، ومع هذا فليس من المستحيل أن يكون عمرو سأل سؤالاً بريئاً أوّله عدي.

ومثل قصة الرجل الذي لطم الأحنف، تأتي القصة التي تذكر أن رجلاً رُوهن على لمس إلْيَةِ معاوية، والقصة تجري هكذا:

خاطر رجل رجلاً أن يقوم إلى معاوية إذا سجد، فيضع يده على كفله، ويقول: سبحان الله يا أمير المؤمنين، ما أشبه عجيزتك بعجيزة أمك هند!

ففعل ذلك، فلما انفتل معاوية عن صلاته قال:

لا، يا ابن أخي، إن أبا سفيان كان إلى ذلك منها أميل، فخذ ما جعلوا لك؛ فأخذه.

ثم خاطر أيضاً أن يقوم إلى زياد، وهو في الخطبة، فيقول له:

أيها الأمير، من أبوك؟

ففعل، فقال له زياد:

هذا يخبرك؛ وأشار إلى صاحب الشرطة، فقدّمه فضرب عنقه.

فلما بلغ معاوية قال:

ما قتله غيري، ولو أدبته على الأولى ما عاد إلى

الثانية» .[1]

ومن هذه القصة أخذ العامة قولهم: «خِير ماله يطيح بطبّال الأذناب» .

نقطة الضعف في هذه القصة هي في السؤال عن حرس معاوية أين هم عن هذا الرجل النكرة الذي وصل إلى معاوية فوضع يده على عجزه، ومعاوية منذ حادثة الاعتداء عليه في المؤامرة التي دبرت له مع ما دبر لعلي ـ رضي الله عنه ـ وهو محتاط ألا يقترب منه إلا من اطمأن الحرس إليه .

ويعضد الضعف في هذا ما يذكر دائماً عن عجيزة هند، وعظمها، ولقد رأينا في نصوص أخرى أثراً للافتعال في هذا، وإقحام أمر عجيزتها بدون مبرر مثلما ورد في النص المروي عن أبي هريرة، ومرتكزه التنبؤ برئاسة معاوية منذ أن كان طفلاً، فأُدخل أمر العجيزة إقحاماً بمجرد أن ورد اسم هند .[2]

---

(١) العقد الفريد: ١/ ٥٣-٥٤ .

(٢) البصائر: ٦/ ١١٥ .

ويحتار الإنسان أحياناً أمام بعض النصوص، فهناك نص لا أجزم أي الرجلين فيه هو المتحرش، هل هو بشار بن برد على يزيد بن منصور الحميري، أو أن يزيد هو المتحرش؛ أما بشار فتعليله يدل على أن يزيد لم يسأل سؤاله إلا تحرشاً واستفزازاً، ولكننا قد نحسن الظن بيزيد، ونقول إن سؤاله كان بريئاً، ونيته كانت سليمة، وأن هدفه أن يعرف ماذا يمكن لرجل أعمى أن يجيد ويمتهن، ولعل بشار غضب لا من السؤال، ولكن من الجواب الحق الذي لو قاله لكان مؤلماً له؛ فماذا يقول؟ لا مهنة لي إلا قول الشعر أَمْدح هذا، وأهجو هذا، وأتطلع إلى ذلك الشيء فأقول فيه شعراً، ولا أَنَالُهُ فأقول في ذلك شعراً، والموقف حدث هكذا:

«دخل بشار على المهدي، وعنده خاله يزيد بن منصور الحميري، فأنشده قصيدة يمدحه بها، فلما أتمها قال له يزيد:

ما صناعتك أيها الشيخ؟

فقال له: أثقب اللؤلؤ.

فقال له المهدي: أتهزأ بخالي.

فقال: يا أمير المؤمنين: ما يكون جوابي له، وهو يراني شيخاً أعمى، ينشد شعراً.

فضحك المهدي، وأجازه». [1]

ويكاد تحرش أن يفرق بين زوجين، ويقيم قطيعة بين عائلتين، كان الزواج أوجد صداقة بينهما بعد عداوة، وكاد التحرش من رجل له مقامه، ومعترف بعقله، أن يؤدي إلى كارثة، والتحرش هذا جاء من الرجل لزوجته، إلا أنه في رأس المرأة عقل رزين، ومعها نظرة بعيدة، وأتت بتصرف متفوق، وأحسنت في تدبر الرد، وأجادت في إعطاء الجواب، مما أثلج صدر زوجها، وأفسح لها في قلبه، مكانا قصياً رحباً، دافئًا بالاعتراف بما حباها الله من الفضل، فقد أثبتت أنها من بيت لا يخرج إلا أناساً قد رُبُّوا التربية الفائقة، ونُشِّئوا النشأة التي تؤهلهم لأن

(١) الكشكول: ٢/ ٨٢.

يوجدوا صلة قوية في الرحم، ويحافظوا عليها، بتحمل ما قد يطرأ من أمر عابر معكر، أو سبب حادث، أوحى به شيطان.

والقصة التي نشير إليها هي كالآتي:

«حكى صاحب كتاب: «واجب الآداب»، قال:

وَقَعَ خالد بن يزيد بن معاوية يوماً في عبدالله بن الزبير، فأقبل يصفه بالبخل، وزوجته رملة بنت الزبير، أخت عبدالله جالسة، فأطرقت، ولم تتكلم بكلمة، فقال لها خالد:

ما لك لا تتكلمين؟ أرِضًى بما قلته، أم تَنَزُّهاً عن جوابي؟

فقالت: لا هذا ولا ذاك؛ ولكن المرأة لم تخلق للدخول بين الرجال؛ إنما نحن رياحين للشم والضم، فما لنا وللدخول بينكم؟!

فأعجبه قولها، وقام، وقبّل بين عينيها». (١)

مثل هذه السيدة الكريمة لا تفخر بها عائلة،

(١) تحفة العروس: ٢١.

ولا قبيلة، ولا جيل، ولا شعب، بل يفخر بها كل المسلمين والعرب؛ فما أبدته شيمة عربية أصيلة، وخلق إسلامي عالٍ.

ويخطئ رجل كبير مع امرأة ضعيفة، ليس لها ضلع ترتكز عليه في المجتمع، ولكن الله عون لمن اعتدي عليه، فيلهمه الرد الذي يشفي غليله، ويخزي قبيله، ويرد عنه الكيد، ويسلمه قصب السبق، في مباراة كلامية طريفة تروى هكذا:

«قال شداد الحارثي، ويكنى أبا عبدالله:

قلت لأمة سوداء بالبادية: لمن أنت يا سوداء؟

قالت: لسيد الحضر، يا أصلع.

قال: قلت لها: أولست سوداء؟

قالت: أولست أصلع؟

قلت: ما أغضبك من الحق؟

قالت: ألحق أغضبك.

لا تسب حتى ترهب، ولأن تتركه أمثل». (١)

---

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٧١.

إن هذا الحوار الساذج البسيط فيه من القوة ما أوصل إلى هذه الحقيقة الناصعة، والنتيجة الصادقة، إن المتتبع لمجرى الأمر بين الاثنين ليقدر بإعجاب موقف الفتاة، ولو قال لها شداد: يا جارية لما ضره، ولأدى الغرض، ولكسب رداً هادئاً إن كان هدفه الرد، ولكن يبدو أن الهدف التحرش، وقد جاءه رد لم يحسب حسابه، وإذا كان أراد أن يثير الجارية فقد أثارته، وإذا كان أراد أن يغضبها فقد وقع في سوء فعله، وإذا أراد أن يتسلى فقد انسلى بنار الرد الصاعق.

ويأتي رد هادئ، ساكن الحاشية، مضيء الجانب، من رجل لا يستغرب منه ذلك، لأنه أحد العلماء الذين زانهم علمهم، وجملتهم تجربتهم، فلنسمع لمن أراد أن يتحرش بالشعبي، ولكنه أخفق في أن يستفزه، أو يحرك منه، بل سكن ما كان يمكن أن يأتيه برد باقع، وبدلاً من ذلك جاءه برد وسلام، في جملة موزونة، يتلألأ فيها المنطق، وينبلج فيها صبح العدل، وإشعاع الحق:

«وقف رجل على عامر الشعبي، فلم يدع قبيحاً إلا رماه به، فقال له عامر:

إن كنتَ كاذباً فغفر الله لك، وإن كنتَ صادقاً فغفر الله لي». [1]

لابد من أن المتهجم المتحرش، إن كان في جسمه نقطة دم، خجل، وتمنى لو بلعته الأرض، وإن كان ميت الإحساس فلابد أن يقع في يد من يؤدبه في يوم من الأيام.

ويأتي الإسلام بنوره الساطع، فينسخ ظلمة الجاهلية، فيقضي نهاره على ليلها، ونوره يغسل ما في القلوب من أحقاد إلا قلب امرأة، إذا صدقت الرواية، بقي فيه شيء من الحقد، وبدأ الابراض في نبته المصوح، والقصة كالآتي:

«ذكروا أن امرأة عقيل، وهي فاطمة بنت ابنة عتبة بن ربيعة، قالت:

---

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٧٨.

يا بني هاشم، لا يحبّكم قلبي أبداً؛ أين أبي؟ أين عمي؟ أين أخي؟ كأن أعناقهم أباريق الفضة، ترد آنُفُهُم قبل شفاههم

قال لها عقيل: إذا دخلتِ جهنم فخذي على شمالك». [1]

يستغرب أن يحدث هذا من امرأة تزوجها أحد الذين لا تحبهم. كيف تزوجته إذاً؟ ثم ما الداعي لهذا القول وهي زوجته، هذا لا يقربها من زوجها. ولكن قد يكون هذا مما ركب على الأمويين في وقت كانت العداوة بينهم وبين بني هاشم على أشدها، فيأتي مثل هذا من حواشي بني هاشم وأنصارهم وحواشي بني أمية، لا من رؤسائهم، ومن المتعصبين لهؤلاء، وهؤلاء، وهم يتصورون ما يمكن أن يكون داخل النفوس وهماً وتخميناً، فيصيغونه في قصص محبوكة متقنة.

ويأتي التحريش من شخص يريد أن يجعل آخَرَ

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٣٢٧.

وسيلته لكسب موقف لا يستطيع أن يقابله جهرة، فيستثير آخَرَ، ويلفت نظره إلى حقه المظلوم، علهُ يتحرك في الوجهة التي هو موليه لها فيكسب معه حقاً يظنه مضاعاً عليه:

«استأذن أبو سفيان على عثمان ـ رضي الله عنه ـ فأبطأ إذنه، فقيل حجبك أمير المؤمنين؟

فقال: لا عدمت من قومي من إذا شاء حجب». [1]

إنه مما يليق بالخليفة أن يحجب من لا يرى أن الوقت يسمح بدخوله، حتى لو كان رجلاً مثل أبي سفيان، ولكن أبا سفيان أيضاً كان ملأ إهابه، فلا ينظر إلى نفسه، وإنما نظر للإطار العام لقومه، ولقد سره أن يكون من بينهم الحازم، الذي يفرض رأيه على مثله؛ إنه يشعر بالفخر أن حكمه في يد مثل هذا الحاكم، نافذ الارادة، مطاع الكلمة.

ومثل موقف الشعبي مع شاتمه نجد شخصاً آخر يقف الموقف نفسه، فيستحق عليه التقدير من أهل

(١) بهجة المجالس: ١/ ٢٦٦.

عصره، فيدونونه، ومنا، فنعجب به، ونستدل به على ثبات عقله، وزيادة فضله:

«قال خالد بن صفوان:

شهدت عمرو بن عبيد ورجل يشتمه، فقال:

آجرك الله على ما ذكرت من صَواب، وغفر لك على ما ذكرت من خطأ.

قال: فما حسدت أحداً حسدي عمرو بن عبيد على هاتين الكلمتين» .[1]

إنه في الحقيقة لم يحسده، وإنما غبطه، وكان بوده أنه هو الذي وقف هذا الموقف المحمود حقاً.

ومن صور التحرش تلك التي تبنى على المثالب المركبة على القبائل، ولعل بعضها من بقايا الجاهلية، وتركزت واحتدت عندما أصبحت البصرة والكوفة مدينتين تتجمع فيهما القبائل للغزو، وتنطلق منهما إلى الثغور، فتلامست القبائل هناك، وحدث احتكاك أعاد بعض النعرات جذعة، وأظهرت على

---

(١) بهجة المجالس: ٢/ ٦٠٨.

وجه الماء بعد أن حاول الإسلام أن يقضي عليها، ويحل محلها التآخي، والتصافي، والانصهار في بوتقة «إن اكرمكم عند الله أتقاكم»، والقصة الآتية تُرى نوعاً من التحرش ارتكز على هذا الجانب القبلي:

«قصد بعض الشعراء أبا دلف، فسأله أبو دلف: ممن أنت؟

فقال: من تميم.

فقال:

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا
ولو سلكت سبل المكارم ضلت

فقال الرجل: نعم، بتلك الهداية جئت إليك.

فخجل، وأسكته، وأجازه».[1]

إن عاقبة هذا التحرش، إن صح وقوعه، عاد على أبي دلف مُثيرهُ، بما لم يتوقع، وألجمه بلجام ضيق، لا يكاد يتنفس معه؛ ونحن نستغرب أن يأتي هذا من أبي دلف، ولو كان على سبيل المزاح. وتميم

(١) الكشكول: ٢/ ٧٣.

كثيراً ما يبكت عليها، ولعل القبائل العريقة والكبرى مثار لأمثال هذه الأقوال، لكثرة من يندرج تحتها من القبائل والعشائر، مما يجعل هؤلاء عرضة لعداء نتائجه توجه للقبيلة كلها.

ومن مظاهر التحرش ذاك الذي يعلن قبل الأخذ بأسبابه بأنه تحرش، وصاحبه يقدم عليه باصرار وتصميم، وقد ينصح بأن لا يفعل، وتبين له نتائج ذلك التحرش المتوقعة، وما قد يأتي عليه من ردود تجعل المتحرش يقول: كم من كلمة قالت لصاحبها دعني.

وهذه المظاهر تتكرر، وتكاد تتشابه، وهي موجودة في كل زمن، وفي كل مجتمع، يقدم عليها الصغير والكبير، والغني والفقير، والعاقل والجاهل، والرجل والمرأة، لما فيها من إغراء، لأنه لا يتبين منها إلا الجانب المضيء، والنصر الذي يظن صاحبه انه سيحوزه، ولهذا فإنه بعد أن يعصي الناصح، ويتجاهل قول المشفق، يندفع بقوة، ثم يفاجأ بأن

ما قيل له صحيح، وأن ما نصح به هو الحق، ويندم حين لات مندم، وفي القصة الآتية بعض من هذه الأمور:

«قال حوشب بن يزيد بن رؤيم لعبدالرحمن بن محمد بن الأشعث:

دعني أهيّج عليك عمّك أبا الفضل إسماعيل بن الأشعث.

قال: لا تعرضني له، فإنه ضعيف، فأشفق عليه.

فقال: يا أبا الفضل، إن ابن أخيك زعم أن بغلتك جلّالة.

قال: لكن بغلته لو أفلتت ما تركت بيت زانية، ولا خمار، إلا وقفت عليه.

قال عبدالرحمن: ما كان أغنانا عما أظهرت لنا من ضعف شيخنا»[1].

وبعض الناس يطيش سهمه، ويأخذ القول على

(١) كتاب البغال: ٣١.

أنه تحرش وإن لم يكن كذلك، وقد يكون ذلك عن سوء فهم، أو نتيجة خرق، فيرد على قولٍ لاشية فيه على أنه تحرش، والقصة الآتية فيها شيء من ذلك:

«قدموا إلى سليمان بن عبدالملك جديا سميناً، فقال لأبي السرايا، وكان من مجانين الأعراب: كل من شحم كليته، فإنه يزيد في الدماغ.

قال: لو كان الأكل من كُلى الجدي يزيد في الدماغ كان رأس الأمير أعظم من رأس البغل». [1]

ويلوم الناس الحجاج على قسوته على بعضهم، ولكن الحجاج أحياناً يكون هدفاً للتحرش، وقصداً للاستفزاز، والحجاج إذا التفت فإنه يلتفت بقوة، تُرى كيف تكون التفاتته لشاعر يهجوه:

«قال مالك بن الريب:

فماذا عسى الحجاج يبلغ جهده
إذا نحن جاوزنا حفير زياد

(١) وإنما قال «الأمير» لأن سليمان كان يومئذ وليّ عهد [كتاب البغال: ٣٦].

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف
كما كان عبداً من عبيد إياد
زمان هو العبد المقر بذله
يراوح غلمان القرى ويغادي[1]

وقال شاعر آخر:

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلكة ما ترى وآخر كالقمر الأزهر

وكليب هو اسم الحجاج عند ولادته كما يروى». [2]

والغريب أن الحجاج نفسه يتحرش، والأغرب أن يتحرش بعبدالملك، ولكن الاستغراب يزول عندما نرى ظلال الشك تغطي على هذه القصة، كما هي في كثير من القصص التي تُولَّد على الحجاج؛ والذي يجعل الرواية ضعيفة هو أنه لا يعقل أن يتحرش الحجاج بعبدالملك مفاخراً، وهو الذي يستدر عطف عبدالملك في كل خطوة يخطوها،

(١) هامش البيان والتبيين: ١/ ٢٥٢.
(٢) هامش البيان والتبيين: ١/ ٢٥٣.

ويراقبه في كل عمل يقدم عليه؛ بل لعله كان يبيع دينه لدنيا عبدالملك كما قيل عنه، ولكن القصة طريفة، وتتماشى مع موضوع مقالنا:

قال الحجاج بن يوسف لعبدالملك بن مروان:
لو كان رجل من ذهب لكنتُه.
قال: وكيف ذلك؟
قال: لم تلدني أمة بيني وبين آدم ما خلا هاجَر.
قال: لولا هاجَر لكنت كلباً من الكلاب». [1]

إن مثل هذا الجدل لا يتصور بحال من الأحوال أن يتم بين الحجاج وعبدالملك، فلا عقل الحجاج يتماشى مع ذلك، ولا أدبه مع عبدالملك، ولا ما عرف عنه من مداراته وخوفه منه، وهذا يدخل دون شك مع ما نحل على الحجاج، وما أكثره!

ومثل هذا ما يروى أحياناً مما يدعى أنه وقع بين معاوية وعمرو بن العاص، وهما منه براء، لأنه قول لا يليق بأحدهما، ولا ما عرف عنهما من عقل وبصر،

---

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٨٢.

ولا ما عرف عن احترام أحدهما للآخر، ولكنهما كانا مادة دسمة لخيال الأدباء يضعون عليهما الأخبار، ويعلقون عليهما تائه الأقوال، وينسبون إليهما ما يعن لهم من فكر طريف، ومنطق يرون إشاعته بين الناس، سواء في زمنهم أو بعد ذلك، والقصة التالية تُري نموذجاً من ذلك:

«قال المدائني:

رأى عمرو بن العاص معاوية يوماً يضحك، فقال له:

مِمّ تضحك، يا أمير المؤمنين؟ أضحك الله سنك!

قال: أضحك من حضور ذهنك عند إبدائك سوءتك يوم ابن أبي طالب. أما والله لقد وافقته منّانا كريماً، لو شاء أن يقتلك لقتلك.

قال عمرو: يا أمير المؤمنين، أما والله إني لعن يمينك حين دعاك إلى البراز، فاحولّت عيناك، وربا سحرك، وبدا منك ما أكره ذكره لك، فمن نفسك فاضحك أودع». [1]

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢٦٢.

إنها فكرة طرأت في ذهن من أراد أن يشوه صورة معاوية وعمرو، فصاغ ما قيل من أخبار معتادة في هذه القصة، محبوكة النسج، متقنة السبك؛ ولقد نجح في ذلك، فجعلها تمر بطيات الزمن مقبولة مُعْتَقَدَة، في حين أن حقها أن تكون مرفوضة مبتذلة!

والمواقف التي من هذا النوع جذابة للأدباء، يحبونها لأنها تعطيهم مادة، يصيغون منها عرضاً أدبياً، يدربون فيه أقلامهم، ويعرضون أفكارهم، فهذه الحروب التى أبعد زمنها، وكثر القول والوضع فيها، تسعفهم بما يريدون، وهذا ابن هبيرة يعيّر خالداً القسري على موقف من المواقف، فيرد خالد بما يتكافأ مع التحرش السافر:

«قال ابن هبيرة لخالد القسري:

فررت فرار العبد يا أبا المثنى!

قال: نعم، حيث نمت نومة الأمة عن عجينها يا أبا الهيثم» .(١)

---

(١) وقد وردت في «ربيع الأبرار»: «فررت مني.. حين نمت عني» ١/ ٦٧٥، البصائر: ٤/ ١٩٣.

أما معاوية وعمرو فلم يكن ما قيل في تحرش أحدهما بالآخر هو الأخير أو الأوحد، وإنما هو مَثَلٌ له أمثال، فمثلاً هناك قصة لمعت في ذهن أحد الأدباء فركبها عليهما، والفضل لبيتين وردا إلى ذهنه:

«ذكر المسعودي أن عمرو بن العاص لما قدم من مصر على معاوية أنشد معاوية:

يموت الصالحون وأنت حي
تخطاك المنايا لا تموت

فأجابه عمرو يقول:

أترجو أن أموت وأنت حي
ولستُ بميت حتى تموتَ»(١)

ولا أحد كان حاضراً عندهما عندما قالا ما قالا، فسارع إلى تسجيله، وإشاعته بين الناس!

إنه خيال الأديب الذي لم يستطع أن يأتي هذه المرة بغير هذا الشعر المتواضع، لهذا الهدف المسكين،

---

(١) تمام المتون: ٦٣.

ولكن فكرة الجدل بين معاوية وعمرو قد سيطرت على بعض العقول، فصار النحت عادة، اتخذت لها قاعدة، أصبحت ملحوظة.

ويتحرش كبير بضب من ضبان الصحراء، التي إذا حورشت ضربت بذيلها المشوك: أعرابي على الطبيعة، قوسه موتر، وبمجرد أن سمع قعقعة السلاح شدّ سهمه وأطلقه، نحو الهدف، له هسيس ورسيس، فندم الكبير على ما جاء من هذا الذي كان في نظره أقل من الاعتبار، هذا أيضاً إن صح الخبر، ولم يكن أحد أعداء نصر بن سيار قد ركبه عليه:

قال نصر بن سيار بخراسان لأعرابي:

هل اتخمت قط؟

قال: أما من طعامك وطعام أبيك فلا.

فيقال: إن نصراً حُمَّ من هذا الجواب أياماً، وقال: ليتني خرست، ولم أفه بسؤال هذا الشيطان». [1]

ومن التحرش الذي قد يكون منحولاً، أغرى

---

(١) الامتاع: ٣/ ١٠١.

بوضعه الفكرة القوية التي جاءت مع الرد، والفكرة الطريفة مثل ابنة المرء الظريفة، إنها عزيزة عليه، ومادامت ولدت فلابد أن يلبسها أحسن لباس، وأن يزوجها الكفء، ويقيم لها حفل عرس يعلم عنه القاصي والداني:

«قال أعرابي لابنه:

اسكت يابن الأمة.

فقال: والله إنها لأعذر منك، لأنها لم ترض إلا حرّاً».(١)

والجدل مذموم، خاصة إذا كان بين الأب وابنه، أو القريب وقريبه، أو الرئيس ومرؤوسه، وصدق الخليل حين قال:

«ما غلب جَدِل إلا جاء جَدِل آخر فغلبه، وما شيء أضر على الأديان، ولا أفسد بين الأخوان، من الجدل».(٢)

---

(١) البصائر: ٣/ ١١٦.

(٢) البصائر: ٣/ ١٢٧، ربيع الأبرار: ١/ ٦٧٤.

وقد حدد صاحب «ربيع الأبرار» بأن الاسكندر هو الذي عاب ابنه، وتحرش به:

«قال الاسكندر لابنه:

يابن الحجامة.

فقال: أما هي فأحسنت التخَيّر، وأما أنت فلا» .[1]

ومن مواقف التحرش التي جاء فيها الرد حاداً حاذقاً، ما حدث بين ابن مكرم، وأبي العيناء، المعروف بسرعة بديهته، وذكائه:

«قال ابن مكرم لأبي العيناء:

بلغني أنك مأفون.

قال: مكذوب علي وعليك» .[2]

وموقف مماثل في حدة التحرش، وسرعة الرد، وقصر الخبر:

«نظر رئيس إلى أبي هفّان، وهو يسار رجلا فقال:

فيم تكذبان؟

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٧٤.

(٢) ربيع الأبرار: ١/ ٦٧٧.

قال: في مدحك» .[1]

واستفز عمرو بن العاص أحد جنده، في موقف إن صح فهو موقف صعب، قلت فيه أعطيات الجند، فأثار هذا الجند:

«منع عمرو بن العاص أصحابه ما كان يصل إليهم، فقام إليه رجل فقال: اتخذ جنداً من الحجارة، لا تأكل ولا تشرب.

فقال عمرو: إخسأ ياكلب.

فقال له الرجل: أنا من جندك، فإن كنتُ كلباً، فأنت أمير الكلاب، وقائدها» .[2]

ومثله رد أحد الغلمان على سيده:

«قال رجل لغلامه:

يافاجر.

فقال: مولى القوم منهم» .[3]

ونمر بالأحنف، وحلمه، وسعة صدره، وأخذه

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٧٧.
(٢) أخبار الظراف: ١١٧.
(٣) أخبار الظراف: ١١٧.

الأمور بالأناة، وكأنه موكل بأبناء مجتمعه، يؤدبهم برفق، ويهديهم الطريق بأبوة وعطف، يهاجمونه فيبتسم، ويغلظون عليه فلا يثور، ويتحرشون به فيستدرجهم إلى التبصر فيما قالوا، وما كان عليهم ألا يقولوه، ويود لهم الخير، مقابل ما أرادوا له من شر، وهذا موقف له أمام تحرش لم ينزل الله به من سلطان، تحرشٍ، إن صح، فهو متجنٍّ ظالم:

«قال رجل للأحنف:

بأي شيء سدت تميما؟ فوالله ما أنت بأجودهم، ولا بأشجعهم، ولا أجلهم، ولا أشرفهم.

قال: بخلاف ما أنت فيه.

قال: وما خلاف ما أنا فيه؟

قال: تركي ما لا يعنيني من أمور الناس، كما عناك من أمري ما لا يعنيك» (١).

ويتحدى حضري أعرابي، ويتحرش هذا بهذا، فيجيب الأعرابي جواباً مقنعاً، وينجح في قبول التحدي:

---

(١) الامتاع والمؤانسة: ٣/ ١٧٣.

«قال بعض العمال لأعرابي:

ما أحسبك تدري كم تصلي في كل يوم وليلة.

فقال: أرأيت أن أنبأتك بذلك، تجعل لي عليك مسألة؟

قال: نعم.

قال الأعرابي:

إن الصلاة أربع وأربعُ ثم ثلاث بعدهن أربعُ
ثم صلاة الفجر لا تُضَيَّعُ[1]

قال: قد صدقت، فسل.

قال: كم فقار ظهرك؟

قال: لا أدري.

قال: أفتحكم بين الناس وأنت تجهل هذا من نفسك»[2]

إن الخليفة لو علم بهزيمة عامله هذه أمام هذا الأعرابي لفكّر في عزله، لتحرشه أولاً، ولضعف

(١) في المنتقى يعزو الرجز هذا إلى عمر بن الخطاب في قصة أوردها: المنتقى: ٩٩.

(٢) عيون الأخبار: ٢/ ٧٣.

معلوماته عند قوة معلومات هذا .

وكثيراً ما يجهل الإنسان ما حوله، رغم أنه يراه مجموعاً، ولكنه لم يفكر في إحصائه وعده، مثل القاضي الذي غلبه أحد المتقاضين عندما سأله عن عدد سواري المسجد، وهو يقضي فيه منذ سنوات، فتبين له أنه لا يدري، ولم يفكر في أن يعدها أو يحصيها!

وقد يأتي التحرش في سلسلة طويلة منه، فلا يلاقي تجاوباً يذكر، ولا يقابل صاحبه بما يزعجه، لظرف أوجب ذلك، وهناك قصة تروى بأوجه عديدة، تروى عن معن بن زائدة، لأنها تتناسب مع ما عرف عنه من حلم وكرم.(١)

ويرويها الأصمعي عن واحد آخر، وهذه رواية الأصمعي:

«كان أعرابيان متواخيين بالبادية، فاستوطن أحدهما الريف، واختلف إلى الحجاج بن يوسف، فاستعمله على أصبهان، فسمع به أخوه الذي بالبادية،

(١) انظر: رجال من التاريخ، للأستاذ علي الطنطاوي: ٣٣٥.

فضرب إليه؛ فأقام ببابه حيناً لا يصل.

ثم أذن له بالدخول، فأخذه الحاجب، فمشى وجعل يوصيه، ويقول: سلم على الأمير، فلم يلتفت إلى وصيته، وأنشأ يقول:

ولستُ مسلما مادمت حيّا
على زيد بتسليم الأمير

فقال زيد: إذاً لا أبالي.

فقال الأعرابي:

أتذكر إذْ لحافك جلد شاة
وإذ نعلاك من جلد البعير

فقال: نعم، إني لأذكر ذلك.

فقال الأعرابي:

فسبحان الذي أعطاك ملكاً
وعلمك الجلوسَ على السرير

قال: فأدناه، وسأله، وأمر له ببغلة، فركبها وانطلق، فإذا هي نفرت، وألقته صريعاً فأنشأ يقول:

أقــول للبغــل لمــا كــاد يقتلنــي

لا بــارك الله في زيــد ومــا وهبــا

إذْ جاء بالبغل لما جئت سائله

وأمسك الفضة البيضاء والذهبا[1]

ولعل التحرش سوف يستمر مع هذا الأعرابي في كل أمر حضري يقابله لم يتعود عليه، وسوف يتحمل زيد الملامة، وتتوالى عليه صواعق الاستفزاز، حتى يتعلم هذا الأعرابي ويتحضر، أو تستدعيه أمه الرؤوم الصحراء، بِجَمَلِهَا الذي لا يوقع فيصرع، وسوف يتدفأ بفروة الشاة وجلدها، وتطمئن نفسه بذلك، وبالنعل الذي صنع من صفحة جلد البعير!

ويبدو أن خدمة الحجاج مفتوحة لكثيرين من أبناء البادية، وتنقلهم هذه الخدمة من حضارة إلى حضارة، ومن حالة إلى حالة، وتأتيهم بالملامة والتحرش اعتناءً وقصداً، أو صدفةً ومفاجأةً ويتصارع اللوم والعتب والتحرش أيهما يسبق،

(١) المنتقى: ١٥٥.

فيخدم صاحبه، ويأخذ له حقه، ممن أثار هذا العتب والتحرش، بنية صافية، وغرض نبيل، ولكن الجانب الآخر، وهو بعيد عن الرقة والراحة، لم يأخذ الأمر كما أريد له، بل أخذه كما يريده هو له:

«كان رجل من أهل الشام مع الحجاج بن يوسف، وكان يحضر طعامه؛ فكتب إلى أهله يخبرهم بما هو فيه من الخصب، وأنه قد سمن.

فكتبت إليه امرأته:

أتهدي لي القرطاس والخبز حاجتي
وأنت على باب الأمير بطين
إذا غبتَ لم تذكر صديقاً وإن تقم
فأنت على ما في يديك ضنين
فأنت ككلب السوء في جوع[1] أهله
فيهزل أهل الكلب وهو سمين[2]

وإذا اجتمع شباب من الحاضرة، ووقع في يدهم

(١) في بهجة المجالس: «جَوَّعَ أهله».
(٢) الحيوان، للجاحظ: ١/ ١٩٢، بهجة المجالس: ٣/ ٤٨.

أعرابي، كملت لهم شروط المداعبة، والمداعبة تنقلب إلى تحرش أحياناً، وفي موقف من هذا القبيل انتصر فيه الأعرابي انتصاراً بارعاً، والسبب أن الحضريين استهانوا بالأعرابي، ونسوا أن له حضارة غذاها عقل صاف، نما في صحراء كل ما فيها نقي الجوهر:

«قال فتى من أهل الكُتَّاب:

كنا في طريق مكة بالخزيمية، فأتانا أعرابي بكمأة في كساء قدر ما أطاق، فقلنا:

بكم الكمأة؟

قال: بدرهمين.

فاشتريناها منه، ودفعنا الثمن إليه، فلما نهض قال له بعضنا:

«في است المغبون عود»

قال: بل عودان.

وضرب الأرض برجله، فإذا نحن على الكمأة»[1].

لقد أراد الفتية الحضر أن يضحكوا من هذا الأعرابي

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ٣٠٥.

في بيئته وعلى أرضه، والإنسان مهما كان قليل العدد على أرضه فهو عزيز، ألا ترى كيف أن فريق كرة القدم يختلف أداؤه عندما ينتقل من ملعبه في بلده إلى ملعب خارج بلده، حتى ولو كان هذا الملعب أحدث تجهيزاً، وأكمل أداة. لقد كان هذا في ذهن الذين فكروا في جامعة الملك سعود وإنشائها، وكيف أن الطالب السعودي سوف يشعر بالعزّة، وقوة النفس، وهو يدرس في بلاده، وهو ما لا يشعر به في جامعة عربية أخرى، مهما كان تقدمه، وارتفاع درجاته.

والدراسة في الغربة لا تبهج الروح، وهذا يؤثر على التحصيل، وقد أدركت جامعة الملك سعود هذا، فأخذت معيدين لم يحصلوا في الجامعات العربية إلا على جيد، ولكنهم بعد أن بقوا في جامعة الملك سعود سنتين معيدين، ثم ابتعثوا إلى انجلترا وأمريكا صعدوا السلم هرولة، وأخذوا أعلى الدرجات في أقصر المدد، وعادوا بالدكتوراه، وأصبحوا من أبرز مَنْ في حقلهم وتخصصهم بين أساتذة الجامعات

العربية، ومنهم المتفرد بتخصصه لا يدانيه إلا القليل ممن حاول ونجح.

وليس الإنسان وحده هو الذي يتحرش ويستفز، بل إن الحيوان قد يفعل ذلك، ولو عن غير قصد، ولكنه يصل إلى النتيجة التي يصل إليها صاحب القصد، والمثل الآتي يصور ذلك:

«قالوا: أحشك وتروثني.

أي: أوليك خيراً، وتوليني شراً.

والأصل في ذلك أن رجلاً كان يَحْتَشُّ لفرسه بقربه، فراث على رأسه فقال له:

أحشك وتروثني» .(١)

ويلمع نجم امرأة عاقل مرة أخرى حين لم تنجرّ أمام تحرش عرض لها، فغلبها أدبها وتربيتها وسنها ونضجها إلا أن تعلو بخلقها، فترد رداً جميلاً، بل إن ردها أبعد في الجمال حيث مدحت المحرش، لإنه أهل للمدح، ولو جاء ردها قاسياً لقبل منها لسنِّها،

(١) المحاسن والمساوىء: ٤٥٧.

بل لعل الخليفة المتحرش خاب أمله عندما أخفق في استثارتها، ولكنه استعاض بلذة وجود مثل هذه المرأة بين أفراد شعبه، والحاكم الحقيقي هو الذي يغلي مثل هذه الجواهر بين أفراد شعبه، فهم درر في تاجه، بهم يباهي، وبهم يفخر؛ ولا يرفع رأسه بين الشعوب الأخرى الخامل أو الإنسان العادي؛ ولهذا صبر عبدالملك بن مروان على عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - حينما تأخر في الدخول في سلطانه، والقصة هكذا:

«قال عبدالملك بن مروان، وقد استقام له الأمر:

من يعذرني من عبدالله بن عمر، فإنه أبى أن يدخل في سلطاني.

فقال بعض جلسائه: يستحضر، وتضرب عنقه، وتستريح منه.

فقال عبدالملك: ويلك! إذا قتلت ابن عمر، على من أكون أميراً؟!»[1].

---

(١) سراج الملوك: ٣٥٢.

والمرأة المؤدّية عجوز من طيء، والخليفة المهدي، والقصة هكذا:

«وقف المهدي على امرأة من بني ثعل فقال لها: ممّن العجوز؟

قالت: من طيء.

قال: ما منع طيّئًا أن يكون فيها آخر مثل حاتم؟

فقالت: الذي منع العرب أن يكون فيها آخر مثلك.

فأعجب بقولها، ووصلها» .(1)

وإذا كان من العجب أن يتحرش الحصان بصاحبه بالصورة التي ذكرناها، فإن إبليس يأبى إلا أن يتحرش، ومتى لم يكن يتحرش! إنه حاول أن يتحرش بعيسى عليه السلام:

«حكي عن إبليس ـ لعنه الله ـ أنه حين ظهر لعيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ قال: ألست تقول، إنه لن يصيبك إلا ما كتبه الله عليك؟

(1) المحاسن والمساوىء: ٤٥٩.

قال: نعم.

قال: فارم نفسك من ذروة هذا الجبل، فإنه إن يُقَدَّر لك السلام تسلم.

فقال له: ياملعون، إن لِلّه أن يختبر عباده، وليس للعبد أن يختبر ربه» .[1]

لقد أراد إبليس أن يجر عيسى ـ عليه السلام ـ إلى طريق مظلم رسمه له، ولكن عيسى ـ عليه السلام ـ تركه في طريقه، وسلك طريقاً منيراً موصلاً، إهتدى إليه بإيمانه، وسلامة عقيدته التي هيأها الله ـ سبحانه وتعالى ـ له.

إن نصوص التحرش في الأدب العربي كثيرة، لا تكاد تحصى، منها الواقع فعلاً، ومنها المتخيل، المبني على صور قائمة في المجتمع، في فترة من الفترات.

وإذا كان ما ذكرناه جاء كله في حقل الكبار، فإن للصغار تحرشاً يكادون يكونون الخبراء الوحيدين فيه، وما أكثر تحرشهم، لأن التحرش يصاحب

---

(١) أدب الدنيا والدين: ١٥، الكشكول: ٢/ ٢٧٨.

نقص العقل، ولهم من هذا في سنهم المبكرة النصيب الأوفر.

ولاشك أن إبليس وجنده يعتبرون هذا سلاحاً مسنوناً، يأتي لهم في أغلب الأحيان بمردود يبهجهم؛ وقد يعمدون بدءاً إلى الإغراء بالطريف منه، ثم تدريجاً يدخلون الشخصين في لجة من محيط العراك والشقاق، قد تنتهي بالموت، وبالحرب بين مجتمعين.

الناس والفشر[1]

الفشر كلمة عامية ـ كما تبين لي بعد مراجعة المعاجم ـ لها معناها المحدد فيما تستعمل له، وأول ما سمعتها في مصر عندما ذهبنا طلابَ بعثة للجامعات هناك، وأَخَذَت مكانها في أذهاننا، وبدأ معناها يتحدّدّ بدقة حسب حوادث الفشر التي نمر بها، ولكل جديد لذة، فكان لهذه الكلمة لذتها عندنا لجدتها، وطرافتها التي جاءت مما تستعمل له.

ولم أجد عندنا كلمة في نجد على الأقل تعادلها[2]، وأقرب كلمة لها في الفصحى هي الكذب، ولكن الكذب يشمل كل ما هو غير صحيح، أما هذه فلا تعني إلا الكذب الذي يضخِّم صغيراً، أو يصغر ضخماً، أو يُصور وجود شيء لا يمكن أن يكون، أو حادثاً لا يمكن أن يحدث، أو

---

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٣٣٧) في: ١٤١٥/٦/٢٣هـ الموافق: ١٩٩٤/١١/٢٦م.

(٢) إلا كلمات محلية: نتش، هجص، فلت، هفت.

عملاً فوق طاقة البشر، أو وصفَ حيوان لا وجود له من صفاته ما يدهش.

هذه بعض دلائل الفشر، ولهذا فمجاله أضيق من الكذب، ويزيد عنه ويختلف في أنه يصاحبه طرافة، وتحيط به متعة في الغالب، وحتى إذا علمتَ أن ما يقال ـ وفي الغالب تعلم ـ كذبٌ فأنت تتطلع إلى أن تسمع الحديث حتى نهايته، وربما تستعيده من قائله، وترويه قائلاً له فيما بعد.

وكما قلت فالقواميس لا ترد فيها كلمة «فشر» بهذا المعنى، وأقرب صورة لفظية لها في المعاجم الأساسية القديمة هي كلمة: فشخ، وقيل فيها إن الفشخ هو اللطم والصفع في لعب الصبيان، وقيل الكذب فيه ـ أي في اللغة، وهذه أقرب الكلمات في معناها للفشر الذي نصفه.

وفشخ الصبيان في لعبهم فشخاً أي كذبوا وظلموا، والفشر فيه كذب لأنه خارج الحقيقة، ولأنه إما زائد عليها، أو قاصر دونها، وقال صاحب

القاموس إن الفشار تستعمله العامة بمعنى الهذيان وكذلك التفشير وليس في كلام العرب.

واعترفت المعاجم العربية الحديثة بالكلمة العامية، وأدرجتها ضمن كلماتها، ومن ضمن هذه المعاجم: «المعجم العربي الأساسي» الذي أصدرته المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، وقال عن كلمة فشر:

«فشر يفشر فشراً، فهو فاشر وفشّار، بمعنى كَذَب وادعى باطلاً. وفشار: كذاب مبالغ في كذبه، وجمعها فشارون». وبعد:

فما هو الفشر في مدلوله، وما يكمن وراءه؟

إذا كان الكذب تحكمه ناحية نفسية، تدفعه بقوتها إلى أن يتشكل طوع صاحب الكذب، وما في داخل نفسه من هدف، فكذلك الفشر تحكمه ناحية نفسية، قد تكون مركب النقص بصورة أو أخرى، أو رغبة في صيد إعجاب الآخرين، وكسب مودتهم؛ ومركب النقص قد يكون لملء فراغ في النفس، كأن

يكون صاحبه خاليا مما يجعله مرموقاً في مجتمعه، فيحاول أن يعوض بادعاء أعمال بطولة لم تحدث، أو أن يكون منزوياً في دائرة مظلمة فيجد أن زاوية الضوء تكمن له في الفشر، الذي سوف يلفت إليه الأنظار، وهناك أناس في التراث ثبت أنهم كانوا فشارين، واستطاعوا بهذا أن يلفتوا إلى أنفسهم الأعين، ويديروا إلى أنفسهم الرؤوس، ويصبحوا حديث الناس هم وأحاديثهم، ولم يكتف الأدباء بسماع ذلك منهم، بل أثبتوه مبيّنين طبيعته، وأنه فشر؛ وأحياناً قبلوه على أنه حقيقي، ونحن الذين، بما عرفناه من علم، لا نقبله إلا أنّهُ فشر، والعقل يعضدنا.

ولعل من أقرب قصص الفشر عند العرب القصة الآتية:

«قال أبو حيّة النّميري ـ وكان كذّابا ـ عنّ لي ظبي، فرميته، فراغ عن سهمي فعارضه ـ والله ـ السهم؛ فراغ، فراوغه السهم، حتى صرعه ببعض الخبارات».

وقال في قصة أخرى:

«رميت ظبية، فلما نفذ السهم ذكرتُ بالظبية حبيبةً لي، فشددت وراء السهم، حتى قبضت على قُذَذِه» .[1]

لا أحد يشك في أن هذا فشر، وأنه كذب مضخم، خارج عن حدود ما يقبل، ومع هذا فأبو حيّة يرويه جاداً، ومجتمعه يراه مسلّيا، وهو يؤرخ لعقل وجد في ذلك الزمن، وله أمثلة في أزمنة أخرى.

وأبو حية في خياله سبق الصواريخ الموجهة التي تذهب بعيداً، وهي في طريقها تحيد عما يعترض طريقها يميناً ويساراً، وإلى أعلى وأسفل، حتى تصل إلى هدفها، وكأن في داخلها عقلاً بشرياً يدبرها، كما فعل سهم أبي حية. وسبق خياله الصواريخ المناورة للطائرات التي تتبعها أين اتجهت، وتناورها أين ذهبت، حتى تصيبها.

وأبو حية استفاد من ثقافته الأدبية، فلقد علم أن

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٣٣.

أحد مجانين العشق العذري أطلق ظبية من شبكة كان نصبها، لأن الظبية أشبهت حبيبته، فاستعاد أبو حية الصورة الجميلة من مخزونه الأدبي، ولكنه أضاف إليها شيئاً من فنه الذي انفرد به، وخياله الذي تخصص فيه؛ فلم ينصب شركاً للظبية، ولكنه أرسل سهماً، وهذا أتاح له أن يكمل القصة على طريقته، ولقد كانت سرعته فائقة إلى الحد الذي تعدّى خياله فيه خيال «أبي لمعة»، وهو يفشر على الخواجه «بيجو».

وكان أبو لمعة في إحدى حلقات برنامجه المشهور «ساعة لقلبك»، متجلياً في جلسة من جلسات الفشر التي جعلت خواجه بيجو يفغر فاه من الدهشة، وهذا الفشر كان مركزاً على السرعة، فادعى أبو لمعة أنه يوماً من الأيام كان مسرعاً بسيارته، ودار على الميدان بسرعة فائقة، إلى حدّ استطاع معه أن يقرأ رقم لوحة سيارته الخلفي!![1]

---

(١) ويغلب أعرابي أبا لمعة حين يقول: «لو ترسل الريح جئنا قبلها» الكامل للمبرد: ٢/١٠١٢.

وأبو حية وأمثاله سُرُج فكاهة مضيئة في مجتمعهم، يجد الناس في الاستماع إليهم راحة، رغم أنهم يعرفون أنهم يكذبون، ولا أنسى شخصاً معاصراً، شكله محترم، ونطقه رزين، ويشارك بوجاهة في المناسبات الاجتماعية، ولكن له جانباً ممعنا في الفشر، يعرفه أصدقاؤه ومجتمعه؛ وإذا ما التفّ جمعهم في إحدى الأمسيات، وحضر مجلسهم، «نبشه» أحدهم، وسأله عن جلسته في البر وحده، والضيوف الذين جاؤا لمؤانسته.

ويبدأ يروي قصة خيالية، عناصرها مجمعة من هنا، وهناك، تنتهي صورتها إلى أنه وهو قاعد يحمس القهوة، ويهيء أكله، حضرت عنده ذئاب، ثم لما دنت سلمت، ثم أقعت أمامه، وجاذبته الحديث، والحديث يزيد وينقص في كل مرة يروي الرواية، ولا هو يتراخى في الاستجابة لطلب قص القصة، ولا أصدقاؤه وجلساؤه يملون طلبها، والإلحاح في ذلك.

وليست هذه القصة الوحيدة، فهناك قصص أخرى فيها إنجاز متخيل، ونخوة مُدَّعاة، وما إلى ذلك من فشر لا يحده حد، ولا يقف في طريقه شيء.

ويأتي الفشر أيضاً من التراث، مصوراً مصدراً من مصادر التسلية، المركبة على الخيال الجامح، ولكنه لا يخلو من صورة جمال أخاذ، قد تغلب فيما تدخله من سرور الحقيقة، ومن أمثلة ذلك الرواية الآتية:

«قال رجل من آل حارث بن ظالم ـ مشهور بالكذب ـ:

والله لقد بلغني أن الحارث غضب يوماً، وانتفخ في ثوبه، فندر من عنقه أربعة أَزْرَار، ففقأت أربع أعين من أعين جلسائه». (1)

إن الأزرار لسلاح طريف، لم يعرف عنه من قبل، ولا ندري ما حدث للمغضوب عليه أو عليهم، وربما كانوا هؤلاء الأربعة أنفسهم الذين نالوا جزاءهم على إغضاب هذا الرئيس الخطير، ولا يستبعد أن

---

(1) البصائر: ٢/ ١٦٣، وربيع الأبرار: ٢/ ٣٦.

تكون الأَزرار تأتمر بأمر الحارث، وتعرف رغبته، ولهذا انطلقت إليهم، لها أزيز وحفيف!

ويبدو أن الفُرْس لهم فشرهم أيضاً، ولعل المجد الذي كان لملوكهم؛ والذي كثيراً ما ضخموه، وأضفوا عليه من الرونق، ما جعل تاريخهم فيه كثير من الوضع والتوليد، لم يكفهم، فأخذوا يركبون على ملوكهم ما لا يقبله العقل، ومن هذا النوع القصة الآتية:

«يقال: إن مما فضل به كسرى أن مِنْطَقَته كانت ستة عشر شبراً، وجيبه كان سبعة أشبار، وكان يأكل كل يوم مهراً مشوياً من الخيل، وعناقاً زرقاء حمراء، مغذاة بألبان النعاج، يذبحان بسكين من ذهب، ويسجر له التنور بالعود حتى ينتهي منتهاه، ويسمط ما يسمط بالخمر المغلي بالمسك، ويطلى بالعنبر والمسك والملح، ويعلق في سفّود من ذهب، ورياحين من ذهب، وسكين من ذهب، فإذا برد حمل ووضع على خوان من ذهب، فيه أربعة آلاف دينار.

ويقدم إليه، فيتناول منه ما أحب، ثم يتحف به من أحب من ندمائه، ويكسر التنور، ويجدد كل يوم مثله، وكان له في كل يوم لون ينفق عليه أثنى عشر ألف درهم، يخرج لؤلؤة صفراء قد شريت باثنى عشر ألف درهم، وتسحق في ذلك اللون، يتداوى به..»[1].

والفشر عن ذلك لم ينته، وما بقي منه فهو مثله في الأغراق في الخيال، والبعد عن الحقيقة، واكتفيت منه بما مرّ، وفيه الكفاية.

وهذا الفشر الفارسي تعدى الحدود، فقد أدخل كسرى في حدود مقاسات عوج بن عنق، فلنا أن نتصور وسط كسرى وعرضه ستة عشر شبراً، ولم يعد خصره بهذا يسمى خصراً، بل جذع شجرة معمّرة، ثم جيبه وسعته سبعة أشبار، فهل جيبه في ثوبه، أو أن كسرى وثوبه في الجيب. وهذا يذكرنا بموقف معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ مع ربيعة بن

(١) البصائر: ٢/ ٨٠.

عِسْل، أحد بني عمرو بن يربوع، عندما قال ربيعة لمعاوية: «هَب لي مئة ألف جذع لداري». قال معاوية: فدارك في البصرة، أو البصرة في دارك؟![1]

وحاول الفشار الذي جاء بهذا الوصف عن كسرى ألا يترك شيئاً ضخماً أو ثميناً إلا جاء به، ووضعه ضمن وجبة غداء كسرى، فاللحم مهر، ولولا أن لحم ابن الفيل، ولحم فصيل الناقة لا يصلحان للملك لكان جاء بأحدهما.

وأثمن الجواهر والمعادن أدخلهما في أماكن قد لا تصلح لها، فالسكين مثلاً إذا كانت من ذهب، فهي حتما لا تقطع، لأن الذهب لين، ولا يصلح أن يأتي منه حد يقطع حنجرة المهر، ولا أدري هل في الوجود عناق زرقاء حمراء، حتى تُغْذَى بألبان النعاج، فإن كان المقصود بالنعجة الشاة، فمن الطبيعي أن ترضعها العناق لأنها أمها، وإن كان المقصود النعامة، فلا ثدي للنعامة!

---

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٢٦٠.

ثم ما قيمة عود البخور حتى تميز ناره، إلا إذا كان القصد الرائحة، فهذا معقول، وكان يكفي جزء صغير منه، حتى يعطي الرائحة المطلوبة، ويقضي على ما قد يكون هناك من رائحة الزفر والشحوم.

وطلاء اللحم بالعنبر والمسك ليس ميزة بحال من الأحوال، لأن الاثنين من المرارة بحيث يجعلان الطعم غير مقبول، بله لذيذ، وجزى الله الفشار خيراً إذْ لم ينس الملح المسكين، فأشركه في الأمر إشراكاً على الهامش والحاشية، وكان تعوَّد أن يكون له مقام محمود بارز على مائدة العامة، لكنه هنا رضي أن يكون مذكوراً ذكراً متواضعاً على مائدة كسرى، وهذا خير له من أن ينسى البتة.

ثم ما هذا البطن الذي سوف يتحمل كل هذه الوليمة، وهذه الأبازير الثقيلة البغيضة الطعم، الغالية الثمن! خاصة وأننا لم نر شيئاً ذُكِر غير اللحم، ولا يعقل أن لا يأكل كسرى إلا اللحم، إلا إذا كانت هذه عادة الموسرين عندهم!

ثم هذا البطر والاسراف في كسر التنور كل يوم وصنع جديد، ليستعمل لمرة واحدة فقط، ولعل البطر والإسراف هو المقصود في كل ما ذكر، وإلا فلِمَ يظهر غِنَى كسرى وثراؤه، واستهانته بالمال؟

ولم نسمع عن لؤلؤ أصفر، ولكن عِلْمَنَا في هذه الأمور محدود، وقد يكون هناك لؤلؤ أصفر وأحمر، وهذا يبطل ما تعودنا أن نصف به أسنان الفتاة الجميلة بأنها عقد من اللؤلؤ؛ ولم نكن نقول: اللؤلؤ الأبيض، لأن اللؤلؤ في عرفنا لا يكون إلا أبيضاً!

ولو دخل القوم في مسابقة فشر لأخذ صاحب هذا الخبر الفارسي قصب السبق، ونال الجائزة بحق.

ويبدو أن الأكل مجال مقبول لأمور الفشر، ويكاد عِظَم الحيوان المذبوح المطبوخ يكون هو المحور الذي يدور حوله الفشر، والقصة الآتية نموذج يتكرر بين آن وآخر في قصص صحراء العرب، مما يزخر به التراث:

يقول الثعالبي: قال الأصمعي: عن معتمر بن سليمان، عن أبيه قال:

قلت لهلال بن الأسعر: ما أكلة بلغتني عنك؟

قال: نعم، جعتُ جوعة وأنا على بعيري، فنحرته وأكلته إلا ما حملت على ظهري منه» . (١)

والجمل ليس حيواناً صغيراً يمكن أن يتصور أن تحتوي عليه معدة إنسان؛ إن معدة الجمل يمكن أن يجلس فيها الإنسان إلى نصفه! ولا يخفف فشر هلال ما قال إنه حمل منه على ظهره، فلا يمكن أن يحمل جزءاً منه في بطنه وجزءاً على ظهره! والفشر هنا ظاهر ظهور الشمس في رابعة النهار في يوم صيف.

والكتاب مغرمون بتعليق أخبار معينة على أناس معينين، ممن اشتهروا بأمر ما، وهذا الأمر يدخل ضمن حيز المعقول، إلا أنهم يبدؤون يزيدون ويغالون إلى أن يدخل ما يصلون إليه ضمن المستحيل.

(١) مجالس ثعلب: ٢/ ٤٦٤، الأغاني: ٣/ ٦٥.

وهلال بن أسعر قيل عنه أنه قوي وشجاع، وقد يكون ضخم الجثة، وقد يكون أكولا في حدود ما يُسمح بتصوره لرجل ضخم وقوي، إلا أن ما يذكر عنه زاد عن الحد.

وليست هذه هي القصة الوحيدة عنه، فهناك قصة أخرى، فيها من المغالاة ما يؤكد أنها تدخل في الفشر الذي نتكلم عنه، والقصة يرويها صاحب عيون الأخبار:

«قال الأصمعي:

دعا عبّادُ بن أخضر هِلالَ بن أسعر إلى وليمة، فأكل مع الناس حتى فرغوا؛ ثم أكل ثلاث جفان تُصنع كل جفنة لعشرة أنفس، فقال له: شبعت؟

قال: لا.

فأتوه بكل خبز في البيت، فلم يشبع؛ فبعثوا إلى الجيران، فلما اختلفت ألوان الخبز علم أنه قد أضّربهم فأمسك.

فقالوا: هل لك في تمر شهريز[1] بلبن؟

---

(١) شهريز اسم مكان، وتمره ضرب من التمر ينسب إليه، مشهور.

فأتوه به، فأكل منه قواصر[1] ، فقالوا له: أشبعت؟

قال: لا.

قالوا: فهل لك في السويق؟

قال: نعم.

فأتوه بجراب ضخم مملوء.

فقال: هل عندكم نبيذ؟

قالوا: نعم.

قال: أعندكم ثور[2] تغتسلون فيه من الجنابة؟

فأتي به، فغسله، وصب السويق، وصب عليه النبيذ، فمازال يفعل ذلك حتى فني». [3]

وواضح أن مركب الخبر على هلال فشار خبير في أمور الطبخ والأكل، ولكنه أخفق أن يخفي التلفيق في كل ما ذكره، أو أن يقرب الأمر من المعقول والقبول.

---

(١) القواصر: جمع قوصره، وهو وعاء للتمر من قصب.

(٢) إناء كبير من نحاس أو حجر.

(٣) عيون الأخبار: ٣/ ٢٤٩، الأغاني: ٣/ ٦٥.

والمتصور لأكبر بطن عرف عنها الشرهُ يمكن أن يقبل أكل جفنة أو جفنتين، أما الإضافات الأخرى فهي فشر وخيال بلاشك، وهل يعقل أن تكون معدة رجل واحد أكبر من معدة ثلاثين، مضافاً إليهم مثلهم، إذا أضفنا إلى الجفان ما جاء بعدها.

وفي أثناء الأكل، وبعد أن عرف أن أهل البيت بدؤا يستعينون بجيرانهم، ويطلبون نجدتهم، أمسك عن الأكل؛ والمتوقع أن يفرح أهل البيت بذلك، لا أن يحاولوا أن يشجعوه على زيادة الأكل، ويغروه بما يفتح شهيته من جديد، مرات ومرات.

ولقد نسي القاص «النتاش» الفشار، أن جميع ما ذكر في الخبر بالتفصيل جاء بعد أن أكل هلال مع المدعوين، والمفروض أنه قطع مرحلة من الأكل، قبل أن تأتيه الزيادات التي تمثل وليمة أخرى كاملة.

ولكن يبدو أن الفشار أعجبه الأمر، وبدأ به فلم يرد أن يتركه، حتى يجعل لكل نوع من الطعام نصيبه الوافي من معدة هلال، التي أصبحت نجماً من

نجوم الوضع والنحل والتدليس.

وفرح الفشارون أن يجدوا شخصاً مثل هلال يعلقون عليه طموح خيالهم، ويدهشون السامعين والقارئين، ويسرون الوراقين، الذين في انتظار المزيد مما يطلب في سوق الكتب، وفي دنيا الأدب، وهذه قصة أخرى عن كثرة أكله:

حدث صدقة بن عبيد المدني قال:

«أولم عليّ أبي لما تزوجت، فعملنا عشر جفان ثريداً من جزور، فكان أول من جاءنا هلال بن أسعر المازني، فقدمنا إليه جفنة فأكلها، ثم أخرى ثم أخرى، حتى أتى على العشر، ثم استسقى فأتي بقربة نبيذ، فوضع طرفها في شدقه، ففرغها في جوفه، ثم قام فخرج، فاستأنفنا عمل الطعام». [1]

المعروف أن الطعام لا يقدم إلا بعد أن يجتمع المدعوون، ولكن يبدو أن خيال الفشار سبق في تصوره دعوات اليوم الأوروبية، التي تعمل على

---

(١) الأغاني: ٣/ ٦٦، ترجمة: هلال بن الأسعر.

الطريقة المسمامة «بوفيه» وبهذا يحق لنا أن نقول إننا سبقنا الغرب في هذا أيضاً!

ولهلال هذا ترجمة في الجزء الثالث من الأغاني نشر دار الثقافة، وفيها قصص أخرى مما يروى عن كثرة أكله وقوته.

وقد يصرخ بطل شجاع فيغمى على شخص يعرف مدى شجاعته، ومدى ما يأتي منه إذا صرخ، أما الحيوان فلا يخرج عن غريزته، وما تمليه عليه طبيعته، ولهذا لما قيل، فيما يروى ـ لعنترة: دونك الثور الهائج فاستقبله، قال: من يعرّف الثور أني عنتر، وهذا القول ينطبق على قصة الفشر الآتية:

عن الأصمعي عن خلف الأحمر قال:

«كان أبو عروة السباع[1] يصيح بالسبع، وقد احتمل الشاة، فيسقط، فيموت، فيشق بطنه، فيوجد فؤاده قد انخلع، وهو مثله في شدة الصوت.

قال الشاعر:

(١) انظر: لسان العرب «عرا».

زَجْـر أبي عـروة السبـاع إذا
أشفـق أن يلتبسـن بـالغنـم[1]

وليس هذا الأسد في سيرك فنقول: إنه مدرب ومعلم على الطاعة، يخضع للقول، ويستخذي للصراخ؛ ولم يقتصر على أن الأسد يحجم عن أخذ الشاة وافتراسها، أو يتركها عند الصرخة لحالها، ويذهب لسبيله. لا، إنه يموت رعباً، وينخلع قلبه من مكانه هلعاً. أن يقف القلب فهذا إلى حد ما مقبول، والعوارض التي توقف القلب كثيرة، أما أن يسقط من «معاليقه» فهو الشيء الذي نرجو من الأطباء أن يسامحوا الأدباء فيه، وليعتبروها فلتة من فلتات الفشر، وهم مدعوون معنا للاستمتاع بهذه الصورة الطريفة!

ويأتي الخيال محلقاً في فشر متناهٍ، يلهث التصور خلفه، ليرسم له الشكل المراد، ليعرض على العقل الذي لن يجامل أو يحابي فيقبله، بل إنه سوف يرفضه

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢٨٢.

رفضاً باتاً، ويسمه بسمته الحقيقية، ويقول عنه إنه فشر واضح، أو أن أبا علقمة أحسّ من القرشي رغبة استهزاء به، فأحب أن يجاريه ويزيد عليه.

ومما يجعلنا نعتقد أن أبا علقمة كان جاداً في قوله، ومعتقداً فشره، أنه رجل غريب في تصرفه، منتقد فيما يقول أو يفعل، ولهذا لا يستغرب منه أن يقول مثل هذا القول ويعنيه. وهذه هي القصة:

رأى رجل[1] أبا علقمة على بغل مصري حسن، فقال له:

إن كان مَخْبَر هذا البغل كَمَنْظَرِه فقد كُمَل.

فقال أبو علقمة: والله لقد خرجت عليه من مصر، فتنكبت الطريق مخافة السُّرَّاق، وجور السلطان، فبينا أنا أسير في ليلة ظلماء، قتماء طخياء، مدلهمة حِندس داجية، في ضحضح أملس، وإذا حِلْس نبأة قُعَرًّ (طائر)، أو طيران صوع، أو نفض سيد، (ذئب)، فماص عن الطريق متنكبا بعزة نفسه، وفضل قوته،

(١) في معجم الأدباء: ١٢/ ٢٠٧ سماه الهيثم بن عدي: أبا عبدالرحمن القرشي.

فبعثته باللجام فعسل (أسرع)، وحرّكته بالركاب فنسل؛ وانتعل الطريق يغتاله معتزماً، والْتَحَفَ الليل لا يهابه مظلماً، فوالله ما شبهته إلا بظبية نافرة، تحفزها فتخاء (حمامة أو نعامة)، شاغبة.

فقال الرجل: يا هذا، ادع الله واسأله أن يحشر هذا البغل معك يوم القيامة..».[1]

وهذا خيال محدود، أما فشر أبو علقمة الذي أشرنا إليه فهو ما تمثله القصة الآتية:

«قال الهيثم بن عدي:

ركب أبو علقمة النميري بغلاً فوقف على أبي عبدالرحمن القرشي، فقال (القرشي):

يا أبا علقمة، إن لبغلك هذا منظراً، فهل مع حسن هذا المنظر من خبر؟

قال: سبحان الله! أو ما بلغك خبره؟

قال: لا.

قال: خرجت عليه مرة من مصر، فقفز بي قفزة

(١) معجم الأدباء: ١٢/ ٢١٤.

إلى فلسطين، والثانيـة إلى الأردن، والثـالثـة إلى دمشق.

فقال: له أبو عبدالرحمن: تقدم إلى أهلك يدفنوه معك في قبرك..». [1]

إن هذا طائر، وليس ببغل، وإن الأرض لتطوى له؛ ولا ندري لِمَ جعل الطريق ثلاث خطوات، وأوجد محطة في المنتصف، ولِمَ لم يجعل في مصر رِجْلا، والأخرى في دمشق؟ لعل هذا تُرِك لوالد هذا البغل، ليمتاز عن ابنه.. وأبو علقمة أعرف بالحقيقة!

هذا الفشر في بلاد العرب مدنها وصحرائها، وهناك فشر يأتي إلينا من وراء النهر، حيث الثلج، والصقيع، وفي القصة التالية نموذج لذلك.

«عن محمد بن الحسين الهمذاني - وليس بالمُرْضِي - قال: كان عندنا بهمذان برد شديد، وكان على سطحنا مَرْيٌ في آنية، فانكسرت الآنية، وانصب المري على السطح، فجمد حتى صار مثل الجلد،

(١) معجم الأدباء: ١٢/ ٢٠٧.

فقطعت منه خفين، ولبستهما، وركبت به إلى دار السلطان!». (١)

لا يصدق أهل همذان هذا القول المضخم، والكذب الصراح، لأنهم يعرفون محيطهم، وما يحدث فيه، وما يمكنهم أن ينتعلوه، ويعرفون الجليد، وما يأتي منه، وما يفعله بالأشياء، أما الذين في البصرة أو في بغداد، أو ساكنو الحجاز واليمن، فأبعد ما يكونون عن تصور ما تصل إليه طبيعة الجليد، وما يمكن أن يأتي منه من غرائب، ولهذا عمد الفشار إلى هذا الفشر، فصور أن حليباً في وعاء، اندلق على الأرض، فانداح فيها بعد أن انكسر إناؤه، فجمد بعد أن صار طبقة رقيقة على الأرض، فصنع منه نعلاً؛ خيال جامح، وتصور مبعد، وقول غريب، ولكنه، لهذا وغيره، دخل كتب التاريخ والأدب، ووصل إلينا على غرابته، ناجحاً في اختراق الأزمنة، بينما هناك أخبار معتادة

---

(١) تاريخ بغداد: ٢/ ٢٣٩، ترجمة: محمد بن الحسين الهمذاني.

لم ير المؤرخون والأدباء فيها طرافة تدعو إلى تسجيلها ضاعت في ثنايا الزمن، ووئدت في مهدها، قبل أن تتاح لها الفرصة أن تدرج، وأن تعرض نفسها للقبول، أو الرفض، لأن أباها وقائلها، أو من عاشها، لم يرد لها ذلك، لأن السُّوق ليس سوقها، ولا وجود حينئذ لطالبيها.

وأمر الحليب المراق يذكر بقصة رجلين اتفقا على الفشر، وتعاهدا على «الخَرط»، وعلى أن يصدق أحدهما، أمام الناس، الآخر فيما يقوله، وفيما يدّعيه، وأن يأتي بدليل يعضد ما ادعاه، إذا رأى في أعين الناس شكاً فيما ادعاه رفيقه، وأمَّلاَ أن يسير الأمر كما خططا، إلا أن أحدهما زاد في عيار الفشرة التي أطلقها، إذْ جاء يوماً إلى مجلس القوم، وهدف إلى أن يلفت نظرهم، ويشد انتباههم إلى ما أعده، فقال: إنه البارحة سمع صوت مجموعة من الكلاب في السماء تنبح بصوت واحد، فتأكد أن القوم لم يصدقوه، بل إنهم ربما استهجنوا ما ادعاه، فالتفت إلى رفيقه،

التفاتة من يطلب النجدة، ويبحث عن العون؛ فقال رفيقه إنه سمع ما سمع رفيقه، ولكنه عندما تدبر الأمر وجد أن الكلاب كانت على الأرض، وإنما حملت الريح الصوت إلى السماء، مما يوحي لمن كان على وشك أن ينام، أو من استيقظ في تلك اللحظة، أن الأصوات آتية من السماء.

وبهذا تدارك الأمر، وأنقذ رفيقه من استهزاء كان سيأتيه، ولوم قاس سوف يتعرض له. وقال لزميله: إن إتفاقنا كان على ما يمكن أن يقع على الأرض، وأن السماء لا تدخل ضمن اتفاقنا، فاجعل قدميك وأذنيك وعينيك وخيالك فيما يمكن أن أصل إليه، وألمسه بيدي، وإلا سوف تجد نفسك وحيداً، وساكون عليك لا معك.

والعصبية أحياناً تلعب دوراً كبيراً في «الفشر» والكذب الذي يصعب تصديقه، والذي فكر في إشاعة الكذب بهذه الصورة إما أن يقصد إضفاء حالة من الفضيلة على شخص اعتبره المجتمع بعيداً

عنها، أو ليغيظ فريقاً لم يستطع أن يغيظه إلا بإضفاء صفة خارقة للعادة على عدو هذا الفريق، أو ادعاء عمل لا يتصور أن يقوم به، حتى إذا لم يقبل هذا القول ولم يهضم هذا الادعاء، فإنه يكفيه أنه أصبح حديث الناس، وملء الأفواه والألسن. والقصة الآتية من هذا النوع، لأن فضيلة الصبر، وعدم الأكتراث، تعدت الحدود بطبيعة البشر، كما يعرفها البشر:

قال الأصمعي:

«لما أخذ أبو بَيْهَس الخارجي، قطعت يداه ورجلاه، ثم ترك يتمرغ في التراب، فلما أصبح قال:

هل أحد يفرغ عليّ دلوين، فإني احتلمت في هذه الليلة»(1).

والأصمعي مبتلى بالنحل عليه، وتعليق الأخبار الغريبة على أوتاد في جدران حياته، ويبدو أن الوراقين وجدوه ملائماً لمثل هذه الأخبار العجيبة؛ وهم أحياناً ينصبونه راوياً عن أحد، وأحياناً مقارفاً

---

(1) البصائر: ٣/ ٧٣.

للعمل؛ وهذا الخبر من بين ما يشك في أن الأصمعي قاله، أو دَرَى عنه، أو سمع به؛ ولعلهم أرادوا منا أن نتصور أنه في لحظة معينة مر الأصمعي بالرجل، وسمعه في تلك اللحظة بعينها يقول ما قال. وتصوُّرُنا أن الرجل كان في صباح اليوم التالي لقطع يديه ورجليه قد نزف من الدم، وعانى من الألم ما يجعله في إغماءة أو شبهها؛ هذا إذا لم يكن قد مات قبل ذلك بوقت طويل.

ولهذا فقد أعقب صاحب البصائر هذا الخبر بقوله: «كتبنا هذا للعجب».

ويأتي الكذب المبالغ فيه إلى حد الاستحالة في بعض ما يروى عن الأمم البائدة، فقوم عاد طوال، وعوج ابن عنق طويل، ويروى عنه أنه كان يضع يده في عمق البحر، يلتقط منه السمكة فيشويها في الشمس، وأن ساقه استفيد منها بعد هلاكه جسراً على نهر عريض، والقصة التالية فيها بعض المغالاة، التي تدخل بابنا هذا:

«روى عبدالملك بن نمير عن رجل من أهل اليمن: أقبل سيل باليمن في ولاية أبي بكر، فأبرز عن باب مغلق، فظنناه كنزاً، فكتبنا إلى أبي بكر، فكتب: «لا تحركوه حتى يقدم عليكم أمنائي».

ففتح، فإذا رجل على سرير، عليه سبعون حلة، منسوجة بالذهب، وفي يده اليمنى لوح مكتوب [فيه]:

إذا خـــان الأمير وكـــاتبـــاه
وقاضي الأرض داهن في القضاء
فـــويـــل ثـــم ويـــل ثـــم ويـــل
لقاضي الأرض من قاضي السماء

وإذا عند رأسه سيف أشد خضرة من البقلة، مكتوب فيه:

«هذا سيف هود بن عاد بن إرم». [1]

وعاد وقومه، وأناس غيرهم بادوا، ولم يعلم بوجود مدفن أحدهم هذا إلا سيل جاء عاتياً،

(١) ربيع الأبرار: ٣/ ٦٠٨.

فكشف عن هذا القبر المهيب، هذا أمر غير مقبول، واللغة العربية، إن كانوا ممن يتكلمها، لابد أنها أخشن من أن يأتي منها هذه الأبيات الرقيقة السلسلة، ذات الموعظة البالغة.

ولم يبق من الخبر إلا السيف الأخضر، والسيف حديده ذكر، وإذا مال إلى الخضرة قليلاً فهو محمود، وقد يعزى حديده إلى أحد النيازك النادرة، إلا أن المغالاة دخلت أيضاً في اللون المقبول، فجعلته غير مقبول، وأدخلته في حيز الرفض.

ولكن الخبر طريف، وفيه خيال بديع، يغري بالقبول، وينسي الناس الجوانب التي تأكل منسأته.

والقصة الآتية فيها وصف غريب لستر عجيب الطول والعرض، يقال إن يزيد بن الخطيب، رسول الرشيد إلى ملك الروم، رآه هناك في بلادهم، وسواء ادعى يزيد أنه رآه، أو ادعي عليه أنه رآه، فنحن لا نقبله، ونرى فيه فشراً؛ فإن كان الراوي يزيد، فقد أراد أن يمتع الناس بهذا الخبر، وأن يلفت إليه

النظر. وإن كان منسوباً إليه، ولم يقله، فالذي نحله إياه اختار المناسبة نفسها، وبُعدَ البلد، وعدم تحقق أحد من الخبر، وصحته، فأخذ يربع في مجال الخيال، دون خوف أو وجل:

«قال يزيد بن الخطيب:

بعثني الرشيد إلى ملك الروم، فأنس بي، وقال لي يوماً:

«أريك شيئاً ما رأيتَ مثله قط».

فأخرج إليّ سترَ إبريسم، منسوجاً بالذهب، عرضه نيف وثمانون ذراعاً، في طول مئة ذراع، ولم يتم بعد، في أعلاه مكتوب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، مما عُمِل لسام بن نوح». [1]

واضح أن الخبر مكذوب، وأن الخيال جال في ميدان واسع ليأتي بهذا الوصف، وهذا الخيال لا يكمل إلا إذا اتبعه خيال آخر من السامع عن المكان الذي سوف يوضع فيه الستر الذي وصل هذا الحد

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٢٩.

من الطول والعرض، ولم يكمل، ولكن لعل بيوت قوم سام بن نوح غير بيوتنا، لِمَ لا وهو من أمة بائدة!!

ثم إن بسم الله الرحمن الرحيم، صورة إسلامية، لم تكن لغير المسلمين من قبل، وإن وجد معناها عند أمم أخرى فبلغات تلك الأمم.

وهكذا إن الفشر مغرٍ، ويتلمس الفشارون السبل لتفصيل بعضه على المناسبات التي تمر، فيقتنصون ما يفيدهم منها في هذا المجال.

ويأتي الفشر فكاهة عند بعض الناس، ويحمل في طياته نية حسنة لتأكيد فضيلة عند بعض القوم، ولكن الأمر يفلت منهم عند التأمل، لأن القول غير مقبول، في ضوء ذلك المجتمع وما فيه:

«زار عبدالله بن عمر عبدالله بن جعفر، وبين يديه بَرْبَط (عود غناء) فقال:

إن أخبرتني ما هذا يا أبا عبدالرحمن فلك أي جارية من جواري شئت.

فأخذ ابن عمر البربط، فقلبه، ونظر إليه، وقال:

«ميزان حرّاني، وأنا أبو عبدالرحمن».

فضحك ابن جعفر، ووهب له جارية»[1].

نحن نتصور أن ابن عمر ليس في معزل عن مجتمعه إلى الحد الذي يجهل معه العود، ولقد قلبه في يده، ولابد أنه جسّ الأوتار، وسمع ما يأتي منها؛ ونحن لا نعرف الميزان الحراني، ولكننا نتصور أنه إذا كان ميزاناً معتاداً فلابد له من كفتين، وقلب يُرِي موقع الكفتين، إحداهما من الأخرى، وإن كان ميزان قبّانٍ، فله حصاة أو ثقل للوزن.

والعلاقة بين الرجلين ليست بالصورة التي تظهرها القصة، ثم لم نعرف مبرراً لانتصار عبدالله ابن عمر، الذي أدى به إلى الاكتناء، والحمد لله أنه لم يرم بعمته إلى الأرض حماساً لمبلغ علمه!

على أي حال، لقد أخفق الراوي في أن يزيد في سمعة عبدالله بن عمر من ناحية الفضيلة، وله فيما عدا هذه القصة من الفضائل ما نرجو أن يكون في

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٨٦.

موازينه يوم الحساب.

ويأتي أحياناً قصة تتأرجح بين القبول والرفض، والقصة الآتية من هذا النوع:

«وضع على مائدة المأمون يوم عيد أكثر من ثلاث مئة لون، فكان يذكر منفعة كل لون ومضرته، وما يختص به، فقال يحيى بن أكثم:

يا أمير المؤمنين، إن خضنا في الطب فأنت جالينوس في معرفته، أو في النجوم فأنت هرمس في حسابه، أو في الفقه فأنت علي بن أبي طالب في علمه، أو في السخاء فأنت حاتم في كرمه، أو في صدر الحديث فأنت أبو ذر في لهجته، أو في الوفاء فأنت السموءل بن عاديا في وفائه.

فسرّ بكلامه وقال:

يا أبا محمد، إن الإنسان إنما فضل غيره بعقله، ولولا ذاك لم يكن لحم أطيب من لحم، ولا دم أفضل من دم.»[1]

---

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ١٢٤.

إنه ليس من المستحيل أن يكون هناك «أكثر من ثلاث مئة لون» من الطعام، ولكنه لا يتوقع أن تجتمع على مائدة واحدة، حتى لو كانت هذه المائدة هي مائدة الخليفة المأمون، فكيف يصل الناس معه إلى كل لون، ويستطعمونه، وإذا وضع من كل صنف ما يشبع الناس، فالمائدة على هذا أميال وأميال!

ولم يكف صاحب الخيال المحلق أن يقول ما قال عن عدد الألوان، ولكنه دلف إلى الجزء الثاني مما ابتدع الخبر من أجله، وهو مدح الخليفة المأمون، وأشعر أحياناً أن مدح المأمون خاصة، وخلفاء بَني العباس عامة، هو لعدل الكفة مع أكاسرة الفرس، وما كان يذكر عنهم من أمور عجيبة، في الطعام والرياش. وقد أخذ الراوي يفند في سعة علم الخليفة في كل الميادين الشريفة التي يفخر المرء بمعرفتها، وجاء الخبر بطريق أدبية جميلة، تليق بالقاضي يحيى بن أكثم والخليفة.

ولنتأكد الصورة التي ذكرناها من حرص الفشارين

على رسم صورة بذخ كاذبة، وترف مزور، نأتي بقصة عن هارون الرشيد، يصعب تصديقها؛ لأن القاص أخذ فيها حريته في أن يعطي خياله أن يجمح ما شاء له ذلك، دون أن يمسك له لجاماً، أو يجذب له رسناً، ولم يقف إلا عندما وصل إلى ما لا مزيد عليه عنده:

«قدم علي بن عيسى بن ماهان على الرشيد من خراسان، فسأله أن يركب مع خواصه إلى الميدان، لينظر إلى هداياه، وقد أمر علي بكنس الميدان، وفرشه بالآس والرياحين، وأقام في أحد جانبيه أربعة آلاف غلام تركي؛ وعليهم اللباس المرتفع، والمناطق المعرقة بالفضة، وبيد كل واحد شهري من فره الدواب، كلها مجللة مبرقعة بالديباج؛ وعلى رأس كل غلام عمامة من جنس لباسه؛ وفي الجانب الآخر أربعة آلاف وصيفة تركية، عليهن الديباج والمناطق المعرقة بالذهب، مسبلات الشعور؛ على كل واحدة تحت ثياب من الملحم الفاخر وغيره.

وقد بسط في صدر الميدان بسط عليها أنطاع صبّت عليها الأموال، حتى صارت جبلاً عظيماً، وبحذائها نوافج المسك مثلها.

فلما رجع الرشيد فنزل قال:

يا جعفر أين كنا عن هذه الأموال؟

قال: يا أمير المؤمنين، أسرّك أن أخذ علي بن عيسى أموال الفقراء والأرامل، وجاءك بها ناراً يتقرب بها إليك؟ والله لتعلمنّ إذا وضحت الأمور أنك تستوخم فائدتها، ولتنفقن بدل كل درهم ديناراً، ثم لا تنجو». [1]

هذه الأكاذيب عن البذخ، والتلفيقات عن ترف الرشيد غير المعقول، وغير المقبول، لونت عهده بلون لم يكن فيه، ووسمته بميسم هو منه براء، وإن لم يكن قصد بهذا تشويه سمعته، وسمعة العرب، وسمعة العباسيين عموماً، وحكمهم، فإنه إغراق في التسلية، وتعمق في الطرائف تعدى الحدود

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ٣٦٣.

المعتبرة، ودخل في حيز الممجوج، وفيه إهانة كبرى لعقل القارئ وعزته.

إننا لو حاولنا تصور ميدان فيه هذا العدد من الغلمان والجواري، راكبين، مع المتفرجين، لأصبح في ذهننا ميداناً واسعًا جداً، وما وضع على أرضه، وما لبسه الغلمان والجواري، والحيوانات التي ركبوها، لكلف هذا مؤونة عظمى، أنفقت للحظات دون جدوى، ليعجب بها الخليفة المسلم الذي يحج عاماً ويغزو عاماً، والذي يبكي من الوعظ حتى يخشى عليه التلف.

والخليفة لا يتنبه لهذا الخطأ، وينتظر حتى ينبهه فارسي يعمل في خدمته!

وهذه الأموال التي كدست في وسط الميدان، حتى صارت جبلاً، كيف وصلت سليمة دون أن يسرق منها شيء، وكيف سوف تحمل بعد ذلك بأمان؟

ثم لماذا هذا كله؟ ليعلم الناس ماذا؟ ليعلموا عظمة عيسى بن ماهان، في اقتطاع هذه الأموال؟ أم

القصد أن يعلم القاصي والداني غنى بيت المال، وما تحت يد الخليفة من هذه الثروة؟

ثم إن هذه هدايا، فما حقيقة ما جباه عيسى واستدخله؟

وفي رأيي أن هذا فشر أدخله كاذب «خراط» من أوسع الأبواب، وتشدق به، وحذفه في سوق الوراقين، والتقطه من التقطه، ومثله كثير مما ابتلي به هارون الرشيد، هو وعهده، وعهد من جاء بعده.

هذه أمثلة لبعض «الفشر» كشفت عن بعض جوانبه، وأرت الأسباب التي قد تكمن خلفه، والعقول التي ألفته، والمحيط الذي تلقفه فسجله، حتى وصل إلينا.

وعند إمعان الفكر نجد أن للأدباء «فشرهم»، وهو فشر جميل محبب، يأخذ المرء على حصان مجنح، يطير به إلى عنان السماء، في رحلة لا تنسى، ونزهة لا يذكر شيء بجانبها، والأبيات الآتية من هذا النوع:

«قال أبو الحسن بكر بن النطاح في أبي دلف: القاسم بن عيسى:

لـه همـم لا منتهـى لكبـارهـا
وهمته الصغرى أجل من الدهر
له راحة لو أن معشار جودها
على البرّ صار البرّ أندى من البحر
ولو أنَّ خلق الله في مَسك فارس
وبارزه كان الخلي من العمر»[1]

في هذا الشعر رائحة الفشر آتية من بعيد، ولكنها زينة هذا القول، والشعر يحسن القبيح، فيحبب للكذب، ويجتذب الناس للهجاء، ويقبل فيه السباب، والخروج عن القواعد، والادعاء الكاذب، ومجانبة المعقول.

وهذا الشعر وضعه المبرد من قسم التشبيه المُفرِطْ.

ويأتي فشر من نوع آخر فيُستطرف، لأن في التعليل عما ظهر منه ظرف وملاحة، وفيه خروج

---

(١) الكامل للمبرد: ٢/ ١٠٣٣.

عن المألوف، ولا يخلو من ذكاء وحذق:

«روى الأصمعي أنه رأى رجلاً يختال في أزيّر (تصغير إزار) في يوم قَرّ، فقال له:

ممن أنت يا مقرور؟

فقال: أنا ابن الوحيد، أمشي الخيزلى (مشية المتثاقل) ويدفئني حسبي!!».[1]

ومثله قول أحدهم على النهج الفكري نفسه:

«قيل لرجل: أما يوجعك البرد؟

فقال: بلى، ولكني أذكر حسبي وأدفأ».[2]

والتشبيه شعراً أو نثراً يكاد إلا القليل منه أن يتسم بالمغالاة، فتُدخله من باب واسع إلى «الفشر»، ولكنه باب يفضي إلى رَوض بهج لا تنبو عنه الأذن، ولا تسلوه النفس، ولا تمجه الروح، وكلما أوغل في البعد عن الحقيقة زاد في لذة التحليق في الخيال البهيج:

---

(١) الكامل للمبرد: ٢/ ١٠٣٤.

(٢) الكامل للمبرد: ٢/ ١٠٣٤.

«يقول هدبة بن خشرم العذري:

فلم تر عيني مثل سرب رأيت
خرجن علينا من زقاق ابن واقف
طلعن بأعناق الظباء وأعين الـ
جآذر وامتدت بهن الروادف»[1]

ومثله قول الشاعر:

كأن فجاج الأرض وهي عريضة
على الخائف المطلوب كفة حابل
يؤتى إليه أن كل ثنية
تيممها ترمي إليه بقاتل[2]

ومثل ذلك قول النابغة:

وعيدأبي قابوس في غير كنهه
أتاني ودوني راكس فالضواجع
فبت كأني ساورتني ضئيلة
من الرقش في أنيابها السم ناقع

(١) الكامل للمبرد: ٢/ ١٠٣٩.
(٢) الكامل للمبرد: ٢/ ١٠٣٦.

يسهد من ليل التمام سليمها
لحلي النساء في يديه قعاقع
تناذرها الراقون من سوء سمها
تطلقه طوراً وطوراً تراجع(١)

هذا القبول لتلك المغالاة سَهَّلَهُ التشبيه، فشفع لاستحسانه، ومهّد لجعله حلالاً في عرف الأدب وأهله، وهو يخدم الفكرة خدمة جلّى، فبدون هذا النهج، وهذا الأسلوب، لا يتصور الأمر، وما فيه من حدة، فالذي جعل الصورة واضحة ومؤثرة هو التشبيه، وهو جزء مهم من صور البيان في الأدب العربي، وناهيك بشيء يكون في إطار البيان.

والهجاء مثل المدح مجال واسع للمغالاة والأبيات الآتية نموذج لهذا:

أنشد أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ لرجل من الأعراب ينسب ابن عمّ له إلى اللؤم والتوحش:

(١) الكامل للمبرد: ٢/ ١٠٣٥.

أحـــب شيء أن يكـــون لـــه
حلقـوم وادٍ لـه في جـوفـه غـار
لا تعرف الريح ممساه ومصبحه
ولا يشـــب إذا أمســى لـه نــار
لا يحلب الضرع لؤما في الإناء ولا
يرى له في نواحي الصحن آثار[1]

ويبدو أن الفشر والإدعاء والمغالاة يدخل أحياناً في حدود العزة الوطنية، فإذا جاء العجم بأخبار غريبة مغالى فيها، سارع العرب إلى وضع قصص تعدل لهم الكفة مع العجم، وقد لاحظ بعض المتبصرين من المفكرين هذا:

«يقول المبرد:

حدثني التّوزي قال: سألت أبا عبيدة عن مثل هذه الأخبار من أخبار العرب فقال:

إن العجم تكذب فتقول: كان رجل ثلثه من نحاس، وثلثه من نار، وثلثه من ثلج، فتعارضها

(١) الكامل للمبرد: ٢/ ٧١٤.

العرب بهذا، وما أشبهه» .[1]

وهذا قاله على أثر ما ذكره عن السليك، وسرعة عدوه الخيالي، وما أتى به أثناء العدو من أعمال خارقة، تفوق قدرة الإنسان، وتخرج عن نطاق سلطته.

ويتكلم بعد ذلك عن لقمان بن عاد، وما يأتي عنه من أخبار عجيبة، وقصص من نسج الخيال لا يصدقها عقل، ولا تدخل في نطاق العادات، وما تعارف عليه الناس، بل تدخل في نطاق الخرافة بسهولة ويسر، وتماثل ما يقال عن عوج بن عنق:

«ومن ذلك ما يحكون في خبر لقمان بن عاد، فإنهم يصفون أن جارية له سئلت عما بقي من بصره، فقالت:

والله لقد ضعف بصره، ولقد بقيت منه بقية، إنه ليفصل بين أثر الانثى والذكر من الذر إذا دبّ على الصفا!!

---

(١) الكامل للمبرد: ٢/ ٧٣٩.

في أشياء تشاكل هذا من الكذب». [1]

وهذا يدخل في أعلى مدارج الكذب، ويخطف جائزة السباق من أبي لمعة!

وبهذا نكتفي بهذه الجوانب من المغالاة في الكذب و «الفشر».

(١) الكامل للمبرد: ٢/ ٧٤٣.

لغتنا وصيغ التعريف[1]

اللغة العربية بحر واسع، لا طرف له، وهي ملأى بالمتعة؛ وفي كل جانب من جوانبها لذة، يجد المتبصر فيها ما لم يخطر له على بال من العمق والتشعب، لعراقتها، ولبعد منبتها، وزكاء أصلها.

مرت باللغة العربية قرون وقرون تراكمت فيها التعابير، التي جعلتها من أغنى اللغات، وزاد في هذا المعنى وهذه السعة، اندياح الرقعة التي تُتكلم فيها هذه اللغة البديعة؛ وساعد على هذا الإنبعاج طبيعة الجزيرة العربية، مما جعل كل قبيلة تضيف مفردات إلى مفردات، حتى أصبح الترادف مع تطور الكلمات مصدر تضخم في معاجمها، وساعدت الأشعار والحكم والأمثال على حفظ هذه الثروة؛ ولقد حرص اللغويون على أن يجلوا ما قد يكون غامضاً بسبب التطور، ومرور الزمن، مما أفقد الكلمة

---

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٣٤٤) في: ١/ ٧/ ١٤١٥هـ الموافق: ٣/ ١٢/ ١٩٩٤م.

أصلها، وأبقى لها معناها، فجاء علم جديد يعتبر من الجوانب الحية في دراسة اللغة.

والباحث في جوانب اللغة العربية المختلفة، والمتدبر فيما أنجز في حقولها المتعددة، يجد نفسه في رياض من المتعة، ومروج من اللذة والبهجة، حتى المعجم عندما يفتحه المرء ليراجع معنى كلمة، أو يتأكد من تصريفها، يجد نفسه تدريجاً انغمس وراء الكلمات، كل كلمة تؤدي به إلى أخرى، وكل تركيب يقوده إلى آخر؛ إغراء متواصل، ينسى معه ما جاء أصلاً لينظره، وتقل فائدة ما قصده في الأساس عندما انغمس فيه، وما حصله من متابعة ما انبجس عليه فجأة من جاذبية في الكلمات. سحر ما بعده سحر. فإن قيل هذه طبيعة المعاجم في كل لغة، فإن للغة العربية طعماً خاصاً!

وما سوف أورده في هذه المقالة ليس مأخوذاً من القواميس وإنما هو سوانح وبوارح، اصطدتها من قراءتي في هذا الكتاب أو ذاك، جاءت من حصيلتها

هذه الأمثلة التي سوف أسوقها شاهداً على بعض التعبيرات التي اجتذبتني إليها، فاجتذبتها للقارئ، ليرى ما رأيت، فلعله يعجب بما أعجبت به.

وما سوف أسوقه من هذه الأمثلة ما هو إلا قليل من كثير، ولو تتبع أحدنا ما جاء من هذا النمط، واستقصى ما ورد لابساً الرداء نفسه، ومتحلياً بالحلية نفسها، لوجد كثيراً من هذا مما لا تحصى فيه جوانب المتعة والبهجة.

ومعرفة ما عليه الكلمة، والعودة بها إلى أصلها، يتيح خيالاً واسعاً لدى القارئ، عن الأطوار التي مرت بها الكلمة؛ وبعض الكلمات، مثل الأمثال، لبدئها قصة أو حادثة، تلمح طبيعتها في حروفها، فإذا أعيدت صيغتها لتقرب من صيغتها الأصلية، تبين أصلها، أو قرب الباحث منه؛ وقليل من الناس يدري سلسلة النسب التي بين كلمة «فرط» وهو الطفل الذي يُتوفى، فيؤمل أن يكون شافعاً لوالديه، وبين كلمة «فارط»، وهو الذي يتقدم القوم،

فيصلح لهم الدلاء والأرشية، وما أشبه ذلك من أمرهم حتى يردوا، ومن ذلك قول المسلمين في الصلاة على الطفل «اللهم اجعله لنا سلفاً وفرطاً»، وجاء في الحديث النبوي: «أنا فَرَطكم على الحوض».(١) وقد جاء به صاحب الكامل تفسيراً لحديث جرى بين عبدالله بن الزبير والنابغة الجعدي، ففسر به قول النابغة عندما قال له ابن الزبير:

لشدّ ما بلغ منك الجهد يا أبا ليلى؟

فقال النابغة: أما على ذلك لسمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ما استُرحِمت قريش فرحمت، وسئلت فأعطت، وحدثت فصدقت، ووعدت فانجزت، فأنا والنبيون على الحوض فُرّاطٌ لقادِمين».(٢)

ونتكلم أحياناً عن الإطار بالمفرد، وعن الأطر بالجمع، وفي ذهننا ما تدل عليه الكلمة العامية «برواز»، ولا يأتي في بالنا ما هو جذر هذه الكلمة

---

(١) الكامل للمبرد: ٣/ ١٣٦٥.

(٢) الكامل للمبرد: ٣/ ١٣٦٣.

«إطار»، ولا ما هو أسها، ولا ما هو النسب الشرعي الذي انحدرت منه، فإذا قدر لأحدنا أن يمر به بيت خفاف بن ندبة:

أقـول لـه والـرمـح يَـأطِـر مَتْنَـهُ
تـأَمَّـل خُفـافًـا إنـي أنـا ذلكـا»[1]

وأراد أن يعـرف معنـى «يـأطـر» يجـده «يثنـي ويعطف»، ويقال أطرت العود أي عطفته، وفي الحديث: «حَتَّى يَأْطروْهُ عَلَى الحَقِّ أَطرًا». أي يعطفـوه. وقـال الخليـل: الأَطْر: عـوجـك الشـي تقبض أحد طرفيه»[2].

وهذا يعني الثني، وهو ما يُكوِّن إطار الصورة في زمننا أو يحيط باللوحة، وفيه عدد من الانحناءات والثنيات. وبهذا الضوء الذي أعطى بصيصه قليلاً قليلاً على الكلمة تبين نسبها، وإلى ماذا تعود!

و «الجائزة» تلعب اليوم دوراً مهماً في حياتنا،

---

(١) الكامل للمبرد: ٣/ ١٣٥٠.
(٢) الكامل للمبرد: هامش ٣/ ١٣٥٠.

وعندما نفكر في وجود الصلة بين هذه الكلمة وما تدل عليه، نكاد لا نجد صلة بينهما، ولو رجعنا إلى جذر الكلمة لا نجد أن هناك صلة بين الجائزة والمكافأة، وهي حقيقة ما يدل عليه المصطلح؛ وتتضح الجادة، ويتبين الطريق، ويزول الغموض، ونهتدي إلى الصلة عندما نعرف الأصل الذي جاءت منه الكلمة، والحادثة التي ولدت بسببها، وكيف خفيت الحقيقة مع الزمن، والقصة الآتية تأخذنا بعيداً في الزمن، لنرى كيف صارت المكافأة جائزة:

«استعمل ابن عامر قطن بن عبد عوف الهلالي على كرمان، فأقبل بجيش من المسلمين أربعة آلاف، وجرى الوادي، فقطعهم عن طريقهم، وخشي قطن الفوتَ، فقال:

من جاز الوادي فله ألف درهم.

فحملوا أنفسهم على العظم، فكان إذا جاز الرجل منهم قال قطن:

أعطوه جائزته، حتى جاوزوا جميعاً، وأعطاهم أربعة آلاف ألف درهم، فأبى ابن عامر أن يحسبها له.

فكتب بذلك إلى عثمان بن عفان، فكتب عثمان: «أن احسبها له، فإنه إنما أعان المسلمين في سبيل الله».

ففي ذلك اليوم سميت الجوائز، لإجازة الوادي.

فقال الكناني في ذلك:

فِـدًى لـلأكـرمـين بنـي هـلال
علـى عِـلاّتهـم أهلـي ومـالـي
هُـمُ سَنّـوا الجـوائـز فـي معـدٍّ
فعـادت سُنَّـة أخـرى الليـالـي
رمـاحُهُـم تـزيـد علـى ثمـانٍ
وعشـر قبـل تـركيـب النصـال(1)

هذه قصة طريفة أرتنا مولد مصطلح جديد، دخل حياتنا الحاضرة، وتوغل، وأصبح له دالة في

---

(1) المنتقى: ١٧٥.

المجتمع، فلون المجتمع في بعض جوانبه؛ والمكافآت ليست جديدة على المجتمعات، لكنها في حياتنا أخذت انتشاراً أوسع، لأن بعض النظم الاجتماعية في العصر الحديث أصبحت تدعو إليها، ولعل السبب حدة المنافسة في المجالات المختلفة، ولعل المجال التجاري من أكثر هذه المجالات نشاطاً في إعطاء الجوائز، وشحذ المنافسة.

وكلمة «سمر» من الكلمات التي أخذناها مصطلحاً له مدلول في ذهننا، نتصور عند سماعه سهر معه مسامرة، ولا يخلو من بهجة ورونق، وكل منا يرسم الصورة التي تحلو له، يستمد خطوطها وألوانها من مخزون من مرات السمر، التي مرت به، مما أحياه أو أحيي له، فبعض الناس عندما يذكر السمر، يتصور جلسة في مقدمة خيمة، أمام النار، ودلة القهوة؛ وبعضهم يتصورها على سطح أضفى عليه القمر نوره الفضي، وبعضهم يتصورها

في بستان وارف الظلال من أشجاره، زكي الرائحة من أزهاره ووروده؛ وبعضهم يتصورها جلسة أو نزهة في ليل عليل النسيم على ساحل البحر، حيث يشجي صوت مداعبة الموج للساحل الآذان؛ وبعضهم يتصورها على جبل مطل على ليل بهيم ساكن، ينصت السامر لصوت يأتي خافتاً من بعيد لتجاوب حيوان مع آخر أو حشرة مع أخرى.

ولكن ما هو الأصل اللغوي الذي جعل المصطلح ينحصر في هذا المعنى، ويتعين لهذا المدلول؟ نحن أخذناه مسلما، فجذره اللغوي لا يبعد بنا، فيوصلنا إلى ما يكشف عن العلاقة بين هذا المصطلح وأصله؛ وهذا أمر استدللنا منه في مثل هذه الحالة على أن الأصل بعيد، وأن هناك حلقة انفصلت، فأوجدت هذا الاغتراب لهذه الكلمة، فقُبلت في محيطها الجديد دون أن يناقشها أحد، أو يفكر في هجرها أو نبذها، وإنما بقيت حية، وأصبح لا غنى للسان الذي لجأت إليه عنها.

لقد برزت الحلقة المفقودة أمامي فجأة في إحدى قراءاتي لأحد الكتب، ففي كتاب «أبناء نجباء الأبناء» جاء هذا الخبر:

«أصل السمر أنه ظل القمر [الواقع على الأرض من نوره]، وكانوا يجلسون منه للحديث، ثم استعير ذلك لهم ولحديثهم» .(١)

وهكذا أمكن الاعتراف بسلسلة النسب، ووضع الوليد أمس، والكهل اليوم، بين أهله وعشيرته مع بقاء صلته بالأهل الذين أضافوه!

ولو قال لنا أحد: أن الأغنام رعت الفروة، أو شرّعت في الفروة، أو اقتاتت من الفروة، لتصورنا أن في القول خللاً، أو أن في الأغنام شذوذاً، أو أن فيها جوعاً، لم تجد ما تسكته به، فاضطرت أن تأكل من صوف فروة؛ وهذا يبعدنا أميالاً وأميالاً عن الحقيقة، وعندما نقص أثر الفروة، تقودنا إلى ما يجعلنا نعرف الصلة بين هذه الكلمة والكلمة

(١) أنباء نجباء الأبناء: ١٦٧ .

المماثلة لها في الحروف، وهي ما أوجب اللبس؛ والصلة تتبين من الشَّرح الآتي:

«الفروة: الحشيش الأبيض، يعني الهشيم اليابس، وقيل: الفروة: الأرض البيضاء التي لا نبت فيها، وقيل: الهشيم اليابس شبهه بالفروة». (١)

ومن هذا البيان يتضح أن الأغنام لم تأت بما يوجب الاستغراب، وهي لم تزد عن أن تقوم بما اعتادت أن تقوم به.

وفي هذه الحالة انطلقنا من الكلمة التي نعرفها ومن معناها الحقيقي، إلى المعنى الذي لا نعرفه، وهو معنى مستعار، ولكنه ليس مما تعارف عليه الناس، أو شاع بينهم، وهو كذلك مظهر من مظاهر ثراء لغتنا العربية، وغِناها بالكلمات ذات المدلول الدقيق، ومن قدرتها على رسم صور واضحة.

ـ(٢) وتمر بنا كلمتا: «أصل وفصل» ونحن نتابع

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ١٩٣.

(٢) بدء الجزء المضاف على ما نشر في صحيفة «عكاظ».

أصل الكلمات التي نبحثها هنا، ونتتبع نسبها، ونسلسل أجدادها. وهاتان الكلمتان تحتاجان إلى أن يبحث أصلهما، فإن كانت الأولى تدل على نفسها، وأمرها واضح، وجذرها بيّن فكلمة «فصل» تأتي ومعها الغموض، خاصة بمجاورتها لكلمة «أصل»، فما دخل الفصل بالأصل، ولكن الغموض ينجلي عندما يأتينا صاحب «البصائر والذخائر» بالحقيقة، فتطل شمسها، فتبدد ديجور هذا الغموض، ويزول اللبس، ونصبح عارفين معنى ما نقول، بعد أن كنا نردد المدلول الذي جرى عليه الاصطلاح، مثلما نردد مثلاً لا نعرف أول من قاله، ولا من قيل فيه، أَوْلَه، ولا الظرف الذي قيل فيه: فنحن نأتي بهاتين الكلمتين في موضعهما، لا نضل طريق هذا الموضع؛ ولكننا نكاد الآن نستهدي في استعمالنا إلا في كلمة «أصل»، أما كلمة«فصل» فهي تأتي تبعاً، أو حشواً، لا فائدة فيها إلا تقويم نغمة الجملة، فهي الوتد الذي يعدل لفظ الجملة، دون أن يضيف شيئاً

إلى المعنى، فهو العصا التي تتكئ عليها الجملة، ولكنها ليست من بدنها.

هذا ما كنا نظنه، وما كنا نفعله، قبل أن نعرف عنهما ما عرفناه الآن، وما عرفناه يتضح من قول أبي حيان التوحيدي الآتي:

«قال ثعلب:

قولهم: ليس له أصل ولا فصل، الأصل: الوالد والفصل الولد»[1].

وهذا يستوجب منا الحذر بعد أن عرفنا كُنْهَ هذا القول، فلا نقول لمن لا يعرف آباؤه، وله أولاد، أنه لا أصل له ولا فصل، فنقع في المحذور، رغم أن من نتحدث عنه قد لا يدري أننا أخطأنا، إلا إذا كان اطلع على ما نقله أبو حيان عن ثعلب.

ويبدو أن أبا حيان صقر يحلق في السماء فيرى في السهل تحته من الطيور الدسمة ما يمكن أن ينقض عليه: إنه مغرم بتصيد الكلمات الغريبة،

---

(١) البصائر: ١/ ٢٠.

والتعبير الدارج الذي لا يعرف حقيقته إلا من نقب عن جذوره، وعرف أصله وفصله، فكتاباته منقوشة بمثل هذه الفوائد المعترضة، يأتي بها هنا وهناك، مبزراً بها كتاباته الدسمة، ومتبلاً بها صفحات كتبه القيمة.

ولعل أبا حيان مثلنا رفع حواجبه عندما عطس أحد عنده فشمته، أو عطس هو فشمته من عنده، ولعله عندما أراد مثلنا أن يعرف صلة التشميت بالعطس، لم يهتد إلى أي صلة، فالشمت أقرب حروفاً إلى الشماتة، وهي أبعد ما يمكن أن يستحضر في الذهن للعاطس، خاصة وأن العطسة إذا كانت قوية قد يأتي منها أذى، ولهذا يُنصح العاطس أن يكون وجهه إلى الأمام، وأن يكون مستقيماً، غير مرتفع ولا منحدر، لأن الهزة العنيفة التي تأتي مع العطسة قد تخل بأعصاب الرقبة، أو أوتار الأخدعين.

وهذه حالة لا يخطر ببال الإنسان أن يَشْمَتَ بها فإن كانت مريحة للعاطس انتفت الشماتة كلية،

وإن جاءت بأذى، فالأفضل أن تدعو لأخيك لا أن تشمت به وكما قال المثل: «لا تشمت بأخيك يعافيه الله ويبتليك».

ويأتي أبو حيان بأصل لهذه الكلمة، قد يكون مقبولاً، وقد يُقَرِّب الحقيقة، وهو كما يأتي

«يقال: سمت العاطس وشمته، فأما السين فمن السمت، كأنه قال:

جعلك الله على السمت الحسن، وأما الشين فمن قولك: تشمتت الإبل إذا اجتمعت في المرعى، فكأن المعنى: سألت الله أن يجمع شملك.

هكذا قال ثعلب.

قال ابن دريد: الشوامت: اليدان والرجلان، وأطراف الرجل، فكأنه قال: حفظ الله أطرافك». [1]

ورغم هذا الاجتهاد، والتعنّي، وبذل الجهد، وتصيد معنى ينفع، إلا أن هذا لا يأتي بالقوة التي جاء بها تعليل «أصل وفصل»، أو كلمة «السمر».

---

(١) البصائر: ١/ ٢١، وفي درة الغواص تفصيل عن هذا: ٧٧.

وعلينا أن نواصل البحث فقد يكون هناك ما هو أقرب إلى القبول؛ ويبقى، حتى نجد ما يسمن ويغني، معنى التشميت لغزاً إلى حد ما.

ونسمع اسم الورد الجوري، ولا نناقش من أين جاءته صفة «الجوري»، وهل هي خاصة بلونه، وألوان الورد متعددة؟ أو رائحته ورائحة الورد تختلف نوعاً وقوة؟ أو حجمه، وحجمه غير ثابت؟ أو كثرة شوكه أو قلته؟

وقد لا نلحف في السؤال، ولا نلح في التساؤل، ولا نقف طويلاً عند هذا الأمر، لأن رائحته ومنظره يذهلنا عن الشواغل الخاصة بالتسمية، ولا ما هو أصلها. ولو وقفنا أنفسنا على هذا الأمر لأدخَلَنا في أمر طويل مثلما دخل بعض من حاول أن يغوص على أصول الكلمة العامية «ولايتي» التي تعني البضاعة الجيدة؛ وكان كثير من الناس اطمأنّوا إلى ما استنتجه عنها من أنها تعني المصنوع في الولايات المتحدة، وبعد أن أطمأنّ إلى هذا التعليل، وارتاح

إلى هذا التفسير، نُغِّص عليه رأيه عندما اكتشف أن الكلمة هندية تعني الأصلي أو الجيد، وأن لها ضداً هو «قامتي» بمعنى الرديء ، وقد استقر بهذا العلم عنده الرأي، فقد قطعت به جهيزة قول كل خطيب.

أما خطيب الجوري فلم يصعد إلى المبنر، ولم يكشف النقاب عن مصدر الكلمة ومأتاها إلا بعد أن مر أحدهم بها في أحد الكتب في إحدى قراءاته المتأنية، فسجلها لتنفع عندنا في هذا المقام، فتزيل اللبس، وتحدد المأتى؛ فإذا هي كلمة فارسية، وهي اسم بلد هناك، والنص الذي نثر عليه هذا الضياء المبين إشعاعه جاء به محقق كتاب: «آداب الملوك»، والنص كالآتي:

«جور مدينة بفارس، بناها أردشير؛ إليها ينسب الورد الجوري؛ فتحها عبدالله بن عامر». (١)

وتسمية الأشياء بأسماء المدن، أو الاستشهاد بها بما لا يدل على أنها مدينة، مما يحير أحياناً.

---

(١) آداب الملوك: ٧٣هـ، ومعجم البلدان: ٢/ ١٨١.

وأذكر أن أحد الزملاء أراد أن يضحك من آخر قبل عشرين عاماً، وكنا في زيارة لمدينة عنيزة في القصيم، فتنبه الرجل إلى مراد الزميل، فأحبط عليه خطته، وقال له: «تحسبني جايٍّ من ديسبول بعلبة» مثلما يقول ابن مكة: «أنا ما جيت من الجلبة» بمعنى تظنني فجّا ساذجاً.

واهتم من قيلت له هذه الكلمة بكلمة «ديسبول»، ولما عجز عنها في المعاجم العربية، انتقل إلى المعاجم الأوروبية، وأقلقته الكلمة بتحدّيها له، ونغصت عليه رحلته، وأصبح هو المشغول لا من أراد أن يتحرش به، وكلما ظن أنه وجد الطريق، أطلت عليه الكلمة، لابسة غدافاً، وأخرجت لسانها هزءاً به.

وفي يوم من الأيام، وأنا أقرأ في كتاب: «الأزهار النادية» في الأشعار العامية، وتحديداً في أشعار ابن لعبون، مررت ببيت فيه كلمة «ديسبول»، وفي الهامش إشارة إلى أنها مدينة في فارس؛ فسارعت

بالاتصال به، ففرح فرحاً ما بعده فرح، لأنه عثر أخيراً، وبعد جهد جهيد مخفق، على ضالته.

ثم بعد سنوات، وبعد أن انبجست الحرب ولظاها بين العراق وإيران، ووصلت الحرب إلى ديسبول، احتل اسم هذه المدينة عناوين الصحف الرئيسة؛ وشبع صديقنا من سماع هذا الاسم، ورؤيته مكتوباً، ومرسوماً على الخرائط، فأصبح مثل من ليس معه إلا شن فيه ماء لا يكاد يبل الريق، فجاءه المدد بسيل مدرار، اشتكى منه الغرق.

ويمر بنا في الأدب العربي كلمتان مقترنتان، لا تنفصلان، تُختاران معاً للتعبير، في حالات النفي، ونستفيد منهما، ومن مدلولهما، أنهما مصطلحان يكفي أن يعرف ما يرميان إليه إجمالاً؛ ففلان لا يأتي منه هلَّة ولا بِلّة، ونأخذها على أنه لا يأتي منه خير، أو «جاءت العير التي راحت للميرة، فاختْرَم ما عليها من أموال قطاعُ الطرق، فوصل ما وصل منها لا هلة ولا بلة».

وكلمة «بلّة» قد تدلنا على أنه ليس هناك ما يبل الريق ويطفئ العطش، وتأتي الحيرة من «هلّة»، فليس هناك ما يوحي بأنه شيء يخص الأكل أو الشرب، فلماذا أتى بها؟ وكيف جاءت الصحبة بينها وبين خدينتها؟

لقد جاء صاحب كتاب شجر الدر فأبان لنا ما كنا نطلب عنه البيان، وهدانا إلى ما كنا نبحث عنه ونستقصي، فأزال الحيرة، واطمأن بذلك الفكر، وزدنا معلومات مفيدة، وسوف يكون موقفنا مع هذه الكلمة عندما نمر بها غير موقفنا، وفهمنا الآن غير فهمنا السابق، وسنرسم في ذهننا الصورة الصحيحة:

«الهلال جمع هلّة، وهي المفرحة، ومنه يقال: قدم فما جاء بِهَلَّةٍ ولا بِلّة؛ فالهلة ما يفرح به، والبلّة ما يَبُلّ لهاته من الخير» .(1)

ومادمنا اقتبسنا من كتاب «شجر الدر» لعبدالواحد،

(1) شجر الدر: ١٣٠.

ولِمَا له من فضل لغوي، فلعل من حقه أن نعرِّف بعمله هذا، وقد خدم به اللغة بطريقة مبتكرة، وهو معجم فريد، والأدباء العرب واللغويون كانوا يبتدعون أموراً تدهش في زمانهم، وما كانوا يأتون به كان جذاباً، يجلب لهم من القراء ما يضمنون به انتشار فكرهم وأدبهم، وعبدالواحد اتخذ طريقة لا أظن أن أحداً سبقه إليها، فهو يعرف الكلمة، ويأخذ التعريف فيعرفه وهكذا فتشتبك الكلمات، وقد جاء عنوان كتابه دقيقاً في وصف ما آل إليه مثل هذا العمل الفريد، فقد أصبحت الكلمات بترابطها وتشابكها كأنها شجرة ذات أصل وأغصان، أما أنها من الدر، فقد أضاءت معاني مشرقة. ولعل اقتباس مثل مما جاء به، أو جزء من مثله؛ سوف يدل على عمله، ويوضحه، ويجلب القراء إلى هذا العمل المجيد. يقول في تقديم كتابه هذا:

«هذا كتاب مداخلة الكلام بالمعاني المختلفة، سميناه (شجر الدر)، لأنا ترجمنا كل باب منه

بشجرة، وجعلنا لها فروعاً، فكل شجرة مئة كلمة، أصلها كلمة واحدة، تتضمن من الشواهد عشرة أبيات، وكل فرع عشر كلمات . .

وإنما سمينا الباب شجرة، لاشتجار بعض كلماته ببعض أي تداخله، وكل شيء تداخل بعضه في بعض فقد تشاجر، ومنه سميت الشجرة شجرة، لتداخل بعض فروعها في بعض، ومنه سمي مشجب الثياب مشجراً . . » .(١)

ويعطي مثلاً للشجرة فيقول :

الصحن : قدح النبيذ، والنبيذ : الشيء المنبوذ، والمنبوذ : اللقيط، واللقيط : النوى، والنوى الشحط، والشحط : الذبح، والذبح : الشق، والشق : النّصَب، والنَّصَب : القوم المُعْيُون من سيرٍ أو غيره، والسير : السوق . .(٢)

وهكذا يستمر في التعريف فيما يعرِّفه بعد

(١) شجر الدر : ٦١ .
(٢) شجر الدر : ٦٣ .

ذلك، حتى يصل إلى العَدد الذي حدده، ويكمل المنهج الذي رسمه.

ومن الجواد الموصلة في اللغة إلى بحر زاخر دقة التسمية للأمور المتقاربة، فأمتار من النبات بأشجاره له عندهم حصيلة من الكلمات الدالة على الأنواع أو الأفراد منها، ونحن نمر ببعض هذه، ولا نعرف الفرق، ولا ندرك الصلة، حتى يأتي من يرشدنا إلى ما نجد فيه فائدة متكاملة؛ وهم أصحاب اللغة، وأصحاب الفكر الذي قسم التقسيمات فيها، ووضع الحدود والحواجز، وأوجد المسارب والمسالك بينها، كانوا حريصين على أن تكون في نضج لا يصل إليه النقد ولا العتب؛ فمثلاً مجموع من نوع من الشجر، له مسمى يختلف عن آخر، والمثل الآتي يعطي فكرة عن هذا:

«يقال: الأيكة من الأراك، والعيص من السدر، والعيطلة من الشجر، والعضهة من الطرفاء، والأجمة من القصب، والوشيجة من القنا، والغيضة من

العشب، والوهط من العوسجة» .[1]

إذا كتبنا وأردنا أن نعبر عن شجر ملتف فقد نقول: أيكة، وقد نقول: أجمة، ولا يخطر في بالنا نوع الشجر الذي تكونت منه، ومن المؤكد أننا سوف نخلط ونغلط دون أن ندري أو نقصد.

ومن هذا النص سيعرف أهل الطائف، وسيعلم زوارهُ أسباب تسمية الأرض التي تنبع منها عيون الوهط والوهيط، ما معنى الوهط، وسوف يجدون أن للعوسج أثراً في ذلك. مثلما سيجد طالبو المساويك «الأيك» حول الطائف في بعض الوديان والسهول؛ أنهم في أثر الأراك.

ونقول في حديثنا، وفيما نكتبه: «فلان نقي الجيب»، والمصطلح هذا يعني عندنا أنه بعيد عن سوء الظن، أمين اليدين؛ ولا نفكر في الجيب ونقائه؛ ولو فكرنا لتساءلنا لماذا الجيب بعينه، وليس كُمَّ اليد، وهو أقرب للمناولة والتناول؟

(١) البصائر: ٢/ ١٠٠.

وليس حجل الرجل وهي أقرب إلى الدنس عند الماشي إلى الخنى. ونجد تفسيراً عند ثعلب يقول فيه:

«قال ثعلب:

فلان نقي الجيب، لأنه أول ما يدنس من الثوب، فإذا نقي نقي سائره». [1]

ونقول للشاب وقد نبت شاربه: طَرَّ شاربه، ولا ندري معناه الحقيقي، ولكننا نعرف ما أتى به المصطلح، وعندما نبحث عن الأصل نجده فيما تذكره اللغة وكتبها:

«يقولون لمن نبت شاربه: قد طُرَّ شاربه، بضم الطاء، والصواب أن يقال: طَرَّ، بفتح الطاء، كما يقال: طَرَّ وبر الناقة، إذا بدا صغاره وناعمه، ومنه يقال: شارب طرير، وعليه قول الشاعر:

وَمَا زِلتُ في لَيلَي لدن طرّ شاربي
إلى اليوم أُبدي إحنَةً وَأُواجَنُ

(١) البصائر: ٣/ ٢٥.

وأُضْمِرُ في لَيلَي لقوم ضغينة

وتضمر في ليلى عليّ الضغائن

فأما طُرّ، بضم الطاء فمعناه قُطِع» .[1]

وهكذا ندخل حقولاً خضراء من اللغة، إذا ما حاولنا تتبع أصل كلمة، والمتعة لا تنقطع، وكلمة تسلمنا إلى أخرى، ثم ثالثة وهكذا.

وسوف نتذكر عندما نرى وبر البعير النامي أنه الأصل في تسمية نمو شواربنا عند البلوغ!

ونردد أحياناً جملة «ضغثا على إبالة» وفي ذهننا أنه حمل على حمل، والكلمة لا تخلو من موسيقى جذابة، ولعلها هي التي صرفتنا عن البحث عن جذرها، فلم نهتم إلا بجمالها، وبأدائها المتقن للمدلول الذي استدعيناها لنعبر بها عنه. ولصاحب البصائر قول في هذا:

«ضغث على إبالة: إبالة حزمة الحطب،

(١) درة الغواص: ١٧٣، البصائر: ٣/ ١٠٥.

والضغث جُرزة (حزمة) فوقها» .[1]

ولابد أن الضغث كبير، وإلا لم يكن ليشار إلى أهميته في زيادة الحمل، إلا إذا كان من نوع ملعقة جوهر، وجوهر هذا له قصة في زمننا ـ رحمه الله ـ يمكن تلخيصها فيما يأتي:

«جوهر» عتيق لبيت كريم في البصرة، أصحابهُ من أهل عنيزة المقيمين هناك، وكانوا من كبار التجار، وبيتهم مفتوح للضيوف، وعامر بهم، وهذا يقتضي نقل الطعام إلى حيث الضيوف، فكان جوهر ـ رحمه الله ـ يساهم في هذا النقل قبل الطعام وبعده، وكان فيه طيبة وسذاجة، وتصل أحياناً إلى حد يلفت النظر؛ فبينما هو ينقل في أحد الأيام الصحون الفارغة، والشوك والملاعق المستعملة، وصل إلى منتصف الطريق بين «الديوانية» والمطبخ، فأضاف أحدهم ملعقة إلى الصينية التي كان يحملها، ولعل هذه الملعقة كانت سقطت في

(١) البصائر: ٤/ ١٢٤.

الطريق في إحدى مرات النقل؛ فتوقف جوهر، وعاد من منتصف الطريق، وأعاد المعلقة إلى السفرة لتكون من جملة ما يحمله فيما بعد، مؤكداً أنها أثقلت الصينية بما لا يطاق! مع أن المسافة التي قطعها في العودة إلى السفرة كانت أطول من المسافة التي كانت متبقية بينه وبين المطبخ. ولكن المبدأ عنده ـ رحمه الله ـ كان مهماً، فما لم يبدأ به لا ينتهي به! وما لم يَحمله أولاً لا يحمله آخراً، وما لم يضعه في الصينية هو لا يقبل ما يضعه غيره.

ترى هل «الجرزة» المذكورة من نوع ملعقة جوهر ـ رحمه الله!؟

ونقرأ في بعض كتب الأدب عن العسّ والبس، فنأخذ مجمل المعنى، ولا نتدبر مصدر الكلمة ومأتاها، فنعثر يوماً في أحد الكتب على خبر منزو في إحدى الصفحات، قد يكون جاء استطراداً أو عرضاً، فيحل لنا عقدة هذا الطلسم، ويجلو لنا غامضه، فيتبين لنا آخراً ما لم يتبين لنا أولاً؛ وقد

تبين أن الأمر كان قريباً منا، والتفسير مع بعض التفكير لم يكن بعيداً، ولكن هذه دائماً طبيعة السهل الممتنع، عندما يقرب لا يُصدق المرء أنه كان بعيداً، وعندما يَعرفه يَعجب كيف كان يَجهله، وبعد أن يدركه يَستغرب كيف كان يَظنه عُقاباً في قنة جبل.

وهذا هو النص الذي فتح لنا الباب المغلق وأنار لنا الطريق المظلم، وسهل لنا صعود الدرج الصعب:

«يقال: جمعت هذا المال من عَسِّى وبَسِّى؛ العَسَّ الاحتيال، والبَسُّ بلوغ الجهد»[1].

ونعبر عن شيء يتمم أمرا، فنقول ثالثة الأثافي، وفي ذهننا أن القدر لا يوضع على اثنتين من الأثافي، وإنما على ثلاث، فنظن بهذا التعبير أن المقصود هو هذه الثالثة، ولكن عند التحقق يتبين أن في الأمر غير ما ظننا، والنص التالي يبين التعريف الحقيقي:

---

(١) البصائر: ٤/ ١٨٤.

«ثالثة الأثافي: قطعة من الجبل، يضم إليها حجران، فتكون أثافي القدر. وهي مَثَلٌ في الشدة يقال: رماه بثالثة الأَثافي، قال علقمة بن عبده:

وكل قوم وإن عزوا وإن كرموا
عريفهم بأثافي الشر مرجوم»[1]

إذاً فثالثة الأثافي، وهي المصيبة أو الداهية التي قد يشار إلى أنها أصابت الإنسان، هي في الحقيقة الجبل بكامله، فهي عظمى إذا ما قورنت بالاثنتين الصغيرتين.

هذا جانب طريف من جوانب لغتنا تتبعنا فيه جذور بعض الكلمات ونسبها، ورأينا كيف يزول اللبس، وتتسع رقعة المعلومات عندنا عندما نقوم بجولة في عمق حياة الكلمات ومدلولها أو مصطلحها.

ولكن هذا الجانب ما هو إلا واحد من جوانب كثيرة، فإذا كان البروز في ما قلنا تركز على الألفاظ أولاً ثم مدلولها ثانياً، فهناك جوانب من اللغة

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٢٠٢.

يذهب السائر في مسالكها، وهو يهتدي بالمعنى، وما اللفظ إلا وسيلة إليه، وهذا الجانب ممتع، ولعل مما يفيد أن نسوق بعض الأمثلة منه، ونعطي نماذج تهدي إلى بقية ما لم نسقه.

تعريف بعض الأسماء، والجري خلف المدلول، مظهر من مظاهر تعاون العقل مع اللغة، والتفكير مع التعبير؛ فيغوص على الدرر فيه بعض من أعطاهم الله الحكمة، فَيُعْرفون بهذه المقدرة، فيتوجه إليهم الرأي في هذا، ويبدو أن ابن القرّية أحد هؤلاء، سواء كان ما يروى عنه صحيحاً أو موضوعاً على لسانه، فهناك من يقول إنه لا وجود له[1] ، ومعنى هذا أن مثل هذه الأقوال قالها مفكر آخر وصاغها ونسبها له ترويجاً لها، وتثبيتاً لها لدى الوراقين.

«قال الحجاج لابن القرّية:

من أعقل الناس؟

---

(١) الأغاني: ١/ ١٦٩، وفيات الأعيان: ١/ ٨٢، البيان والتبيين: ١/ ٢٠ (مأخوذ من هامش ربيع الأبرار: ١/ ٤٥٧).

قال: من يحسن المداراة مع أهل زمانه». [1]

إن في هذا القول لحقّاً وإن فيه من الصدق ما يجعله ثميناً غالياً ونفيساً رائجاً، وفيه فائدة لمن أراد أن يجعل هذا من خلقه؛ ففيه راحة للإنسان من المواقفات التي تنغص على المرء حياته؛ ومن لم يدار الناس تعب، وأصبح له مشاغبة بين آن وآخر، لا ينتهي من واحدة إلا بدأت الأخرى، هذا إذا لم يركب بعضها بعضاً.

وقد جاء السؤال من الحجاج هنا في كلمة قصيرة، وجاء الرد مثلها، وهذه طبيعة الحكمة، واللغة العربية من خير حاملاتها.

والحجاج مغرم بالسؤال، وانتظار الجواب، فإن لم يأت الجواب فقد أعد في الغالب جواباً، وصل إليه بعد فكر وملاحظة؛ وهو أديب يحب من الأدب جوانب تضيء الفكر، وتهدي إلى العمل الحسن، ولهذا كان يأتي منه العفو لأناس أقلقوا

(١) ربيع الأبرار: ٣/ ١٤٢.

أمن البلاد، وشاغبوا الدولة، وأهانوا هيبتها، فانْتُظِر في ضوء حزم الحجاج أن ينالوا أقصى العقوبة، ولكنهم نطقوا بكلمات أدب مضيئة، فشع في نفسه ترجيح العفو على العقاب، ونسي بسببها حدة الذنب وخطورته، ولم يذكر إلا حلاوة الإِحسان، جلبها الأدب.

وجريا على عادته في استنباط بعض دفين العقل، وحصيلة أعماله، سأل الحجاج يوماً أحد جلسائه:

فقال لخريم الناعم [وهو خريم بن خليفة بن سنان بن أبي حارثة المري]:

«ما النعمة؟

فقال الأمن، فإني رأيت الخائف لا ينتفع بعيش.

قال: زدني.

قال: الصحة، فإني رأيت السقيم لا ينتفع بعيش.

قال: زدني.

قال: الغِنى، فإني رأيت الفقير لا ينتفع بعيش.

قال: زدني.

قال: الشباب، فإني رأيت الهرم لا ينتفع بعيش.

قال: زدني.

قال: لا أجد مزيداً». [1]

لقد أحسن الحجاج، إذا صح الخبر، في اختيار الكلمة التي اختبر فيها عقل مجالسه، ودخل بها إلى العمق من نفسه. ولم يكن خريم بعيداً عن حسن ظن سائله، فقد ملأ مجلسه، واستحق أن يتقدم فيه. ولقد حاف الكلمة، ودار حولها، فلم يدع لها جانباً إلا كشفه، وأردف هذا بإضاءة التعليل المبني على التجربة والملاحظة، فيأتي القول معه شريفاً قوياً، لا يتطرق إليه الشك، ولا يعتريه الوهن، ضياؤه هاد، وصوته مطرب، يصلح للعبرة، وينفع للإقتداء، ينال حظوة التسجيل، ويستفرد بالتداول والإشاعة.

ودليل غرام الحجاج بأمثال هذا التعريف، وحفر جادة واضحة في الطريق، أنه يتفنن في إلقاء

(١) ربيع الأبرار: ٤/ ١٦، بهجة المجالس: ١/ ١٢٦.

الأسئلة على جلسائه، وينوع في استنباط الفائدة منهم، أملاً في أن يجد عندهم أكثر مما توصل إليه بعد التدبر والتفكير، وحرصاً على أن يزيد علمه بما يضيف إليه من علمهم، وهذا طموح نبيل، يهبه الإنسان نفسه، وهي أعز ما عليه، وفي هذا الموقف الآتي ما يبرز جانباً من عقل الحجاج، وأهل زمانه، وكيف يستفيدون من وقتهم، وفي أي شيء يقضون فراغهم وسمرهم:

«سأل الحجاج جلساءه عن أرق الصوت عندهم، فقال أحدهم:

ما سمعت صوتاً أرق في سمعي من صوت قارئ حسن القراءة لكتاب الله في جوف الليل.

قال: إن ذلك لحسن.

وقال آخر: ما سمعت صوتاً أعجب من أن أترك امرأتي ماخضاً، وأخرج إلى المسجد مبكراً، فيأتيني آت، فيبشرني بغلام.

فقال: واحسناه.

فقال شعبة بن علقمة التميمي: لا والله ما سمعت صوتاً قط أعجب إلي من أن أكون جائعاً فأسمع خفخفة الخوان.

فقال الحجاج: أبيت يا بني إلا حب الزاد». [1]

ولعل وقت الزاد قد حضر، فأراد علقمة أن يختصر هذا الحديث المشوق، وقد بدا أنه سيطول، ويذكر بالأكل.

وسؤال الحجاج المنتقى بحفاوة، المختار بعناية، جاء بهذه الأقوال الصائبة، إلى حد أن الحجاج صرخ تجاه أحدها بقوله «واحسناه».

والوصف البارع، والتعريف الدقيق، يدخل من أوسع الأبواب في هذا الموضوع، فهو تحديد للمعاني للشيء المطلوب أن يدل عليه، ولهذا تتقدم إلينا النخلة، هنا بتعريف بليغ وصفها به خالد بن صفوان، المعروف بفصاحته، ومقدرته على التعبير المؤثر، ورسم الصورة المتقنة التأثير،

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٥٧٥، هذه إحدى الروايات.

للوصول إلى الهدف:

«قال خالد بن صفوان في وصف النخل:

هن الراسخات في الوحل، المطعمات في المحل، تخرج أسفاطاً، عظاماً وأوساطاً، كماملئت رياطاً؛ ثم تتفرى عن قضبان اللجين، منظومة باللؤلؤ الأبيض، وتصير ذهباً أحمر، منظوماً بالزبرجد الأخضر، ثم تصير عسلاً في نحاء، مُعلقاً في الهواء، ليس في مسك ولا سقاء، بعيداً من التراب، لا يقربه الذباب، دونه الحراب، ثم يصير وَرِقا في كيس الرجال، يستعان به على العيال» .(١)

وأمثال هذا الوصف كثير في كلامهم، ينتقون له الكلمات الجزلة، ويختارون الأسلوب المساعد على الحفظ والتداول، بصور بديعة جذابة، يستعيرون لها ما يحبه الناس، ويبهجهم، مثل اللجين، واللؤلؤ، والزبرجد، والذهب.

ونعود فنختم ببعض نصوص وردت عن الحجاج

---

(١) البصائر: ٣/ ٧٣.

وتعلقه في تعريف بعض الكلمات، وهو يدخل ضمن ما لاحظنا من ولع الحجاج بسؤال الحكماء والأدباء والمفكرين من جلسائه، وما نعتقد أنه يشغل ذهنه، بينه وبين نفسه، من كثرة ما يروى عنه في هذا الصدد، إذا صحت هذه الروايات؛ والحجاج أديب شهد له الموثوق بهم من معاصريه بالفصاحة، ومن هذه الشهادات قول رؤبة بن العجّاج، وأبو عمرو بن العلاء.

«أنهما لم يريا قَرَويين أفصح من الحسن والحجاج».[1]

والفصاحة التي بمثل هذا المستوى المؤدي إلى مثل هذا الرجل، لابد أن لها تغذية تبقيها حية، وتصقلها، وتزيدها.

والانشغال بالتفكير في بعض جوانب الأدب والفكر، وسؤال أهلهما، ومجادلتهما من أسباب الارتقاء بالمستوى عند الإنسان:

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٢١٩.

«قال الحجاج لابن القرّية:
ما الأدب؟
قال: تَجَرُّعُ الغُصَّة حَتَّى تُمكنَ الفُرصَة». (١)

ويؤكد تعلقه بالأدب معرفة الأدباء بذلك، ومراعاته عند الحديث معه، ولا يكون هذا إلا إذا رأوا منه عناية به، وحرصاً عليه، وموقفه مع الشعبي يدل على ذلك:

«دخل الشعبي على الحجاج فقال له الحجاج:
يا عامر أدب وافر، وعقل نافر.
فقال: صدقت أيها الأمير، العقل سنخ، والأدب تكلف، ولولا أنتم معشر الملوك ما تأدبنا.
قال: فالمنة لنا في ذلك دونكم.
قال: صدقت أيها الأمير». (٢)

وبعد:

هذه نتف من هنا وهناك جاءت بتعاريف مختلفة،

---

(١) بهجة المجالس: ١/ ١١٠.
(٢) البصائر: ٢/ ١٧٧.

لأمور متعددة، وما في الكتب أوفى وأكثر؛ بعضها خصص له كتب مفردة، وبعضها جاء في أبواب معينة، وبعضها أدى إليه استطراد، فجاء منجماً داخل الأبواب وما جئنا به ما هو إلا نماذج تري ما في الحقل من ثمرة، ولعلها تشد قارئاً إلى الاستزادة والمتابعة.

في جوادّ العقل[1]

العقل تلك الجوهرة الثمينة التي يتميز بها الإنسان، أعطاه الله إياها لتسعد حياته، بها يعرف الصحيح من الخطأ، والسليم من السقيم، والمفيد من الضار، والنافع من المؤذي، والعدل من الظلم، والحق من الباطل؛ وبها يميز النور من الظلمة، والارتفاع من التدنّي؛ وبها يقبل على ما أُحِلّ، ويبعد عما حُرّم، هي له دليل، وإمام قائد؛ حياته لا تستقيم إلا بها، ولا يسعد إلا عن طريقها؛ لا يستغنى عن هذه الجوهرة وإعمالها لحظة من لحظات اليقظة، ولا يتجاهلها لأبسط الأمور التي تمر به ولا لأدناها.

حياة الإنسان محكومة بالعقل، فهو يسبق عمله، ويحيطه، ويتبعه، وجميع إنتاجه المحمود من فعل العقل وتدبيره. ما بناه الإنسان على وجه الأرض من بناء، وما أنشأه من صناعة وزراعة، لعب فيه العقل

---

(١) نشرت في صحيفة «عكاظ» بالعدد (١٠٣٥١) في: ٨/ ٧/ ١٤١٥هـ الموافق: ١٠/ ١٢/ ١٩٩٤م.

الدور الرئيس؛ وقد كرمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأن دعا إلى إعماله، وحاسب الإنسان على عدم الاستفادة منه وإهماله، فورد في القرآن الكريم مدلوله بصيغة: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أو ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، و ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ و ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ أكثر من عشرين مرة، في سور مختلفة، وفي محتوى مختلف. وكذلك كلمة ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ كذلك، أكثر من عشرين مرة.

والناس يختلفون في هذه الهبة الإلهية، بعضهم حَظُّه منها وافر، وبعضهم حَظُّه منها قليل، ولهذا فالاستفادة تأتي على قدر الهبة؛ أما إذا سلب الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الهبة من أحد، فهو أقرب إلى بعض الحيوانات، بل لعل بعضها يكون أكثر فائدة للمجتمع منه، وأعظم نفعًا.

جانب من جوانب العقل، وجادة من جواده، تكمن في بعض الأقوال التي يتبين فيها وفرة العقل وحدته، وحسن استخدامه، ويتمثل هذا في صدق المنطق، وعدالة المعنى، وسمو اللفظ. ويأتي ذلك في

الأمر الصغير والأمر الكبير، لا فرق في ذلك، لأن الحق العدل الصادق من طرح العقل السليم، هو نور يشع، صغر الأمر الذي سطع عليه النور أو منه أو كَبُر، فهو نور جاذب للأعجاب والالتفات، ومستحق للإشادة والتقدير.

ولا يختلف ما يأتي من العقل من طرح سليم، سواء كان الأمر جداً أو هزلاً، أمراً خطيراً أو فكهاً تافهاً، فالجمال يوجد في هذا وفي هذا، وليس مقتصراً على هذا دون ذاك.

وتلعب البديهة وسرعتها أحياناً في أن تجعل من الأمر البسيط أمراً شريفاً يستحق أن يُلتفت إليه وينقل، ويُروَى ويسجل، وهذا الانتباه، وهذا الحرص على التسجيل هو الذي حفظ لنا هذا القدر من التراث الذي يتبين فيه سمو العقل، وصدق المنطق، وتوفر العدل.

ولقد كان الأدباء والكتاب والمؤرخون يقظين يقظة تامة لِلَقْطِ ما يقال متصّفًا بالرد المعقول،

والمنطق الصادق؛ فهم في تربص الصياد الماهر يرصد ما يجد، ويتداول ما يعجب في هذا المجال؛ وقد وجدوا في هذا النسق متعة، أدى بهم تقديرها إلى أن بدؤا ينتحلون أقوالاً وصلوا إليها بتأمل، ينحلونها لأناس يختارونهم من بين من تلائمهم هذه الأقوال؛ فإن كان الخبر يخص الكرم بحثوا عن كريم في عصر سابق فألبسوه هذا الرداء، وإن كان بخيلاً بحثوا بين البخلاء عمن يمكن أن يلائمه ما ألفوه، وهكذا فعندهم أسماء مهيأة من أصحاب الصفات المختلفة، والمهن المتعددة.

ومن أبرز ما يدونونه في هذا المجال ما يخص الردود الجميلة الصائبة، والتي تدل على تميز عقل صاحبها، وحسن تعبيره عما جال في ذهنه، والتعليل من الأمور التي تبين عمق الفكر، وصحة العقل، فيجعل الأمر مقبولاً، ومحل إعجاب، ومن الأمثلة على ذلك مايلي:

«قيل لأعرابي:

ما لك لا تضع العمامة عن رأسك؟

قال: إنّ شيئًا فيه السمع والبصر لحقيق بالصون». [1]

إنه قول شاف كافٍ، صدق صاحبه في فكرته، وأحسن في عبارته، ولا يحتاج المرء مع هذا الجواب مزيداً.

وتجرد الإنسان من العادة، وإعماله فكره، وقوله ما توصل إليه من حق وعدل، وشجاعة تحمد، وجرأة تقدر؛ يمثله ما كان من امرأة أعرابية، أبدت رأيًا صادقًا، أقنع الرواة أن يسجلوه؛ وهم إن فعلوا ذلك استلطافًا وتفكهًا، فنحن نأتي به هنا على أنه فضيلة جمعت مع الشجاعة في الرأي، صدق القول، وسلامة التعبير عن ما جال في ذهن المرأة بأمانة وبراءة:

«دفعوا إلى أعرابية علكًا لتمضغه، فلم تفعل، فقيل لها في ذلك، فقالت:

ما فيه إلا تعب الأضراس، وخيبة الحنجرة». [2]

ولكن الذين عرضوا عليها العلك قد أتخذوه

---

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٨٨.

(٢) البيان والتبيين: ٢/ ٩٥.

عادة، فلم تكن نظرتهم إليه مثل نظرتها، ولعل قولها أدهشهم، لأنه أيقظهم من غفلة كانوا فيها، نتيجة ما تراكم من العادة في سحب حجبت شمس الحقيقة التي كشفت الأعرابية عنها الغطاء. والعادة تفعل أكثر من ذلك، وأقرب مثل لجور العادة وتسلطها عادة التدخين؛ فلا أحد من المدخنين يجهل الأضرار التي تأتي منها، ولا أحد لم ير أثرها السيء على من قضت على صحتهم، ولكنهم ينسون في غمرة لذة إنفاذ العادة، وإذا ذُكِّروا فليس لديهم من الإرادة ما يغلب هذه العادة؛ وهي عادة مدخلها على الإنسان سهل ومتدرج، فإذا دخلت تمكنت، ولا تقتلع إلا في النادر، وبمجهود كبير.

وما دمنا في ضيافة الأعراب، فلنزد على ما قلناه قولاً، ونقص ما تلفظ به شيخ من الأعراب، وما جاء في قوله من حق وصدق، استحق أن يدون، وأن تتلقفه يد الزمن من جيل إلى جيل، وأن ينقل من كتاب إلى كتاب، حتى وصل إلينا ولم يخب

أواره، ولم يضعف ضياؤه:

«قيل لشيخ من الأعراب:
قمت مقامًا خِفْنا عليك منه؟
قال: آلموتَ أخاف! شيخ كبير، ورب غفور، ولا دَين ولا بنات» .[1]

نور فوق نور، اجتمع الإيمان بالله ـ سبحانه وتعالى ـ في رجاء غفرانه، مع العقل في أنه سوف يترك الدنيا ولا عبء يحمله معه من دَين أو بنات يفقدنه إذا مات.

لقد جمع هذا الشيخ الدين والحكمة ليجعلهما ترسًا أمام الخوف من الموت، وبهما يرحب بيومه إذا أتى.

والكتّاب والأدباء يعجبهم من الأعراب عدم التكلف في أقوالهم، وعدم التصنع في حياتهم، فهم يسيرون في أفعالهم وأقوالهم على سجيتهم، لا يتظاهرون ولا يقلدون، إنّما يصفون ما يشعرون به

(١) البيان والتبيين: ٣/ ١٩٧.

بصدق، وما تتوصل إليه عقولهم بأمانة وصراحة؛ ويتضح هذا مما سبق عنهم، ومن قصة الأعرابي الآتية:

«مات لابن مقرّن غلام، فحفر لهم أعرابي قبره بدرهمين، وذلك في بعض الطواعين، فلما أعطوه الدرهمين قال:

دعوهما حتى يجتمع لي عندكم ثوب»[1].

لعلهم لم يفرحوا بهذا الفأل، ولعل الأدباء جاؤا به ليدل على سذاجة هذا الأعرابي، وقوله ما لا يناسب المقام، فليس في قوله عزاء، وهذا موقف عزاء، ولكن الأمر من وجهة نظره له ما يبرره، فالوقت وقت طاعون، والطاعون يكتسح، ويأتي بزبائن حفاري القبور بسرعة مذهلة، فالأفضل أن تجتمع النقود، بدلاً من أن تعطى مفرقة، خاصة وأن تفريقها في دفعها يغريه بانفاقها فيحرم من الثوب الذي يتطلع إلى شرائه، لهذا فهو حريص على أن يكون دفعهم له

(١) البيان والتبيين: ٤/ ١١.

مما يساعده على تحقيق هدفه .

وإذا كان أهل الحاضرة في يدهم ما يمسكونه دلالة على سذاجة الأعرابي، فعندنا دليل على عمق سذاجة ابن الحاضرة مع ابن الحاضرة في قصة لها صلة بالموت أيضًا، ولكن الخَرْقَ فيها لا يمكن أن يرقع بعذر، والخلل لا يمكن أن يصلح بحجة، وهذه هي القصة :

«قال أبو الحسن :

جاء رجل إلى رجل من الوجوه[1] ، فقال :

أنا جارك، وقد مات أخي، فمر لي بكفن .

قال : لا والله ما عندي اليوم شيء، ولكن تعهّدنا، وتعود بعد أيام، فسيكون ما تحب .

قال : أصلحك الله ـ فنملحه إلى أن يتيسر عندكم شيء!» .[2]

---

(١) صاحب البصائر يذكر أنه : حمزة بن النصرانية . وفي روايته أن طالب الكفن عندما صده حمزة قال له : «أصلحك الله فمر لي بدرهم ملح، قال ما تصنع به؟ قال : أملحه حتى لا ينتن إلى أن يتيسر كفنه من عندك»، البصائر : ٤/ ٧٢ .

(٢) البيان والتبيين : ٤/ ١١ .

إذا كان لما قاله الأعرابي وجه حق، وإذا كان له تعليل مقبول، فإن قول الحضري لا وجه لقبوله، ورفضه مُوَاتٍ، وكان بوسعه أن يعتذر بعذر آخر، ولو بقوله: «لن أعطيك»؛ ولكنه ليفكه أهل زمانه وليفكهنا، ولتسجل كلمته، وتنحدر في بئر الزمن، قال ما قال.

ـ[1] ويأتي المنطق الصادق أحياناً من أصغر الناس، يأتي بالقول الحق بديهة، لصفاء ذهنه، وحدة إدراكه، والطفل الذي قال ما قال في القصة الآتية، إنما تبع لسانه مسارب عقله، فيما تسلسل إليه تفكيره:

«قعد صبي مع قوم، فقُدِّم شيء حار، فأخذ الصبي يبكي؛ فقالوا له:

ما يبكيك؟

قال: هو حار.

قالوا: فاصبر حتى يبرد.

قال: أنتم لا تصبرون»[2].

---

(١) بدء الجزء المضاف على ما نشر في «عكاظ».

(٢) البصائر: ٤/ ٧١.

لقد مرت سلسلة وضع الطعام، وتقدم الناس لأكله، واقتدارهم على ذلك رغم حرارته، وعجز الطفل عن مجاراتهم في الأكل لشدة حرارته، وعجزه عن تحمله مثلهم، فأخذه اليأس، وضاقت به الحيلة، والطفل مثل المرأة عند القهر يلجأ إلى البكاء، لأنه المتنفس القريب له. فالبكاء، وما تلفظ به، هو نتيجة الطريق الطويل الذي مر به ذهنه، وهو يتمعن في الأمر ومجراه.

ويأتي المنطق الصادق، والعقل الراجح، والفكر الصائب، والحكم الناضج، من رجل مهنته معتادة، فلا يقل عن وضوح ذهن الطفل الذي ساوى ذهن الرجال فيما نطق به؛ هذا الرجل طحان من عرض الناس، ولا يتوقع منه أن يرسل هذا الجلمود «المُلْوِي» على قبيله المخاطب له، والفهر المنحط بقوة على هذا المدعي المهدد، فيلجمه بالقول، ويسكته بالحجة، ويدهشنا بالمنطق السليم، وهو من أمثال السهل الممتنع، فما أسهله وأقربه وأصعبه وأبعده:

«حمل رزام بن حبيب إلى طحان طعامًا، فقال له:

إطحنه.

قال: أنا مشغول عنك.

قال: إن طحنته وإلا دعوت الله - عز وجل - على حمارك ورحاك.

قال: أومستجاب الدعوة أنت؟

قال: نعم.

قال: فادع الله أن يُصيرِّ حنطتك دقيقًا، فهو أروح لك!». [1]

ونعود إلى الأعراب وأقوالهم الصائبة، وجوابهم الشافي، وما في أذهانهم من صفاء، وما يتمتعون به من سرعة البديهة، وصدق القول، وقرب المتناول للأفكار، ووضوح الصور لهم، وما يقولونه مما يشفي الصدور، ويطرب الأذهان، ويأخذ بمجامع القلب قبولاً واقتناعًا:

«اشترى أعرابي غلامًا، فقال للبائع:

---

(١) البصائر: ٧/ ٨٣.

هل فيه من عيب؟

فقال: لا، غير أنه يبول في الفراش.

فقال: ليس هذا بعيب، إن وجد فراشًا فليبل فيه». (١)

ويأتي المنطق الصادق، والرد المفاجى المعجب من عالم استفتي، وظُنَّ أنه سيفتي بأحد رأيين متعارضين، لا يخطر بباله غيرهما، ولكن نور العلم يشع في نفسه، فيهتدي إلى قول حق لم يخطر بالبال، وهو الأقرب للعقل، وأولى بالقبول مما توقع السائل، الذي كان ملأ يده من الجواب المتوقع في أول الأمر بأحدى شعبتيه، والقصة تجري حوادثها كالآتي:

«قال رجل ليعقوب ـ فقيه سجستان ـ:

إذا نزعتُ ثيابي، ودخلت النهر للغسل، إلى أين أتوجه؟ إلى القبلة أم إلى غيرها؟

قال: أفضل لك أن يكون وجهك إلى ثيابك التي تنزعها». (٢)

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٣٦٢.

(٢) ربيع الأبرار: ١/ ١٩١.

سأله على أنه فقيه، تحرجاً من أن يقع في خطأ، أو يفوته الأفضل في التصرف، فأجابه الفقيه بالعقل، والعقل يسير مع الدين، فالمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف؛ ومن القوة أن لا تهمل حراسة ثيابك حتى لا تسرق، فتبقى متحسراً تلطم نتيجة التفريط، والتعلق بأذيال التنطع؛ والخير في أن تجتمع النية الطيبة، والفعل الصائب، وقد اجتمعا في نصيحة الفقيه يعقوب.

ويبدو أن هذا الفقيه موفق لتلقي اسئلةٍ مثل هذه، جوابها المباشر من حصاد العقل الذي شحذه الدين، وسن سلاحه، فجاء منه قاطعًا؛ وموفق في إعطاء الجواب المدهش، لأنه يأتي بما لم يتوقع، ويفاجئ فيه بما لم ينتظر، والقصة الثانية التي تروى عنه، فيها سؤال غريب، والجواب جاء مثله مفصلاً عليه:

«سأل رجل يعقوب ـ فقيه سجستان ـ:

إذا شيعنا جنازة، فقدمها نمشي أم خلفها؟

فقال: إجهد ألا تكون عليها، وامض حيث شئت». [1]

وليس لهذا السؤال الساذج، إلا هذا الجواب المتهكم. وإلا فالمعروف أن الناس يمشون بجانبها وخلفها، ويمشي من يمشي أمامها، تمهيداً للمشاركة في حمل النعش، ثم يترك مكانه لغيره، ويتأخر أو يتقدم أمامها ثانية ليعيد الكرة في المساهمة في الحمل. وهذا أمر واضح لكل من مشى مع جنازة.

وهذه عادة بدأت تتقلص في بعض المدن، لأن الجنازة تحمل من المسجد إلى القبر في سيارة، وتقف السيارة بها عند القبر؛ وذلك لعظم المدن واتساعها، وتعقّد أمور السير، ووجود المقابر على أطراف المدن، مما لا يسمح للناس بحمل الجنائز والسير بها في طريق طويل، يأخذ منهم ساعات وساعات.

ويستعير رجل تعبيراً من بيئته يرد به على مزاح الخليفة؛ من بيئة البادية وحياتها، وما فيها من خصب

---

(١) ربيع الأبرار: ١/ ٦٩١.

وجدب، وحياء وقحط، فيأتي جوابه لابسًا ثوب الصدق، متدثراً بدثار العدل في الجواب، فيقبل الخليفة، هذا القول الكبير في هذا الأمر الصغير؛ هذا إذا صحت الرواية، فمعاوية من أولئك الذين أغرم الرواة والنحّالون بالتقول عليهم، وتركيب بعض الأعمال والأقوال عليهم، فتأتي ملائمة، لا يكاد السامع ينكر لها وجهًا:

«تغدى صعصعة بن صوحان عند معاوية يوماً، فتناول من بين يدي معاوية شيئًا، فقال:

يا ابن صوحان، لقد انتجعت من بعيد!

فقال: من أجدب انتجع»[1].

والمنطق الصادق، والقول الحق، يأتي أحياناً في الصورة يرسمها اللفظ، ويأباها المعنى، ويقبلها الشكل، ويرفضها المضمون، فتدخل حينئذ في باب الفكاهة، وتعد من النوادر، التي لا يفكر فيها إلا رجل حاذق في ذهنه، متمرس في السخرية، يجيد

---

(١) البيان والتبيين: ٢/ ١٨١.

التهكم، ويتقن أصوله، ويعرف الطريق إليه، والمقدرة على اصطياده، والقصة الآتية من هذا النوع:

«أتى قومٌ عِباديًّا فقالوا:

نحب أن تسلف فلانًا ألف درهم، وتؤخره سنة.

فقال: هاتان حاجتان، وسأقضي لكم احداهما، وإذا فعلت ذلك فقد أنصفت؛ أما الدراهم فلا تسهل عليّ، ولكنّي أؤخره سنتين» .[1]

لقد انصف في الظاهر، واستجاب شكلاً، ورد باطناً، وحاد أسًّا ومُحًّا؛ ولقد وفق في العذر، فلعله بهر قاصديه، وصرفهم عن هدفهم إلى التمعن فيما قال، وأخذوا يفكرون فيه، بدلاً من الحِجَاج والنقاش والمؤامرة معه على تيسير ما عسر، وتسهيل ما صعب. ولم يخل الأمر من سرعة بديهة لا تسبق بالفضل هذا الابتكار في الرد، وهذا الإبداع في الجواب، وإنه لرد مفاجئ مدهش، استحق أن يدون، وأن يروى، وأن يتناقل في الندوات والمجتمعات، وأراه يصلح

(١) البيان والتبيين: ٤/ ٦.

اليوم عذرًا لمن أريد منه أن يسلِّف ويؤجِّل!

ويصدق رجل، ويقول الحق بكلمتين حملتا معنى كبيراً، لا يسع الإنسان إلا أن يقول حيالهما حين يسمعهما: صدق القائل، ولا فض فوه؛ فقد تعمقتا في النفس الإنسانية، وجاءتا بما لا يمكن لإنسان أن يرده، وما قاله صاحب هذا الجواب، وما رد به، جاء نتيجة تجربة وتمعن، وحسن اختيار للقول، وقد جاءتنا الحكمة مهيأة ناضجة، والقصة كالآتي:

قيل لبعض العقلاء:

أي الطعام أطيب؟

قال: الجوع أعلم». [1]

وقد مرت بي تجربة وأنا صغير، وقد أكون دونتها في كتابي «أي بني»، أو في قول آخر [2]، وهي بهذه المناسبة تستحق أن تذكر، فهي تؤكد ما قيل هنا:

في عام ١٣٦١هـ أو أواخر عام ١٣٦٠هـ سافرت للرياض حيث يقيم والدي ـ رحمه الله ـ، وحيث

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٧٨.

(٢) قد تكون في مذكراتي.

يعمل مديراً للمالية، في عهد الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ وجئت محرماً لقريبة لي، فلما أوصلتها كان هناك سيارتان تحت الخيار، يمكن أن تعيدني إحداهما إلى مكة، فإحداهما مخصصة لرحلة يقوم بها إلى مكة خبير زراعي كان يعمل في الخرج اسمه عز الدين الشواء، يبدو أن مهمته قد انتهت، والأخرى سيارة لوري كبيرة. فاخترت الكبيرة، لأن فيها مجتمعاً يصلح لي.

وأخذنا معنا خروفًا، وكان الوقت شتاءً، والبرد قارسًا، ونزلنا من هضبة العارض في الليل، وضِعنا، واتفق الرأي على أن ننام، «والصباح رباح»، وفي الصباح تبين أننا لسنا بعيدين عن «مرات»، وأننا كنا ندور في حلقة مفرغة، وحسناً فعلنا حين وقفنا، ولو لم نفعل لكنا أنفقنا الوقود الذي معنا دون فائدة، واحتجنا إلى المقام حيث ينتهي وقودنا، حتى تمر بنا سيارة بعد يوم أو يومين أو ثلاثة أو خمسة أو عشرة!

ثم استأنفنا سيرنا، فلما قاربنا اختراق حبل رمل «السرّ»، تلفت إحدى عجلات السيارة، ومن

حسن الحظ أنها الخلفية، وأن معها جَنبًا لها، تحملت عنها العبء، حتى أكملنا عرق الرمل الصعب، والسيارة تجنح طوال سيرها فيه، لعدم تعادل جسمها، لما حلّ بعجلتها.

ووقفنا لنقيم في «خف»، انتظاراً لمن يمر بنا من راكبي السيارات فيخبر عنّا، فمرت بنا السيارة الصغيرة التي فيها الخبير، ووعد بأن يخبر عنا عندما يصل إلى مكة، ورغم أننا لم نبق في مكاننا هذا إلا يوماً واحداً، وانتقلنا إلى «الدوادمي»، ووجدنا سيارة من سيارات وزارة المالية بها عطل، ظننا أننا أصلحناه، وتبين غير ذلك، ولهذا أقمنا بين الرياض ومكة اثني عشر يومًا! وهذا أمر يطول شرحه، وشرح المعاناة التي مررنا بها، والطرائف التي حدثت لنا.

وننتقل إلى الجزء المهم الذي يخص الأكل والجوع، وهو ما قادنا إلى هذه الرحلة وخبرها.

لما وصلنا إلى خف كان الوقت ضحى، وبادر الرجال إلى ذبح الخروف الذي معنا استعداداً

للغداء، وكان الجوع شديداً مع البرد القارس، فكنا نتعجل فنقطع من اللحم ونشوي؛ ورأيت من بعيد السائق ومعاونه يعملان بجهد على شيء بينهما، وكانا منتحيين ناحية عن القوم؛ فذهبت لأرى ما يعملان وكانا غير سعوديين، ولكنهما عربيان، ووجدت بين يديهما إناءًا أسودَ هو في الحقيقة غطاء من أغطية عجلات السيارة، قد اجتمع فيه الوسخ، من جراء الزيوت التي تحتاجها السيارة، وتراكم الغبار، ولم تكن أيديهما بأقل وساخة؛ فدهشت مما يفعلان، وعاتبتهما، وقلت: إن الأكل الشهي في طريقه إلى النضج، وأنتما تعدان مثل هذا الغذاء. وكان يعجنان تمراً وسمناً وخبزاً.

فضحكا ضحك المجرب، وقالا:

سوف نأكل الأكل الذي ذكرت، ولكن في هذا البرد الذي «يبري» العظم، سوف لا نستغني في وقت لاحق عن هذا الذي ترى، وتزدري.

وعدت إلى صحبي، وتغدينا جميعاً والسائق

ومعاونه معنا، وتدفأنا بهذه الوجبة الشهية عند منتصف النهار، وقِلنا، ثم نظرت عند منتصف العصر، وقبل دخول الليل، وقد أمضني الجوع، إلى السائق ومعاونه، وإلى حركة بدأت تدب عند سيارتهما، فانسللت إليهما، فوجدتهما يأكلان خبيصتهما، فهجمت معهما «هجوم الحرس»، دون استئذان، ناسياً ما كنت قلت في الصباح، ولم أفكر في القذارة، وإنما فكرت في الجوع، والقضاء على غائلته.

لا أظنني أنسى تلك الوجبة التي نقلتني بحنان من وجبة الظهر إلى وجبة العشاء، لقد كان الجوع هو سيد الموقف، وتعاضد معه البرد والشباب، فكان لها ما أرادت. ولهذا فقول أحد العقلاء صادق عادل، في كل جانب منه.

وقد تحدثنا قبل قليل عن الذي طلب من آخر قرضاً مؤجلاً، فقبل التأجيل، واعتذر عن القرض، ويبدو أن القروض يستدعي طلبها استعمال العقل

بأقصى طاقاته؛ والقرض في الغالب ثِقْل يقع على المُقْرِض، يحاول بالعقل أن يدفعه، ويعتذر عنه، وهذا الأصمعي، وهو رجل ذو عقل نادر، وذهن صاف، وله ردود ذكية مشهورة معروفة، تتناقلها الكتب، ويتداولها الرواة، له قصة مع مستقرض، صورتها كالآتي:

«استقرض جار الأصمعي منه دريهمات، فقال له:

أين الرهن؟

قال: ألست واثقاً مني؟

قال: بلى، وهذا خليل الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان واثقاً بربه، حيث قال ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ .[1]

وإذا لم يأت هذا العذر عائقاً للمستقرض، فقد يلجأ الأصمعي إلى أن يغالي في الرهن، فيقضي على كل أمل في الاستجابة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠، لطائف اللطف: ٧٦.

والأصمعي، وهو العالم بأمور الدين، استفاد من علمه، في حماية نفسه مما لم يجد نفسه راغبة في السير فيه. وحجته قوية، لا يستطيع المستقرض أن يردها، أو يجادله فيها، والأصمعي لم يتدرج في العذر، بل جاء بأقوى ما عنده من قوة، فوضَعَها في الميدان دفعة واحدة، ولعلها اكتسحت ما أمامها.

وليس كل مستقرض يسلم بسهولة، فبعضهم ينظر إلى الأمر وكأنه حق من حقوقه، يحاسب على الاعتذار عن الاستجابة له، بل ويدعو الله على صاحبه، وكأنه تسبب له بأذى، يريد أن يؤخذ له حقه منه. وهي نظرة عجيبة، تنسيه أنه ما على المحسنين من سبيل، إن أعطوا قليلاً، أو لم يعطوا، فهم محسنون لا غارمون، ولا ضامنوا غُنْم. ويمكن أن نأخذ القصة الآتية مثلاً:

«كتب محمد بن سبالة إلى صديق يستقرضه، فكتب يعتذر من الإضاقة.

فقال له: إن كنت كاذباً فجعلك الله صادقاً، وإن

كنت ملومًا فجعلك الله معذوراً» .[1]

ظاهراً لقد أنصف، وباطناً لقد ألحّ، وهو إن كان دعا عليه في أول الجملة، فلم يدع له في آخرها، وإنما منّ عليه بقبول العذر، ومجموع الأمر لؤم، حتى إن كان للصداقة حقها، وإن كان هناك صداقة، والمعرفة العابرة لا تكفي أن يأتي في أثرها مثل هذه الدالّة، أو يصل الأمر فيها إلى هذا الاحتجاج.

وقبول العذر حتى لو كان ضعيفاً سمة الكرام، وعلامة الرفعة في المقام، والنبل في داخل النفس؛ فالعذر خطوة صداقة صح ما عللت به، أو لم يصح، والمهمّ أنه قُدِّم ليظهر موقف صاحبه الذي اختار أن يقف من المعتذر له في درجة أدنى، وفي زلفة أقل؛ ومثل هذه اللمحة من كرم التسليم لا تقابل إلا بكرم القبول الواضح، وهذا ما ظهر من الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان، وقصته مع الخارجي كمايلي:

«أتي عبدالملك بن مروان برجل قد خرج مع

(١) لطائف اللطف: ٧٧.

خارجي، فأمر بضرب عنقه، فقال:

يا أمير المؤمنين، ما هذا جزائي منك!

قال: وما جزاؤك؟

قال: والله ما خرجت معه إلا نظراً وتقرباً إليك، فإني رجل ما صحبت أحداً إلا هزم، وقتل، وصلب، وقد صح ذلك؛ كوني عليك مع غيرك، خير لك من مئة ألف رجل معك.

فضحك وأطلقه». (١)

لقد استفاد هذا الرجل، إن صحت القصة، من عقله، فاستعمله خير استعمال؛ لقد عرف قيمة العذر بصرف النظر عن قوّته؛ واعتبره جزءًا مهمًا واضحًا من التسليم، وهو ما يفيد الحاكم، لأنه يقرر مبدأ الاعتراف بالذنب، خلافًا لمن أيقن بالموت، ويئس من الحياة، فرمى ثقله بسباب ونقد مرّ.

وعبدالملك قدر لهذا الرجل مقدرته على الإتيان بقول مبتكر، وعذر بديع، في مثل هذه الساعة

(١) البصائر: ٤/ ٤٦.

الحرجة، ولعل عبدالملك في داخل نفسه يجد حرجاً في قتل مثل هذا، ويتلمس العذر في العفو عنه، فأهدى له هذا الوسيلة التي كان يبحث عنها. ورأس يفكر في مثل هذه اللحظة بمثل هذا العذر الطريف، لابد أن فيه مُخّاً زاكياً قد ملأ قفته!

وأبو العيناء من الذين ترد عنهم أفعال وأقوال تدل على ذكاء مفرط، وبديهة سريعة، فالرد دائمًا يأتي منه سريعًا حادًّا، فالناس دائمًا يحذرون التحرش به، وإذا ما جازف أحد بذلك، فإنه يضع نفسه موضع السخرية، لأن أبا العيناء لا يرحم، وإنما يدفع على المهاجم سلاحًا حادًا، فيه من المفاجأة ما يزلزل القدم عن مكانها؛ ومن أقل المواقف حدة الموقف الآتي مع من أبدى له ملاحظة، رد عليها بمنطق صادق، رغم وضوحه بعد أن قاله، إلا أنه كان غائبًا عن مخاطبه:

«لقي أبو العيناء ابن مقلة سحراً، فعجب من بكوره!

فقال:

يا عجبا! شاركني في الفعل، وانفرد في التعجب». [1]

إنه فعلاً موقف غريب، كيف يعجب شخص من فعل هو مشارك فيه، في كل مرة يتكرر فيها، ولكن الإنسان أحيانًا ينسى الآخرين، ولا يفكر إلا في نفسه، وهذا نقص في الخلق، يتكون ويتجمع من الصغر، كان يجب أن يقاومه الإنسان، ويعمل على محوه، ويعود نفسه على أن يكون عادلاً، فيعطي الآخرين حقهم قبل أخذ حقه، لأن حقهم قد يضيع عنده، لسبب أو آخر، أَمَّا حق نفسه عنده ففي مأمن من الضياع.

ويوضح هذا قصة أخرى، تماثل الأولى، ويأتي الرد مماثلاً مع بعض التفصيل؛ ويبدو أن مثل هذا ليس قليل الحدوث، بل يحدث كلما توفرت شروطه، وكلما التقى اثنان نسي أحدهما نفسه، وذكر الآخر:

«قال رجل لرقَبَة بن مصقله:

---

(١) لطائف اللطف: ٧٩.

ما أكثرك في كل طريق!

فقال له رقبة: إنك مستكثر مني ما تستقل من نفسك؛ هل رأيتني في طريق إلا وأنت فيه». [1]

وتتسع جواد الفكر مع أصحاب العقول الراجحة، ويأتي منهم من القول الصادق، والرأي الحق، والحكم العادل ما يلمع ضياؤه، ويشع بريقه؛ فيأتي القول مقنعًا، ويدخل المتعة إلى النفوس، ويملأ القلوب احترامًا لصاحب القول؛ والقصة الآتية خير مثل على هذا، لأنه بين عالمين، يعرف أحدهما مسارب عقل الآخر، ويقدر ما يأتي منه من فكر، وما يدلي به من رأي، والفكر لا يمكن إلا أن يكون زاكياً، والرأي إلا أن يكون صائبًا:

«كتب عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ إلى الحسن البصري:

أعنّي بأصحابك.

فأجابه الحسن: من كان من أصحابي يريد الدنيا

---

(١) البصائر: ٧/ ٨٠.

فلا حاجة لك فيه، ومن كان منهم يريد الآخرة فلا حاجة له قبلك. ولكن عليك بذوي الأحساب، فإنهم إن لم يتقوا استحيوا، وإن لم يستحيوا تكرموا». [1]

لقد تكلم العقل هنا بلسان ذرب، وقال قولاً فصيحًا واضحًا؛ كأن الحسن ـ رحمه الله ـ استقرأ الأمر من جميع جوانبه، فجاء بالنتيجة، جامعة مانعة؛ ولكن للعقل هنا فضل، وفيه زيادة، فلم يترك الحسن الخليفة، وقد استعان به، دون إعانة، بل دله على الطريق الذي يمكنه أن يسلكه، ليصل إلى بغيته، ويحقق هدفه، وإنه لإرشاد مضيء، وحل رصين.

والأمر يأخذ مجرًى آخر مع خليفة آخر، استشار عاملاً له، وطلب منه العون في اختيار رجل حدد صفاته، ولكن الطلب مختلف، والخليفة مختلف والعامل مختلف، فجاء الرد مختلفًا تبعًا لكل ذلك، ولكنه مناسب للرجال وللموقف، وجاء عن عقل واع، وفكر متأن:

---

(١) البصائر: ٢/٢٦.

«كتب عبدالملك بن مروان إلى الحجاج:

إذا قرأت كتابي هذا فاطلب لي رجلاً، يجب أن يعدل في النصيحة، وينصف في المودة؛ سيماه سيماء الشيوخ، وقلبه قلب الفتيان، وعقله عقل الكهول؛ لا يغابن من يواصل، ولا يرائم (يباعد) من يخالل؛ أحب الأشياء إليه الأثرة، وأحسن الأشياء عنده حسن المؤازرة؛ معروف في القلوب بالصدق، مقدم في النفوس بالأمانة.

فكتب إليه الحجاج:

يا أمير المؤمنين، هذه شهوة خفية، لا توجد أبداً، فاسلُ عنها، والسلام». (١)

قد لا تصح رواية هذه القصة، لإتقان التحبير الأدبي فيها، ولأنها لا تتفق مع ما بين الرجلين من علاقة، ولعلها مما كان يصاغ ليرفع من قيمة الحَجَّاج، ليعدل ما يثلبه به الناس.

ولكن العقل فيها ظاهر؛ ظاهر في تعداد الصفات،

---

(١) البصائر: ١/ ١٧٤.

وفي رد الحجاج باستحالة وجود مثل هذا الشخص المطلوب.

ويمر إشعاع مضيء من أحد مدارج العقل، فيخرج على النَّاس مدهشًا لهم؛ لأن ما يسير على غير ما اعتاد الناس من قواعد يلفت النظر؛ وهَبَنَّقَة جاء بقول ركَّبه على قاعدة نفسية، لا يَعْرِف قُوَّتها، وطغيان تأثيرها على المرء، إلا من مرّ بهذه التجربة، وتذوق طعم ما وجد فيها من لذة نفس، جاء مجربها يبني عليها قاعدة واسعة، يريد أن ينفذ منها فيل؛ فاستغرب الناس، والحقيقة أن لا غرابة:

«شرد بعير لهبنّقة، واسمه يزيد بن ثروان، فقال:

من وجد بعيري فهو له.

فقيل له: وما ينفعك من هذا؟

قال: إنكم لا تدرون ما حلاوة الوجدان» .[1]

إذا وجده إنسان وأخذه استراح هبنّقة من البحث

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٥٥.

عنه، وعلم أين مكانه، ومن وجده؛ أما إذا لم يوجد فسوف يبقى قلقًا. ولكن هبنّقة لم يقل هذا، وإنما قال أمرًا نفسيًا عميقًا، ذهب إلى اللذة التي تريح الإنسان داخليًا.

إن أم الطفل الذي أراد النبي سليمان أن ينشر جسمه ويَنصِفَه بينها وبين مدعية أمومته، ضحت بحقها كله مقابل أن يسلم الطفل، وتعرف أنه من الوجود بصحة وعافية، ولقد قدر النبي سليمان لها هذا، لأنه هو الذي وضع الأختبار، وبناه على النفس وطبيعتها، وما يأتي منها، وهو أعرف بقوانينها، ولقد نجح سليمان في السير في الاختبار، ونجحت أم الطفل، وأخفقت المدعية الظالمة.

والجانب النفسي كثيرًا ما يكون هو طريق العقل في تنفيذ بعض الأمور، ولهذا يضيء هذا الجانب نوراً ساطعًا قويًّا باهرًا، لا يسمح برؤية عمل العقل في الأمر، فتأتي الدهشة عند أول الحدث، ولكنها لا تلبث عند التأمل والتدبر من رؤية العقل، هذه

الجوهرة المختفية خلف هذا النور الباهر، والقصة التالية خير مثال على ذلك:

«قال عبدالملك بن مروان:

لأن أخطئ وقد استشرت أحب إلي من أن أصيب وقد استبددت»[1].

قد تأتي الإصابة ولكن تكون صدفة، وقيمتها ليست مثل التي جاءت على أصول وضعت عليها، فمشت فيها بنظام حتى وصلت إلى مستقرها. والاستشارة مبدأ وضعه عبدالملك لنفسه، ورضي به، وآمن بجدواه، وأن مخالفته مظنة للزلل، ولهذا فهو إذا لم يستشر في أمر، ونجح فيه، يشعر بأنه ارتكب ذنبًا، وشعوره هذا يقلل عنده لذة النجاح، وينغص عليه نفسًا النتيجة التي وصل إليها، لأنها تصبح صورة جميلة، في إطار قبيح، وماءاً عذباً، في إناء غير نظيف.

ومن الأمور التي تأتي مفاجئة للناس، وهي

---

(١) ربيع الأبرار: ٣/ ١٤٣.

تستند على تصرف سليم أوحى به العقل في أصفى حالاته، ولكن مظهرها يخالف ما اعتادوا عليه، وما وضعوه مقياسًا ثابتًا يزنون به الأمر، ما جاء عن عبدالله بن جعفر، فعبدالله مثلاً عرفوه كريمًا، يهب ما بيده مهما كان كبيرًا، ويعطي دون حساب، فإذا رأوا منه التفاتًا لأمر صغير، وعناية به، ورغبة في احتيازه، وعدم التفريط فيه، استغربوا ذلك، وظنوه تناقضًا، فإذا ما فاتحوه في الأمر، وشرح لهم قاعدته في الكرم، وقاعدته في التشدد، زال اللبس، وعرفوا أن الأمر ليس كما ظنوا، وأن لكل نوع من النوعين قاعدة، لا يخلط عبدالله بينهما:

«رئي عبدالله بن جعفر يماكس في درهم، فقيل له:

أتماكس في درهم وأنت تجود من المال بما تجود به؟

قال: ذاك مالي جدت به، وهذا عقلي بخلت به» .[1]

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٣٩٥، البصائر: ٣/ ١٨٣.

إن الأمر واضح بعد أن شرح عبدالله بن جعفر المبدأ العقلي الذي اتبعه، فزال اللبس، وتبين أن الأمر لا يخرج عن المعقول.

ومن الأمور القريبة إلى العقل ما قد يغفل الناس عنه رغم قربه منهم، فينسونه، حتى يُذَكَّروا به، ويبصروا بما لم يتبين الأمر فيه في البدء، وقدتسيطر فكرة قديمة على الإنسان، فيتخذها قاعدة، وهي معقولة مقبولة، فيفاجأ في يوم من الأيام بحالة لا تتواءم معها، فيضعف موقفه، وتهون حجته، ويضطر إلى التسليم:

«شهد قوم عند ابن شبرمة على قراح فيه نخل، فسألهم:

كم في القراح من نخل؟

قالوا: لا نعلم.

فردّ شهادتهم.

فقال له رجل منهم: أنت تقضي في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة، فكم فيه من اسطوانة؟

فأجازهم». [1]

لمثل هذه المفاجأة التي أدت إلى أن يغير القاضي رأيه، فيقبل شهادتهم، مفاجأة أخرى جاء بها محام، أنقذت متهمًا بالقتل، واعتقت رقبته، بحجة فاجأ بها المحامي القاضي، فكانت حجة دامغة، أيقظت النائم، ونبهت الغافل، وأبرأت الذمم:

يقال إن محاميًا مصريًا مشهورًا ترافع عن متّهم بالقتل، وكان الشاهد أو الشهود ذكروا أنهم رأوا القاتل يتسلل في الغلس، وأنهم رأوا الخطوط في طاقيته، وعرفوه بها. وفي آخر مرافعة، والمحامي يلخص دفاعه أطبق فجأة جانبي ثوب المحاماة عند الصدر، وغطى ربطة العنق، ثم سأل القاضي، ووكيل النيابة، وقال: ما لون ربطة العنق، التي لبستها طوال أيام المرافعة، في هذه القاعة المنارة بنور ساطع مثل الشمس، وليس بيني وبينكم إلا أمتار قليلة؟

فلما أبدوا جهلهم، قال لهم كيف تصدقون أن

---

(١) البصائر: ٣/ ١٨٣.

الشهود، وعيونهم كليلة، والوقت وقت غلس، والمسافة بين الشهود والمتهم أضعاف أضعاف هذه الأمتار، عرفوا القاتل، وميزوا طاقيته؟

لقد كانت آخرَ سَهْمٍ في جعبته نفذ إلى صدور القضاة يحمل الحقيقة التي غابت عنهم. وقد كسب القضية، وأصبح المتهم بريئًا.

ويسلك الزبير - رضي الله عنه - طريقًا موصلة إلى الهدف في مهنته، وهي التجارة، لأنه أعمل عقله، وراعى أوامر ربه، فنجح في ضمان الكسب، والربح الحلال المدرار؛ والقاعدة سهلة وبسيطة، ولكنها تحتاج إلى إرادة قوية في مقاومة إغراء الشيطان الذي يحوم دائمًا حول أصحاب المهن، يغريهم ويسول لهم، ويدلس عليهم؛ أما ما سار عليه الزبير فهو كما يأتي:

«قيل للزبير: بم بلغت ما بلغت من اليسار؟
قال: لم أرد ربحًا، ولم أستر عيبًا». [1]

(١) عيون الأخبار: ١/ ٣٥٩.

إنها قاعدة لا تتعب، وإنه مبدأ مضيء، يرعى حقوق الآخرين في عدم غشهم، والتزوير عليهم، وختلهم، وإنه لخلق تمسك به الزبير، أبعد به نفسه عن الجشع، وسار على قاعدة في التجارة رصيْنة في تحريك ما بيده من نقد وبضاعة، وكأنه يقول: إنها مثل الماء إن وقفت أسنت؛ ومن الربح القليل يأتي المال الكثير، وجانب الله مراعى في عدم الغش بستر العيب.

وهناك موقف لرجل عاقل، درس الأمر من جوانبه، فعرف المرامي، وما تؤدي إليه الأمور، فاختار أقل عناء يتقى به أكبر عناء، وتحمل تعبًا قليلاً ليكسب به راحة عظمى، وهو ما لم يره رجل تعجب من فعله، ولم يدرك ما أدركه، حتى شرح له الأمر، بكلمات قليلة، يكمن وراءها قول كثير، ومعنى واسع، وغرض نبيل شريف:

«نظر رجل إلى روح بن حاتم واقفًا في الشمس على باب المنصور، فقال له:

قد طال وقوفك في الشمس!

فقال روح: ليطول مقامي في الظل».[1]

إن روح لم تأخذه العزة بالاثم فيترفع عن الوقوف بباب المنصور ينتظر الأذن له بالدخول، بل صبر وأهان نفسه إهانة صغيرة، قصيرة الأمد، بباب الخليفة، ليكسب صحبة الخليفة، ويلبس بها شرفًا يفتح له الأبواب، التي لولاها لعانى إذلالاً من إناس صغيرين، ولولا هذه الإضاءة من العقل لوقع في تسويل شيطاني يدعوه إلى الترفع عن الخضوع لرغبة الخليفة وهي شرف، ليقع في يوم من الأيام لرغبة من هو أدنى منه، وهو إذلال لا يليق بِرَوْح.

إن مجرد معرفة عمال الخليفة بمجالسته له يفتح له أبوابًا كثيرة، ويدفع عنه أضرارًا كبرى، يضمن معها أن يعيش حياة كريمة، هذا غير رفد الخليفة الذي سوف يستعين به على جلب قلوب الناس له، فيصل الرحم، ويساعد المحتاج، ويهدي الصديق؛

(١) عيون الأخبار: ١/ ٣٣٩.

ويكرم القريب.

وموقف غير معتاد يواجه به شخص والده، وهو يحتضر، فيسر والده بما قال، وهو أمر ينفع في مثل هذه اللحظة الأخيرة:

«دخل عبيدالله بن زياد بن ظبيان التيمي على أبيه، وهو يجود بنفسه، فقال له:

ألا أوصي بك الأمير؟

فقال عبيدالله: إذا لم يكن للحي إلا وصية الميت، فالحي هو الميت». (١)

هذه بعض الأخبار التي وردت في التراث، إشعاع العقل فيها ظاهر، ونور الفكر أضاء دروب سيرها؛ تعددت جواد العقل التي سارت فيها، وما أكثر جواد العقل، ولعلها تستعصي على الاحصاء، والحسبان، فكل أمر عقلي له جادة يسير فيها مع حاشيته من ظروف وأحوال.

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٣٣٩.

الفهارس

(١) فهرس المواضيع حسب ورودها ٤١٠
(٢) فهرس المواضيع حسب حروف الهجاء ٤١١
(٣) فهرس الأسماء ٤١٢
(٤) فهرس الأماكن ٤٢٠
(٥) فهرس المراجع والمصادر ٤٢٣
(٦) فهرس الأبيات الشعرية ٤٢٨

***

(١)

فهرس المواضيع
حسب ورودها

* المقدمة ٥
* الخط عربية ١١
* سبب رئيس ٦٣
* لفائف جهل ٩٧
* المتنبؤون ١٤٧
* احتيال واحتيال ١٨٥
* بين التحرش والاستفزاز ٢٣٠
* النّاس والفشر ٢٨٢
* لغتنا وصيغ التعريف ٣٢٨
* في جواد العقل ٣٦٨

***

(٢)

فهرس المواضيع حسب حروف الهجاء

* المقــــدمة ٥

* احتيـــال واحتيـــال ١٨٥

* بين التحرش والاستفزاز ٢٣٠

* في جـــواد العقـــل ٣٦٨

* الخـــط عـــربـــة ١١

* ســـبب رئيس ٦٣

* لغتنا وصيغ التعريف ٣٢٨

* لفــائف جهـــل ٩٧

* المتنبـــؤون ١٤٧

* النــاس والفشـــر ٢٨٢

***

(٣) فهرس الأسماء

(أ)

إبليس: ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١
أحمد بن حنبل: ١١٢
أحمد النبي: ١٥٩
أحمد بن يوسف: ١٣٩
الأحمر: ٣٠
الأحنف بن قيس: ١١٠، ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٦٩
الأحوص بن محمد: ٢٢٥، ٢٢٦
أردشير: ٣٤٤
اسحاق بن مرار الشيباني الكوفي: ٨٧
الأسدي (ابن الكوفي): ٣٥
بنو إسرائيل: ١١٣
الأسكندر: ٢٦٧
إسماعيل بن إسحاق القاضي: ٥١
أشعب: ٢٢٥، ٢٢٦
ذو الأصبع العدواني: ١٣٢
الأصمعي: ١١٦، ١٤٤، ١٧٧، ٢٠٥، ٢٧١، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣٢٢، ٣٩٠، ٣٩١
الأعمش: ٢٢٣، ٢٤٣
أبو الأعور السلمي: ٢٢٤
الأمويون: ١١٨، ٢٣٩، ٢٥٣
بنو إياد: ٢٦٠

(ب)

البخاري: ١٩٧
محمد بن أحمد الأنصاري الدسكري: (ابن البرفطي): ٢٤، ٢٥، ٢٦
أبو البركات عبدالقاهر بن علي بن عبدالله بن جرادة: ١٧
بشار بن بردا: ٢٤٧
بشر بن مروان بن الحكم: ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧
أبو بكر الصديق: ٣٠١
أبو بكر الهجري: ٢٠٥
بلال بن أبي بردة: ٢٢٧، ٢٢٨
بلحارث بن كعب: ٢٠٣
بنوبهز: ٢١٩
الخواجه بيجو: ٢٨٧
أبو بيهس الخارجي: ٣٠٨

(ت)

التتار: ٤٦
تغلب: ٢٣٧
أبو تغلب: ٣٦، ٣٧
بنو تميم: ٢٤٢، ٢٥٦، ٢٦٩
التوزي: ٣٢٥
بنو تيم: ١٩٢

(ث)

الثعالبي: ٢٩٥
بنو ثعل: ٢٧٩
ثعلب: ٣٤٠، ٣٤٢، ٣٥٢
ثمامة: ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨

(ج)

الجاحظ: ٥١، ١١٤، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٣٢٤

جالينوس: ٣١٥
جامعة الملك سعود: ٢٧٦
الجراح بن عبدالله: ١٤١
جرير: ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠
جعفر البرمكي: ٣١٨
أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: ٤٧
جعفر بن سليمان: ١٠٩
جنادة بن أمية: ٧١
جنادة بن محمد الهروي اللغوي النحوي: ٨٨
جهور بن الضيف: ١٦١
جوهر: ٢٥٤، ٢٥٥

(ح)

حاتم: ٢٧٩، ٣١٥
آل حارثة بن ظالم: ٢٨٩
حارثة بن قدامة: ٢٤٢
حامد بن العباس هـ: ١٢١
الحجاج بن الزبير: ١٠٩
الحجاج بن علاط السلمي: ٢١٩
الحجاج بن يوسف: ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٤، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٨، ٣٦٩
حرثان بن الحارث: ١٣٢
ابن حزم (عامل سليمان على المدينة): ٥٨
ابن حزم (أبو محمد علي بن محمد بن سعيد): ٥٤، ٥٦
الحسن: ٣٦٥، ٣٩٦، ٣٩٧
ابن أبي محمد الحسن: ٢٦
أبو الحسن علي: ٢٦٠، ٢٦٥
أبو الحسن: ٣٨
أبو الحسن بكر بن النطاح: ٣٢١
الحسين بن أحمد بن خالويه: ٩٠
أبو الحسين بن سعد: ١٥٧
الحلواني: ١٩
حميد الطوسي: ٢١٨
أبو حنيفة: ٨٠، ١٤٠، ١٩٨، ١٩٩
حوشب بن يزيد بن رؤيم: ٢٥٨
أبو حيان التوحيدي (علي بن محمد بن العباس): ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ١٦١، ١٦٤، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢
حيدر الكتبي: ٢٢
أبو حية النميري: ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧

(خ)

خالد بن صفوان: ٧٩، ١٣٤، ٢٥٥، ٣٦٣، ٣٦٤
خالد القسري: ٢٦٣
خالد بن الوليد: ١٤٣، ١٤٤
خالد بن يزيد بن معاوية: ٢٤٩
الخالع: ٩١، ٩٢
خريم الناعم (خريم بن خليفة بن سنان ابن أبي حارثة المري): ٨٤، ٣٦٠
خفاف بن ندبة: ٣٣٢
خلف الأحمر: ٣٠٠
الخوارج: ٢١٦، ٢١٧
الخواجة بيجو: ٢٨٧

(د)

ابن دحون (أبو عبدالله): ٥٦
ابن دريد: ٣٤٢

أبو دلامة: ٢٠٦، ٢٠٧
أبو دلف: ٢٥٦، ٣٢١
أبو دهبل الجمحي: ٢٢٢

(ذ)

ذات أنواط: ١١٣
أبو ذر: ٣١٥
بنو ذهل: ١٩٤

(ر)

بنو راسب: ١٤٤، ١٤٥
أبا رافع المفضل: ٤٦
رؤبة بن العجاج: ٣٦٥
ربيعة بن عسل: ٢٩١، ٢٩٢
رزام بن حبيب: ٣٧٩
الرسول ﷺ: ٥٦، ١١٢، ١١٣، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٣، ١٨٨، ٢٠٧، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٣٣١
هارون الرشيد: ١٠٦، ٢٠٦، ٢١٨، ٣١١، ٣١٧، ٣١٨
ابن الرقاع: ٢٣٨، ٢٣٩
رقبة بن مصقلة: ٣٩٥
رملة بنت الزبير: ٢٤٩
ذو الرمة: ٢٤١
روح بن زنباع: ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٤٠٦، ٤٠٧
الروم (ملك): ٣١١، ٣١٢

(ز)

الزبير بن العوام: ١٨٨، ١٨٩، ٤٠٥، ٤٠٦
زعيم الدين بن جعفر: ٢٣
الزهري: ١١٢
زياد الأعجم: ٢٤٠
زياد (مولى): ٢٤١
زياد: ٢٤٥، ٢٥٩
زيد (أعرابي): ٢٧٢، ٢٧٣

(س)

سام بن نوح: ٣١٢
السامري: ١١٢
سجاح: ١٤٨، ١٤٩
أبو السرايا: ٢٥٩
سطيح: ١٧٣
سعيد بن عمرو: ٢٠١، ٢٠٢
سعيد بن خالد: ٦٥، ٦٦
سعيد بن سلم بن قتيبة: ١٧٧
سعيد بن المبارك بن الدهان: ٥٠
سفيان بن عيينة: ١٩٧، ١٩٨
أبو سفيان: ١٧٣، ١٧٥، ٢٤٥، ٢٥٤
سلام الأبرش هـ: ١٠٦
سلمي الموسوي: ١٠٩
سلمي: ٢٤٠
السليك: ٣٢٦
سليمان بن عبدالملك: ٥٨، ١٢٦، ١٤١، ١٤٢، ٢٥٩
سليمان بن داوود: ٢٠٠، ٢٠١، ٤٠٠
بنو سليم بن منصور: ٢١٩
السموءل بن عاديا: ٣١٥
سنان بن أبي سنان الديلمي: ١١٣
سيف الدولة: ٩٠

(ش)

ابن شبرمة: ٤٠٣

شداد الحارثي: ٢٥٠، ٢٥١
الشرقي بن القطامي: ١١٦
شعبة بن علقمة التميمي: ٣٦٣
عامر الشعبي: ٩٥، ١٤٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٣٦٦
شِـقّ: ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥

(ص)

الصاحب بن عباد: ٤٢
صدقة بن عبيد المدني: ٢٩٩
صعصعة بن صوحان: ٣٨٣
الصوفية: ١٨٣

(ض)

أبو ضمضم: ١٣٣

(ط)

ابن أبي طاهر: ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١
الطفاوة: ١٤٤، ١٤٥
بنو طهية: ٢٤٠
طيء: ٢٧٩

(ظ)

الملك الظاهر بيبرس: ١٦٧

(ع)

عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل: ١٨٨، ١٨٩
عاتكة بنت زيد بن معاوية: ١٨٩، ١٩٠
بنو عباد: ٣٨٤
العباسيون: ١٥، ١٥٥، ٣١٦
أبو العباس السفاح: ٢١٩
العباس بن عبدالمطلب: ١٦٧، ٢٢٠، ٢٢١
أبو العباس الناشيء: ١٠١
أبو عبدالرحمن القرشي: ٣٠٢، ٣٠٤
عبدالرحمن بن محمد الأشعث: ٢٥٨
عبدالله بن جدعان: ١٩٢
عبدالله بن جعفر: ٤٠٢، ٤٠٣
أبو عبدالله الحسيني: ٢٦
عبدالله بن الزبير: ٢٤٩، ٣٣١
عبدالله بن الزبير الحميدي الأسدي (شيخ البخاري): ١٩٧
عبدالله بن عامر: ٣٣٣، ٣٣٤
عبدالله ابن عباس: ٩٤، ١٧٩
عبدالله بن عمر: ١١٦، ١٧٩، ٢٧٨، ٣١٣، ٣١٤
عبدالله بن عمرو بن العاص: ١٦٦
عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر: ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ٣١٣، ٣١٤
أبو عبدالله بن مقلة: ١٨
عبدالملك بن مروان: ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٠، ١٣١، ١٣٢، ١٨٩، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٧٨، ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٨، ٤٠١
عبدالملك بن نمير: ٣١٠
عبدالواحد: ٣٤٧، ٣٤٨
أبو عبيدالله دحون: ٥٦
عبيدالله بن رافع: ٥٧
عبيدالله بن زياد بن ظبيان التيمي: ٤٠٨
أبو عبيدة: ٣٢٥
أبو عتاب: ١٣٦

العتابي: ١٠٧
عثمان بن عفان: ٥٩، ١١٩، ٢٥٤، ٣٣٤
العثمانيون: ١٥، ٦٣
بنو عجل: ١٩٤
الملك عبدالعزيز آل سعود: ٣٨٥
عبدالقاهر بن علي بن عبدالله بن جرادة أبو البركات: ١٧
عدوان (قبيلة): ١٣٠
عدي بن حاتم (أبو طريف): ٢٤٣
عدي بن الرقاع: ٢٠٢
ابن عرباض: ١٤٤
أبو عروة السباعي: ٣٠٠، ٣٠١
عز الدين الشواء: ٧٨٦
ابن عزرا: ١٦١
العُزَّى (الصنم): ١٤٤
عضد الدولة، بهاء الدين: ٣٣، ٤٤
عقيل: ٢٥٢، ٢٥٣
عكاظ: ٥
عكرمة: ١٧٩
العلاء بن المغيرة: ٢٢٧
علقمة بن عبدة: ٣٥٧
أبو علقمة النميري: ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤
علي بن أحمد الفارسي الأندلسي: ٤٦
أبو علي بن حامد: ١٥٤
علي بن سليمان: ١٠٩
علي بن أبي طالب: ٥٦، ٦٠، ٢٤٣، ٢٤٦، ٢٦٢، ٣١٥، ٣٩٦
علي بن عبدالله بن وصيف الناشىء: ٩١، ٩٢
علي بن عيسى: ٢٢١
علي بن عيسى الربعي: ٣٣
علي بن عيسى بن ماهان: ٣١٧، ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠
علي بن محمد بن عبيد بن الزبير الأسدي الكوفي: ٣٤، ٣٥
علي بن منجب بن سليمان الصيرفي أبو القاسم: ٣١
علي بن هلال بن البواب: ١٨، ٢١، ٢٢، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٣١
عمر بن أحمد بن العديم: ١٨، ٢٠، ٢١، ٢٢
عمر بن حريث: ١٤١
عمرو (مجهول): ١٩٤، ١٩٥
أم عمرو بن جندب بن عمرو بن جمعة السدوسي: ١١٩
عمر بن الحسين: ٢٣
عمر بن عبدالعزيز: ٦٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٢٧، ٢٢٨
عمر بن الخطاب: ٨٠، ٨١، ٨٢، ١١٤، ١٨٨
عمر بن الظرب: ١٣١
عمرو بن العاص: ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٨
عمرو بن عبيد: ٢٥٥
أبو عمرو بن العلاء: ٣٦٥
عمر بن هداب: ١٣٧
عمرو بن هلال: ١٩٠، ١٩١
بنو عمرو بن يربوع: ٢٩٢
أبو العنبس الصيرمي: ١٦٥
عنترة: ٣٠٠

عوج بن عنق: ٢٩١، ٣٠٩
عيسى عليه السلام: ٢٧٩، ٢٨٠
ابن عيسى الموصلي: ٣٦
أبو العيناء: ٢٦٧، ٣٩٤

(غ)

(ف)

فاطمة بنت ابنة عتبة بن ربيعة: ٢٥٢
الفتح بن خاقان: ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤
أبو الفرج الأصبهاني: ٣٦، ٥٨
الفرزدق: ٢٢٥، ٢٢٦
الفرس: ٣١٦، ٣٤٤
أبو الفضل بن العميد: ٤٢
الفقيه أبو الوليد: ٥٤

(ق)

أبو قابوس: ٣٢٣
القاسم بن عيسى: ٣٢١
قريش: ١٧١، ١٧٣، ١٩٢، ٢٢٠، ٢٢١
بن القرّيّة: إ٦، ٨٢، ٨٣، ٣٥٨
قطن بن عبد عوف الهلالي: ٣٧٣

(ك)

كسرى: ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٤
كعب: ١٧٩
كعب بن جعيل: ٢٢٦
بنو كلاب: ١٥٤
كلب (قبيلة): ١٤١، ١٥٤
كليب (الحجاج): ٢٦٠، ٢٦١
الكناني: ٣٣٤

(ل)

لبيد: ١٧٧
لقمان بن عاد: ٣٢٦
أبو لمعة: ٢٨٧

(م)

مالك بن أنس: ٥٦
مالك بن الريب: ٢٥٩
المأمون: ١٠٥، ١٢٢، ١٢٣، ١٣٩، ١٥٩، ٣١٥، ٣١٦
المبارك بن المبارك بن المبارك: ٣٠، ٣١، ٣٢
المبرد: ٣٢١، ٣٢٥
المتنبي: ٩٢، ١٥٤، ١٦٣
المتوكل: ٥١
أبو بكر محمد بن أحمد بن عبدالباقي الدقاق، المعروف بان الحاضنة: ٣٨، ٣٩
أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: ٤٧
محمد بن أحمد الأنصاري الدسكري: ٢٤، ٢٥، ٢٦
محمد بن الجهم السمري: ٣٠
محمد بن زياد الأعرابي: ٦٢
محمد بن سباله: ٣٩١
محمد بن سيرين: ١٩٩
محمد بن عبدوس: ١٢١، ١٢٢
محمد بن عبدالله الخطيب الاسكافي: ٢٢٩
محمد بن عبدالواحد البارودي: ٤٨
الوزير أبو محمد ابن العربي: ٥٥

محمد بن كعب القرطبي: ٢٠٠
محمد بن واقد الواقدي المدني: ٤٨
بنو مروان: ٢٦٠
مســرور: ١٠٨
مسلمة بن عبدالملك: ١٤٦
مسيلمة: ١٤٨، ١٤٩، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤
معاوية بن أبي سفيان: ٧٠، ٧١، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٩٠، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٩١، ٢٩٢، ٣٨٣
معبد بن خالد العدواني: ١٣٠
المعتصم: ١٦٣
معتمر بن سليمان: ٢٩٥
الملك المعظم علي بن أحمد: ٢٦
المعلِّى بن أيوب: ٢٠٩، ٢١٠، ٢١١
معمـر: ١١٢
المغيرة بن شعبة: ٢٠٣
المقتدر بالله هـ: ١٢١
ابن مقرّن: ٣٥٧
ابن مقلة: ٣٩٤
أبو جعفر المنصور: ١٥٥، ٢٠٥، ٤٠٦
منصور الفقيه: ١٦٤
المهدي: ٢٠٦، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٧٩
موسى: ١١٢، ١١٣، ١٢٩
موسى بن جعفر بن أبي كثير: ٥٨
أبو موسى: ٢٢٨
آل أبي موسى: ٢٢٨

(ن)

النابغة: ٣٢٣
النابغة الجعدي: ٣٣١
ابن النجار: ٣٤
نصر بن سيار: ٢٦٥
النعمان: ١٢٤
النواجي: ١٢٢

(هـ)

هاجر: ٢٦١
بنو هاشم: ٢٥٣
هانىء بن عتبة: ١٧٧
هبنقة (يزيد بن ثروان): ٣٩٩، ٤٠٠
ابن هبيرة: ٢٦٣
هدبة بن خشرم العذري: ٣٢٣
هرمس: ٣١٥
أبو هريرة: ١٧٠، ١٧٢
أبو هِفّان: ٥١، ٢٠٩، ٢١١، ٢٦٧
هلال بن الأسعر: ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٠٠
بنو هلال: ٣٣٤
هند بنت عتبة بن ربيعة: ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ٢٤٦
هود بن عاد بن إرم: ٣١٠
أبو الهيثم: ٢٦٣
الهيثم بن عدي: ٣٠٣

(و)

بنو وائل: ١٧٧
أبو واحد الليثي: ١١٣
ابن واقف: ٣٢٣
الولايات المتحدة: ٣٤٣
الوليد بن سريع: ١٤١
الوليد بن يزيد: ١٢٩

الوليد بن عبدالملك: ٢٣٨

(ي)

ياقوت: ٢٥، ٣٤، ٣٥
يحيى بن خالد: ١٤٥، ١٤٦
يحيى بن زياد الفرا: ٤٥
يحيى بن عروة: ٢٢٥
يزيد بن الخطيب: ٣١١، ٣١٢
يزيد بن عبدالملك: ١٢٥
يزيد بن معاوية: ١٩٠
يزيد بن منصور الحميري: ٢٤٧
يزيد بن المهلب: ٢١٠، ٢٠٢
يعقوب (فقيه سجستان): ٣٨٠، ٣٨١
يونس بن عبيد: ١٩٩

***

(٤) فهرس الأماكن

(أ)

إيران: ٣٤٦
أصبهان: ١٥٧، ٢٧١
الطف: ١١٧

(ب)

البحرين: ٢٠٨
البصرة: ١٦٥، ٢٠٨، ٢٥٤، ٢٩٢، ٣٠٥
بغداد: ٢٥، ٢٧، ٤١، ٤٥، ٤٦، ٣٠٥
البلقان: ٦٣، ٩٦

(ت)

تيري: ٣٧٧

(ج)

جور: ٣٤٣، ٣٤٤

(ح)

الحجاز: ٢٥
حلب: ٢٥، ٢٢٧
حنين: ١١٣

(خ)

خراسان: ٣١٧
الخرج: ٣٨٦
الخزيمة: ٢٧٥
خف: ٣٨٧
خوزستان: ٢٦

(د)

دجلة: ٤٦
دمشق: ٢٥، ٢٢٣، ٣٠٤
الدوادمي: ٣٨٧
دجلة: ٤٦

(ر)

الرياض: ٣٨٥، ٣٨٧

(ز)

زمزم: ١٩٧، ١٩٨
باب زيادة: ١٩

(س)

سجستان: ٣٨٠
السرّ: ٣٨٩
سُرّمن رأى: ١٦٥

(ش)

الشام: ٢٧٤

(ص)

صفّين: ٢٤٣، ٢٤٤

(ع)

عاملة: ٢٣٩
العراق: ٣٤٦
عمورية: ١٦٣
عنيزة: ٣٤٥، ٣٥٤

(ف)

الفرات: ٤٦
فلسطين: ٣٠٤

(ق)

القرم: ٩٦
القصيم: ١٩٣

(ك)

كرمان: ١٣٣
الكوفة: ١١٢

(م)

المدينة: ٢٢٣
مرات: ٣٨٩
مصر: ٥٩، ١٦٦، ٢٢٤، ٣٠٣، ٣٠٤
مكة: ١٧٣، ٢٢٠، ٢٧٥، ٣٨٧

(ن)

نجد: ١٩٣
النيل: ١٦٦، ١٦٧

(هـ)

همذان: ٣٠٤، ٣٠٥
الهند: ١٤٣، ١٤٤

(ي)

اليمن: ٣٠٥، ٣١٠

***

(٥) فهرس المراجع والمصادر

١ - أخبار الظراف والمتماجنين

لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي الجوزي

تحقيق: عبدالأمير مهنا

دار الفكر اللبناني - الطبعة الأولى : ١٩٩٠م

٢ - آداب الملوك

لأبي منصور عبدالملك الثعالبي

تحقيق الدكتور: جليل العطية

دار المغرب الإسلامي - الطبعة الأولى: ١٩٩٠م

٣ - أدب الدنيا والدين

لأبي المحاسن الماوردي

شرح وتعليق: محمد كريم راجح

دار اقرأ - بيروت

٤ - الأدب الكبير

لعبدالله بن المقفع

دار الجليل - بيروت

٥ - كتاب الأغاني

لأبي الفرج الأصفهاني

تحقيق لجنة من الأدباء

دار الثقافة ـ بيروت - الطبعة السادسة: ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م

٦ - كتاب الأمالي

لأبي علي إسماعيل القاسم القالي

دار الآفاق الجديدة - بيروت: ١٤٠٠هـ / ١٩٩٠م

٧ – كتاب الإمتاع والمؤانسة
لأبي حيان التوحيدي
تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين
منشورات دار مكتبة الحياة – بـيروت

٨ – أبناء نجباء الأبناء
لحجة الدين محمد بن ظفر
تحقيق: إبراهيم يونس
دار الصحوة للنشر: ١٩٩١م

٩ – البصائر والذخائر
لأبي حيان التوحيدي
تحقيق الدكتورة وداد القاضي
توزيع دار الجيل – بيروت – دار صادر
الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨؛

١٠– كتاب البغال
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق: الدكتور علي بوملحم
منشورات دار مكتب الهلال – بيروت – الطبعة الأولى: ١٩٩١م

١١– بهجة المجالس، وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس
لأبي عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر القرطبي
تحقيق: محمد مرسي الخولي
دار الكتب العلمية – بـيروت

١٢– البيان والتبيين
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق: عبدالسلام هارون
مطبعة: لجنة التأليف والترجمة والنشر
الطبعة الأولى

١٣- تاريخ بغـــداد

لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي

ومعه المستفاد من ذيل تاريخ بغداد

دار الكتب العلمية - بـــيروت

١٤- تحفة العروس ونزهة النفوس

لعبدالله محمد بن أحمد بن أبي القاسم التجاني

تحقيق: محمد إبراهيم الدسوقي

مكتبة ابن سينا

١٥- تمام المتون ،في شرح رسالة ابن زيدون

لخليل أيبك الصفدي

تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم

المكتبة العصرية - صيدا - بيروت

١٦- الحيـــوان

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

تحقيق: عبدالسلام هارون

دار إحيـــاء الـــتراث

الطبعة الثالثة: ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م

١٧- درة الغواص ، في أوهام الخواص

للقاسم بن علي الحريري

تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم

دار نهضة مصر للطبع والنشر

١٨- الديارات

أبو الفرج الأصفهاني

تحقيق: جليل العطية

رياض الريس - لندن - قبرص

الطبعة الأولى: ١٩٩١م

١٩- ربيع الأبرار، ونصوص الأخبار
لمحمد عمر الزمخشري
تحقيق: الدكتور سليم البعيمي

٢٠- رحلة الشتاء والصيف
لمحمد بن عبدالله الحسيني الموسوي الشهير بكبريت
تحقيق: محمد سعيد الطنطاوي
الطبعة الثانية - بيروت: ١٣٨٥هـ

٢١- سراج الملوك
لمحمد الوليد الطرطوشي
تحقيق: جعفر البياتي
نشر: رياض الريس للكتب والنشر

٢٢- سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون
لجمال الدين بن نباته المصري
تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم
المكتبة العصرية - صيدا: ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م

٢٣- شجر الدر
لأبي الطيب عبدالواحد بن علي اللغوي
تحقيق: محمد عبدالجواد
دار المعارف - الطبعة الثالثة

٢٤- العقد الفريد
لأبي عمر أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي
تحقيق: أحمد أمين و أحمد الزين و إبراهيم الابياري
مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة: ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م

٢٥- عيون الأخبار
لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري
دار الكتب العلمية - بيروت

٢٦- قصص الأنبياء
لأبي الفداء إسماعيل بن كثير
تحقيق: محمد أحمد عبدالعزيز
دار الكتب العلمية - بيروت: ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م

٢٧- الكشكول
لبهاء الدين العاملي
تحقيق الطاهر الزاوي
دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه)

٢٨- لطائف اللطف
أبو منصور عبدالملك الثعالبي
تحقيق: الدكتور عمر الأسعد
دار المسيرة - بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م

٢٩- كتاب لطف التدبير
لمحمد بن عبدالله الخطيب الاسكافي
تحقيق: أحمد عبدالباقي
دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية: ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م

٣٠- لسان العرب
لابن منظور

٣١- مجالس ثعلب
لأبي العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب
تحقيق: عبدالسلام هارون
دار المعارف - الطبعة الخامسة

٣٢- المحاسن والمساوىء
لإبراهيم بن محمد البيهقي
دار صادر - بيروت: ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م

٣٣- محاضرات الأدباء ، ومحاورات الشعراء والبلغاء
للراغب الأصفهاني
اختصار: إبراهيم زيدان
دار الآثار - بيروت

٣٤- المراح في المزاح
لبدر الدين أبو البركات محمد الغزي
(ضمن مجموعة الرسائل الكمالية: «١٢»)
مكتبة المعارف - الطائف

٣٥- معجم الأدباء
لياقوت بن عبدالله الحموي
دار إحياء التراث العربي - بيروت

٣٦- من اسمه عمرو من الشعراء
لأبي عبدالله محمد بن داوود بن الجراح
تحقيق: الدكتور عبدالله بن ناصر المانع
مطبعة المدني بمصر - الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ / ١٩٩١م

٣٧- نزهة الألباء ، في طبقات الأدباء
لأبي البركات كمال الدين عبدالرحمن بن محمد بن الانباري
تحقيق: الدكتور إبراهيم السامرائي
مكتبة المنار - الأردن - الزرقاء - الطبعة الثالثة: ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م

٣٨- وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان
لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد خلكان
تحقيق: الدكتور إحسان عباس
دار الثقافة - بيروت

***

(٦) فهرس أبيات الشعر

(أ)

إذا خَـــانَ الأَمِيـــرُ وَكَـــاتِبَـــاهُ	وَقَاضِي الأَرْضِ دَاهَنَ فِي القَضَاءِ	٣١٠

(ب)

مَـا اخْتَـرتُ إلاَّ أَشَرفَ الـرُّتَـبِ	خَطًّـا أُخَلِّـدُ مِنْـهُ فِـي الكُتُـبِ	١٧
مَـا قَـدَّرَ اللهُ هُـوَ الغَـالِـبُ	لَيْسَ الَّـذِيْ يَحْسِبُـه الحَـاسِـبُ	١٦٢
السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ	فِي حَدِّهِ الْحَدَّ بَيْنَ الجِدِّ وَاللَّعِبِ	١٦٣
مَـا كُنْـتُ وَلَـوَاكَ وَلا بَـرُّوْنُـكَ	رُوَيْدَكَ حَتَّى يَبْعَثَ الحَقَّ طَالِبُه	١١٧
أَقُـوْلُ لِلْبَغْـلِ لَمَّـا كَـادَ يَقْتُلُنِـي	لاَ بَارَكَ اللهُ فِيْ زَيْدٍ وَمَا وَهَبَا	٢٧٣
وَإِذا بُلِيْـتُ بِجَـاهِـلٍ مُتَحَـامِـلٍ	يَجِد المُحَالَ مِنَ الأُمُورِ صَوَابَا	١٠١

(ت)

يَقَـرُّ بِعَيْنِـي مَـا يَقَـرُّ بِعَيْنِهَـا	وَأَفْضَلُ شَيْءٍ مَا بِهِ العَيْنُ قَرَّتِ	٢٣٥
تَمِيْمُ بِطُرْقِ اللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ القَطَا	وَلَوْ سَلَكَتْ سُبْلَ المَكَارِمِ ضَلَّتِ	٢٥٦
يَمُـوتُ الصَّـالِحُونَ وَأَنْـتَ حَـيٌّ	تَخَطَّـاكَ المَنُـوْنُ لاَ تَمُـوْتُ	٢٦٤
أَتَـرْجُـو أَنْ أَمُـوْتَ وَأَنْـتَ حَـيٌّ	وَلَسْـتُ بِمَيِّـتٍ حَتَّـى تَمُـوْتَ	٢٦٤

(د)

قُلْـتُ لِحُمَّـى خَيْبَـرِ اسْتَعِـدِّيْ	هَـاكِ عِيَـالِـيَ فَـاجْهَـدِيْ وَجِـدِّيْ	١٣٧
لَنَـا جُلَسَـاءُ مَـا نَمَـلُّ حَـدِيْثَهُـمْ	أَلِبَّاءُ مَأْمُوْنُوْنَ غَيْبًا وَمَشْهَدَا	٦٢
فَمَاذَا عَسَىٰ الحَجَّاجُ يَبْلُغُ جُهْدَهُ	إِذَا نَحْـنُ جَـاوَزْنَـا حَفِيْـرَ زِيَـادِ	٢٥٩
لَمْ أَرَ مَحْبُوْسًا مِنَ النَّاسِ وَاحِدًا	حَبَا زَائِرًا فِي السِّجْنِ غَيْرَ يَزِيدِ	٢٠٢

(ر)

أَحَــبُّ شَــيْءٍ أَنْ يَكُــوْنَ لَــهُ	حُلقُومُ وَادٍ لَهُ فِي جَوْفِهِ غَارُ	٣٢٥
إِذَا أَنْفَذَ الذُّهْلِيُّ مَا فِي جِرَابِهِ	تَلَفَّتَ هَلْ يَلْقَى بِرَابِيَةٍ قَبْرَا	١٩٥
أَيَنْسَى كُلَيْبُ زَمَانَ الهُزَالِ	وَتَعْلِيْمَهُ سُوْرَةَ الكَوْثَرِ	٢٦٠
لاَ تَحْسَبَنَّ أَنْ بِـالكُتْـ	ـبِ مِثْلَنَا سَتَصِيْرُ	٥٠
إِنِّي نَذَرْتُ لَئِنْ رَأَيْتُكَ سَالِمًا	بِقُرَى العِرَاقِ وَأَنْتَ ذُو وَفْرِ	٢٠٧
أَتَذْكُرُ إِذْ لِحَافُكَ جِلْدُ شَاةٍ	وَإِذْ نَعْلاَكَ مِنْ جِلْدِ البَعِيْرِ	٢٧٢
وَلَسْتُ مُسَلِّمًا مَا دُمْتُ حَيًّا	عَلَى زَيْدٍ بِتَسْلِيْمِ الأَمِيْرِ	٢٧٢
لَهُ هِمَمٌ لاَ مُنْتَهَى لِكِبَارِهَا	وَهِمَّتُهُ الصُّغْرَى أَجَلُّ مِنَ الدَّهْرِ	٣٢١

(ش)

كَأَنَّكَ صَعْوَةٌ فِي أَصْلِ حُشٍّ	أَصَابَ الحُشَّ طَشٌّ بَعْدَ رَشِّ	٢٣٢
كَأَنَّكَ كَوْدَنٌ فِي إِسْتِ كَبْشٍ	يُدَلْدِلُ هٰكَذَا وَالْكَبْشُ يَمْشِي	٢٣٢

(ض)

عَذِيْرَ الحَيِّ مِنْ عَدْ	وَانَ كَانُوا حَيَّةَ الوَادِيْ	١٣١

(ع)

يَا رَوْحَ مَنْ لِبَنَاتٍ وَأَرْمَلَةٍ	إِذَا نَعَاكَ لأَهْلِ المَغْرِبِ النَّاعِي	٢١٣
إِنَّ الصَّلاَةَ أَرْبَعٌ فِي أَرْبَعْ	ثُمَّ ثَلاَثٌ بَعْدَهُنَّ أَرْبَعْ	١٣٥
إِنَّ الصَّلاَةَ أَربَعٌ وَأَربَعُ	ثُمَّ ثَلاَثٌ بَعْدَهُنَّ أَرْبَعُ	٢٧٠
وَعِيْدُ أَبِي قَابُوسَ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ	أَتَانِي وَدُوْنِي رَاكِسٌ فَالضَّوَاجِعُ	٣٢٣

(ف)

تَجَاهُ الشَّظَا جُنْبَ الحِمَى فَالمُشْرِّفُ	حِيَالَ الرُّبَى فَالشَّاهِقُ المُتَشَرِّفُ	٩١
فَلَمْ تَرَعْبَنِي مِثْلَ سَرْبٍ رَأَيْتُ	خَرَجْنَ عَلَيْنَا مِنْ زُقَاقِ ابْنِ وَاقِفِ	٣٢٣

(ك)

حَيَّـــاكَ رَبُّ العَـــرْشِ حَيَّـــاكَـــا ... إنَّ الَّـــذِيْ أَمَّلْـــتَ أَخْطَـــاكَـــا ١٢٣

حَيَّـــاكَ رَبُّ النَّـــاسِ حَيَّـــاكَـــا ... إذْ بِجَمَـــالِ الْـــوَجْـــهِ رَقَّـــاكَـــا ١٢٢

أَقُوْلُ لَهُ وَالرُّمْحُ يَأْطِرُ مَتْنَه ... تَـأَمَّـلْ خِفَـافًـا إنِّـي أَنَـا ذَالِكَـا ٣٢٢

(ل)

عِلْمُ النُّجُوْمِ عَلَى العُقُوْلِ وَبَالُ ... وَطِـلَابُ شَـيْءٍ لَا يُنَـالُ وَبَـالُ ١٦٢

فِـدًى لِـلأَكْـرَمِيْـنَ بَنِـيْ هِـلَالٍ ... عَلَـى عِـلَاَّتِهِـمْ أَهْلِـيَ وَمَـالِـيْ ٣٣٤

كَأَنَّ فِجَاجَ الأَرْضِ وَهِيَ عَرِيْضَةٌ ... عَلَى الخَائِفِ المَطْلُوبِ كِفَّةُ حَابِلِ ٣٢٣

تَسَمَّيْـتَ كَعْبًـا بِشَـرِّ العِظَـامِ ... وَكَـانَ أَبُـوْكَ يُسَمَّـى الجُعَـلْ ٢٣٧

فَتَبًّـا لِـدِيْـنِ عَبِيْـدِ النُّجُـوْمِ ... وَمَـنْ يَـدَّعِـيْ أَنَّهَـا تَعْقِـلُ ١٦٣

(م)

أَنَامُ مِلْءَ جُفُوْنِي عَنْ شَوَارِدِهَا ... وَيَسْهَرُ الخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُوا ٩٢

قَـــوْلُ المُنَجِّـــمِ شَـــيْءٌ ... دَعَـــا إلَيْـــهِ التَّـــوَهُّـــمُ ١٦٤

(ن)

وَمَا زِلْتُ فِي لَيْلَى لَدُنْ طَرَّ شَارِبِيْ ... إلَى اليَوْمِ أُبْدِيْ إحْنَةً وَأُوَاحَنُ ٣٥٢

وَقَـدْ عَـرِقَـتْ مَغَـابِنُهَـا وَجَـادَتْ ... بِـدِرَّتِهَـا قِـرَى جَحِـنٍ قَتِيْـنِ ١٢٥

وَلَئِـــنْ بَعثْـــتَ لَهُـــمْ بُغَـــا ... ةً مَـا البُغَـاةُ بِـوَاجِـدِيْنَـا ١٧٧

(هـ)

إذَا كُنْـتَ تَـزْعُـمُ أَنَّ النُّجُـومَ ... تَضُـرُّ وَتَنْفَـعُ مَـنْ تَحْتَهَـا ١٦٤

(ي)

قِيْلَ لِيْ قَدْ هَجَاكَ مَوْلَى زِيَادٍ ... فَـأَجِبْـهُ، فَقُلْـتَ: لَيْـسَ بِكُفْـوِي ٢٤١

نبذة عن المؤلف :

- ولد عام ١٣٤٤هـ في مدينة عنيزة بالقصيم بالمملكة العربية السعودية.
- جزء من دراسته الابتدائية بعنيزة وجزء منها والثانوية في مكة المكرمة.
- حصل على الليسانس من دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٣٧١هـ.
- حصل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ.
- عيِّن في العام نفسه أميناً عاماً لجامعة الملك سعود.
- عيِّن وكيلاً للجامعة عام ١٣٨١هـ حتى عام ١٣٩١هـ.
- درَّس تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب.
- انتقل منها رئيساً لديوان المراقبة العامة لمدة عامين ثم وزيراً للصحة ثم وزيراً للمعارف.

كتب صدرت للمؤلف :

- نشر عام ١٣٩٠هـ كتاب الشيخ أحمد المنقور في التاريخ.
- ألَّف عام ١٣٩٠هـ كتاب «عثمان بن بشر».
- ألَّف عام ١٣٩٥هـ كتيب «في طريق البحث».
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك «الظاهر بيبرس» باللغة العربية.
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك «الظاهر بيبرس» باللغة الانجليزية.
- حقق عام ١٣٩٦هـ كتاب «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر» ونشره.
- حقق كتاب : «حسن المناقب السرّية، المتفرعة من السيرة الظاهرية» لشافع ابن علي، ونشره عام ١٣٩٦هـ.
- من حطب الليل، نشر في عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- ألّف عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م كتاب : «قراءة في ديوان محمد بن عبدالله بن عثيمين».
- ألّف بين عامي ١٤٠٩ و ١٤١٤هـ كتاب «أي بني» في خمسة أجزاء.
- ألَّف عام ١٤١٤هـ كتاب «إطلالة على التراث» الأجزاء الستة وبين يديك الجزء السابع.

التوزيع

تطلب الأجزاء السبعة من كتاب «إطلالة على التراث» والأجزاء الخمسة من «أي بني»
من مؤسسة الجريسي للتوزيع

الرياض ١١٤٣١ ص. ب ١٤٠٥ - ت : ٤٠٢٢٥٦٤
جدة ت : ٦٨٢٦١٠٥ - الدمام ت : ٨٢٧١٨١١
القصيم ت : ٣٦٤٤٣٦٦ - خميس مشيط ت : ٢٢٢٠٧٥٨

ردمك : ٨ - ١١٨ - ٢٧ - ٩٦٦٠ (مج ٧)

مطبعة سفير تلفون ٤٩٨٠٧٨٠ - ٤٩٨٠٧٧٦ * الرياض